

المثل السائر لابن الأثير والردود عليه

دراسة في القضايا النقدية التي أثارها ابن الأثير

فدوى الحنبلي

رسالة مقدمة الى الدائرة العربية ولغات الشرق الأدنى

لنيل درجة ماجستير في اللغة العربية وآدابها

الجامعة الأميركية في بيروت

أغسطس ١٩٧٥

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT

Thesis Title:

Ibn al-Athir's book -" Al-Mathal al-Sa'ir
and the rebuttals it caused

"المثل السائر لابن الاثير والردود عليه"

دراسة في القضايا النقدية التي أثارها ابن الأثير

By:

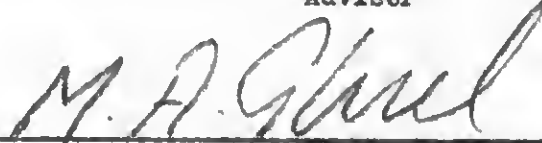
Fadwa Hanbali

Approved :



Professor Ihsan Abbas

Advisor



Professor Mahmud Ghul

Member of Committee



Professor Muhammad Najm

Member of Committee

Date of Thesis Presentation : August, 1975.

THESIS RELEASE FORM
American University of Beirut

I; Fadwa Hanbali



authorize the American University of Beirut
to supply copies of my thesis to libraries
or individuals upon request.

Signature Fadwa Hanbali

September 1, 1975

المثل السائر لابن الأثير والردود عليه

دراسة في القضايا النقدية التي أثارها ابن الأثير

فدوى الحنبلي

رسالة مقدمة الى الدائرة العربية ولغات الشرق الأدنى

لنيل درجة ماجستير في اللغة العربية وآدابها

الجامعة الأميركية في بيروت

أغسطس ١٩٢٥

المخطط العام

مقدمة

في النقاد الثلاثة

- أ - ابن الاثير
- ب - ابن ابي الحديد
- ج - المفسدى

القسم الاول

قضايا نقدية عامة

- ١ - علم البيان (بين البلاغي والنحوى)
- ٢ - الاديب بين الطبع والثقافة
- ٣ - العلاقة بين الشعر والنثر

القسم الثانى

قضايا نقدية خاصة

- ١ - قضية اللفظ
- ٢ - قضية المعنى
- ٣ - العلاقة بين اللفظ والمعنى
- ٤ - تداول المعاني (أو مشكلة السرقات)

القسم الثالث

مناقشات مفردة

- ١ - ابن الاثير الناقد الاديب في ميزان نفسه وميزان الاخرين
- ٢ - ابن الاثير والغزالي
- ٣ - ابن الاثير وشعلب
- ٤ - ابن الاثير والمعري
- ٥ - ابن الاثير والحريزى

خاتمة

مقدمة

- ١ - في طائفة من نقاد القرنين السابع والثامن للهجرة
- ٢ - في النقاد الثلاثة :
 - أ - ابن الأنسيري
 - ب - ابن أبي الحديد
 - ج - الصفدي

١ - في طائفة من نقاد القرنين السابع والثامن

تعد القضايا النقدية التي وقف عندها ضياء الدين ابن الاثير (٦٢٧ -) في كتاب " المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر " مدار اهتمام النقاد في القرنين السابع والثامن للهجرة على تفاوت بينهم في التوفر على فئة من تلك القضايا دون سواها .

وحين يريد الدارس ان يكون صورة متكاملة عن الحركة النقدية في ذينك القرنين - في الشام ومصر والمغرب الاسلامي فلا بد له من الوقوف عند عدد من النقاد من أبرزهم ، *

١ - ابن سناء الملك (٦٠٨) (١) مؤلف كتاب " دار الطراز " وهو مجموع مختارات من الموشحات لعدد من شعراء الاندلس وللمؤلف كذلك وأهميته

* - يمكن الرجوع الى المراجع التالية في استيفاء صورة اكمل لدور كل واحد من هؤلاء النقاد ، أ - تاريخ النقد الادبي عند العرب ، للدكتور احسان عباس ، بيروت ١٩٧١ ب - تاريخ النقد العربي ، للدكتور محمد زغلول سلام ، مصر (لا ت) ج - النقد الادبي في العصر الملوكي ، للدكتور عبد العزيز قلقيله ، القاهرة ١٩٧٢

١ - هو هبة الله بن جعفر بن القاضي محمد ، شاعر مصري يقترن اسمه بالوقوف عند الموشح دراسة ونظما ونقدا . ولي القضاء ، وكتب في ديوان الانشاء ، وقامت بينه وبين رئيس الديوان القاضي الفاضل - صلة وثيقة يميزت بتشجيع الثاني وتوجيهه الادبي والنقدي له ، وديوانه مطبوع . توفي بالقاهرة . (انظر في ترجمته : عقود البهائم ١ : ٢٠٦ ، ومعجم الادباء ١١ : ٢٦٥ ، والوفيات ٦ : ٦١ . وهناك دراسة عنه للدكتور عبد العزيز الاهواني . القاهرة ، ١٩٦٢) .

الكتاب من الوجهة النقدية ، هي في مقدمته التي تتحدث عن نظرية المؤلف في قواعد تأليف الموشح ونظمه وفي خصائصه واوزانه وانواعه ، وهي نظرية لم يسبق اليها ، كما لم يتابعه فيها احد من ادباء المشرق او المغرب على حد سواء .

٢ - ابن ظافر الازدي (- ٦٢٢) (١) صاحب كتاب " بدائع البدائع^٤ " و " غرائب التشبيهات على عرائب التشبيهات " وفي اولهما جمع المؤلف نماذج شعرية مما قيل على البديهة او ارتجالا ، ورتبه على العصور دون نقد او تحليل . ولكن موقفه النقدي يبدو من خلال حديثه عن البديهة والارتجال في مقدمة الكتاب حيث يجعل لهما اهمية كبرى وتقديرا عاليا .

ويورد في " غرائب التشبيهات " مختارات شعرية في التشبيهات التي تتميز عن غيرها من حيث الجودة او الغرابة ، ومعظمها لشعرا محدثين او معاصرين له .

١ - هو ابو منصور علي بن ظافر بن الحسين ، كاتب واديب مصري ، تشفى بالادب وعلوم العربية والتاريخ ، اتصل في بدء حياته الادبية بالقاضي الفاضل فشجعه واتصل بصلاح الدين الايوبي وابنه الافضل واخيه العادل ووزر للملك الاشرف فترة وقدم لخزائنه كتابه " بدائع البدائع^٤ " ثم تفرغ للتدريس في اواخر حياته في المدرسة المالكية . من مؤلفاته التاريخية " كتاب الدول المنقطعة " (انظر ، معجم الادباء ١٣ ، ١٦٤) وفيه ان تاريخ وفاته سنة ٦١٢ ، وانظر الفوات ١٢ ، ١٠٦ ، وفي " غرائب التشبيهات " دراسة عنه .

الكتاب من الوجهة النقدية ، هي في مقدمته التي تتحدث عن نظرية المؤلف في قواعد تأليف الموشح ونظمه وفي خصائصه واوزانه وانواعه ، وهي نظرية لم يسبق اليها ، كما لم يتابعه فيها احد من ادباء المشرق او المغرب على حد سواء .

٢ - ابن ظافر الازدي (١٠٢٢ -) (١) صاحب كتاب " بدائع البدائع " و " غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات " وفي اولهما جمع المؤلف نماذج شعرية مما قيل على البديهة او ارتجالا ، ورتبه على العصور دون نقد او تحليل . ولكن موقفه النقدي يبدو من خلال حديثه عن البديهة والارتجال في مقدمة الكتاب حيث يجعل لهما اهمية كبرى وتقديرا عاليا .

ويورد في " غرائب التنبيهات " مختارات شعرية في التشبيهات التي تتميز عن غيرها من حيث الجودة او الغرابة ، ومعظمها لشعرا محدثين او معاصرين له .

١ - هو ابو منصور علي بن ظافر بن الحسين ، كاتب واديب مصرى ، تشفى بالادب وعلوم العربية والتاريخ ، اتصل في بدء حياته الادبية بالقاضي الفاضل فشجعه واتصل بصلاح الدين الايوبي وابنه الافضل واخيه العادل ووزر للملك الاشرف فترة وقدم لخزائنه كتابه " بدائع البدائع " ثم تفرغ للتدريس في اواخر حياته في المدرسة المالكية . من مؤلفاته التاريخية " كتاب الدول المنقطعة " (انظر : معجم الادباء ١٢ : ٢٦٤) وفيه ان تاريخ وفاته سنة ٦١٢ ، وانظر الفوات ١٢ : ١٠٦ ، وفي " غرائب التنبيهات " دراسة عنه .

ورتيبها في ستة ابواب على الموضوع ، مع ايراد بعض الاحكام غير المعللة من آن
لآخر . (١)

٣ - اسماعيل بن محمد الشفندي (- ٦٢١) (٢) مؤلف " رسالة في المفاضلة
بين الاندلس والمغرب " وفيها يفتخر بعظام الملوك والعلماء والمؤرخين والبلاغيين
وكبار الشعراء الاندلسيين ويستشهد بقطع متميزة من الشعر الاندلسي رجع فيها
الى ما كان يستحسنه الذوق العام الاندلسي ويطرب له ، واكثرها يعتمد على
الصور الجميلة .

٤ - ابن جبار (- ٦٢٢) (٣) صاحب نظم الدر في نقد الشعر " ويسمي
الصفدي هذا الكتاب " تعليقه التي املاها على شعر ابن سناء الملك " (٤) ولم يصلنا

١ - مثال على ذلك قوله في : ٢٨ " ومن اطرف ذلك ، ومثله في الحسن ، ويلحقه

في الجودة " وانظر ايضا : ١٢ ، ١٤ ، ٤٢ / ١٥١ وغيرها .

٢ - ادب اندلسي من شقندة على نهر قرطبة ، كان متكما من العلم الاسلامية وعلم

الاوائل تولى القضاء غير مرة في الاندلس ، وكان مقربا من الخليفة الموحدي

المنصور ، كما كانت له مشاهد ومناظرات على جانب من القوة . ورسائله في فضل

الاندلس كتبها ردا على ابي يحيى ابن المعلم الطنجي حين تنازع معه في

مجلس امير سبتة حول افضلية الاندلس او المغرب . وكانت وفاته باشبيلية . (انظر

ترجمته واخباره في اختصار القدر المعلى : ١٣٨ ، وفي نفح الطيب : ٢ ، ١٨٦ ،

(٢٢٢)

٣ - هو القاضي شرف الدين علي بن اسماعيل بن ابراهيم الشجيري السخاوي ، كان

عالما عدلا واديبا شاعرا نحويا وحدث عن السلفي ، له شعر اثبت الصفدي

شيئا منه في نكت الهميان . (انظر نكت الهميان : ٢٠٨ - ٢٠٩ ، وفي

الرواة : ٢ ، ١٤٩)

٤ - الغيث المسجم ١ : ١٩٤

الكتاب ولكن هناك نماذج منه في كتاب " الغيث المسجم " وهي تتناول بالنقد شعر ابن سنا الملك . ويشير الصفدى الى ذلك بقوله : " وله كتاب نظم الدر في نقد الشعر قصره على مؤاخذات ابن سنا الملك ، واجاد في بعضها وتعنت تعنتا زائدا في بعضها " (١) كما يؤكد عنف ابن جبارة في بعض نقده حين يقول ايضا : " وتعنت عليه ابن جبارة . . . وقال عند هذا البيت : هذا نوع من الجنون والاختلاط " (٢)

٥ - ابن دحية الكلبي (- ٦٣٣) (٣) مؤلف " المطرب من اشعار اهل المغرب " وقد أورد في كتابه هذا نماذج شعرية في اغراض مختلفة معظمها في الغزل والنسيب والوصف

١ - نكت الهميان : ٢٠٦

٢ - البيت لابن سنا الملك وهو

لا أرضني بالشمس تشبيها لها والبدر بل لا أكتفي بالمكتفي

(انظر الغيث المسجم ١ : ١٦٤ ، وانظر اقواله النقدية الاخرى في ١ : ٣٤٢ ، ٣٧٢ ، ٤٠٥ من المصدر نفسه)

٣ - هو ابو الخطاب عمر بن الحسن بن علي الاندلسي البلسي الحافظ المحدث ، كان عارفا بالنحو واللغة ولا سيما غريبها واخبار العرب ، ولي القضاء مرتين في بلدة ، وحدث بتونس ثم ارتحل الى المشرق واختلط بالعلماء ، واستقر بالقاهرة حين جعله الملك العادل الايوبي مؤدبا لابنه الكامل ، وتولى فيها بعد التحديث في الكاملية وهي دار للحدِيث بناها له الكامل وقد ألف المطرب للكامل ليعرفه ويعرف الصارقة بأدب الاندلس ، له شعر وعدد من التصانيف . توفي بالقاهرة (انظر في ترجمته الوفيات ٣ : ٤٤٨ ، وبغية الوعاة ٢ : ١٨ ، ونفح الطيب ٢ : ١١ ، وفي المطرب دراسة عنه) .

والتشبيه وراعى فيها طرافة الصور والابتكار والابتداع تشبها مع الذوق العام
الاندلسي ، ويبدو موقفه النقدي من خلال تعليقاته على بعض النماذج (١)
وهو موقف دفاعي شبيه بموقف الشقندي .

٦ - ابن ابي الاصبغ (- ٦٥٤) (٢) مصنف كتاب " تحرير التعبير " في البلاغة
والنقد وفيه يقف عند انقسام البديع فيناقش تعريف من تقدمه لها ، ويغير
ويبدل في اسمائها أو يفرق بين المشتبه من انواعها ، ويتعقب بالنقد
شواهد تلك الانقسام ويلقي بحكمه النقدي على اصحابها ، كما يتبع بالنقد
الشعراء ويوازن بين شعره واشعارهم ومن خلال ذلك كله يبرز اهتمامه
بالبديع وتقديره له .

١ - يقول في احداها بعد ان مدح شعرا احد الاندلسيين " يا لله لاهل
المشرق قولة غاص بها شرق . الا انظروا الى الاحسان بعين الاحتسان
واقصروا عن استهجان الكرم الهجان " (المطرب ، ١٤٥)

٢ - هوزكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد ، شاعر مصري وأديب مؤلف ،
وأحد علماء البلاغة البارزين . عاش معظم حياته في مصر في العهد
الايوبي متفرغا للبحث والتأليف ولا يعرف عنه تخصص بدمج لسلطان أو تولي
منصب في الدولة . من تصانيفه : " بديع القرآن " و " الخواطر السوانح
في شرار الفواحش " (انظر في ترجمته الفوات ١ : ٦١٢ والنجم ٧ : ٣٢ ،
والشذرات ٥ : ٢٦٥ ، وترجم له ترجمة مسهبة د . حفي شرف فسي
كل من بديع القرآن ، وتحرير التعبير) .

٧ - عز الدين ابن أبي الحديد (- ٦٥٥) (١) شاح " نهج البلاغة " ومؤلف " الفلك الدائر " .

٨ - حازم القرطاجني (- ٦٨٤) (٢) مؤلف " منهاج البلغاء وسراج الادباء " وفيه مال الى تطبيق نظريات " ارسطو " وآرائه على الادب العربي مستخدما مصطلحات لم تكن مألوفة من قبل مثل " معلم ، اضافة ، تنوير ، مأم " وبمنهج جديد يدل على مدى تفهمه لنظريات ارسطو ، وعلى قدرته في ابراز النظريات النقدية المعروفة حتى زمنه وكأنها جديدة مبتكرة ، ولم يفته التقدم بنظرات شخصية لها اهميتها ، بحيث بات كتابه حلقة متممة لسائر كتب النقد والبلاغة المتقدمة .

١ - سأتني دراسة عنه ، وتعريف بكتابه فيما بعد .

٢ - هو ابو الحسن بن محمد بن محمد الانصاري القرطبي المولد ، القرطاجني الدار كان ففيها مالكيًا نحويًا بصريًا ، حافظًا للحديث ، اديبًا شاعرًا ، درس المنطق والخطابة والشعر ومصنفات الفارابي وابن سينا . هاجسًا الى المغرب في عهد الموحدين ، ثم الى تونس حيث اتمل بصاحبها المستمر ومدحه بأشعار فقال ثقته وألحق بديوانه وظل على صلة بالذفصيين الى ان مات . ويعد من شيوخ عصره فقد تخرج به جماعة منهم ابو حيان الاندلسي ، وابن سعيد ، وابن عصفور (انظر في ترجمته ، اختصار القدح ، ٢٠ ، وفيه الوعاة ١ : ٤١١ ، ونفع الطيب ٢ : ٨٤) وهناك دراسة عنه في " منهاج البلغاء وسراج الادباء " (١) .

١ - ابن سعيد الاندلسي (- ٦٨٥) (١) صاحب " المغرب في حلى المغرب " و " عنوان المرقصات والمطربات " . تحدث في اولها عن الاندلس وخصائصها وفضائلها ، وخرج على اقاليمها ومناطق كل اقليم فترجم لابرز رجالاته ، كل حسب مركزه الاجتماعي ومهنته في المنطقة ، وشفع ذلك بما قيل في كل منطقة من شعر فريد وموشح او زجل طريف ، معتمدا غرابة الصورة الشعرية وطرافتها في اختياراته مما يتمشى مع الذوق العام في الاندلس آنذاك ، وجمع في " عنوان المرقصات والمطربات " مختارات مما كتب نظما او نثرا في الاندلس والمشرق دون اطلاق حكم ما ، واعتمد فيها مقياس التأثير النفسي الذي تسببه الصور الشعرية الغريبة او المبتكرة ، في القارئ او المستمع ، مقتصر على اقوى نوعين تأثيرا وهما المرقص والمطرب مرتبين على الاعصار . والمرقص ما كان مخترعا او مولدا يكاد يلحق بطبقة الاختراع والمطرب ما كان فيه مسحة من الابداع ويقل درجة عن الاختراع .

١ - هو علي بن موسى بن محمد ، اديب كاتب نحوي مؤرخ من اسرة لها اسهام في الادب اتصل بالموحدين وعمل معهم ، وانتقل الى الشرق حاجا فمر بتونس وتعرف على ادبائها ، وحل في مصر والتقى بنخبة من شعرائها . اتصل بالملك الناصر صاحب حلب ومن بعده بسلطان دمشق توران شاه واصبح من ندائه . ثم تجول في الشرق ليعود فيستقر في تونس حيث نال الحظوة لدى المستنصر الحفصي صاحب تونس وتوفي هناك . (انظر المغرب ٢ : ١٢٨ وفيه ترجمة للناقد بقلمه ، وانظر الفوات ٢ : ١٢٨ ، ونغية الرعاة ٢ : ٢٠٩ ، وفيه ان وفاته سنة ٦٢٢ ، وانظر ايضا نفح الطيب ٢ : ١٢٦) .

١٠ - صلاح الدين الصفدى (٧٦٤ -) (١) مؤلف "نصرة الناصر على المثل السائر"

١١ - عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨ -) (٢) وقد أودع في مقدمة كتابه المعروف "العبر وديوان المبتدأ والخبر" آراء ونظرات عديدة في النقد ، اعتمد في بعضها آراء من تقدمه من النقاد العرب ، وأتى بجديد في البعض الآخر . فما ذكره طريقة النظم وفقا لقالب معين ، واشترك الانسانية في ممارسة النظم ، وتغنى الشعراء الاسلاميين على الداهليين بلاغة بسبب القرآن ، وأثر استيلاء العجمة على اللسان العربي في اللغة والادب نظما ونثرا ، وأثر الحفظ في تكوين الملكة الادبية ، وتعليل اهتمام المشاركة بالبلاغة تأليفا وشرحا وتعليما . (٣)

ان علاقة هؤلاء النقاد جميعا بالمثل السائر - سواء اكانت مباشرة او بالواسطة - ليست موضوع هذا البحث ، اذ يقتصر البحث على التأثير المباشر الذى أحدثه هذا الكتاب لدى كل من ابن ابي الحديد ، وصلاح الدين الصفدى ، فقد تصدى اولهما لبعض ما تضمنه المثل السائر من آراء ونظرات ورد عليها في كتاب رسمه "بالفلك الدائر على المثل السائر" وألف الثاني "نصرة الناصر على المثل السائر" تأييدا لـلال

١ - ستأتي دراسة عنه فيما يلي .

٢ - انظر في ترجمة ابن خلدون : كتاب العبر ٢ : ٢١٥ ، والضوء اللامع ١٤ : ١٤٥ وابنا الفخر ٢ : ٣٢٩

٣ - يمكن الرجوع الى الصفحات ١٠٦٢ - ١٠٦٥ وما بعدها من المقدمة للوقوف على الآراء المذكورة .

في موقفه من ابن الاثير .

٢ - في النفاذ الثلاثة

ولكل من هؤلاء الثلاثة - في عصره - دور هام يتجاوز المجال النقدي
الادبي الى مجالات اخرى في السياسة والادارة والفكر .

أ - ابن الاثير

فأما ابن الاثير : فهو ضياء الدين ابو الفتح نصرالله بن محمد بن
عبد الكريم الشيباني الجزري (١) من عائلة عربية على جانب من الثراء والجاه اذ
كانت تمتلك عدة بساتين في قرية العقبة (٢) . كما كان رأسا ابو الكم محمد
من التجار (٣) الى جانب توليه اعمال جزيرة ابن عمر لأتابكة الموصل فترة
من الزمن وكان خلالها حسن السيرة محبها وموثوقا به (٤) ويبدو انه كان ملما

١ - نسبة الى جزيرة ابن عمر . وهي بليدة فوق الموصل . يقال ان اول من عمرها

الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي (انظر معجم البلدان ٢ : ١٣٨ .

والوفيات ٣ : ٣٤٦)

٢ - من جملة اعمال جزيرة ابن عمر . وكانت تقابلها على الطرف الاخر من نهر دجلة .
(انظر . اتابكة الموصل : ١٤٧)

٣ - يقول صاحب اتابكة الموصل في حوادث ٥٦٧ هـ " وفيها خرجت مراكب من مصر الى
الشام فأخذ الفرنج الذين في لاذقية مركبين فيها مملوئين من الامتعة . فلما
أخذ الفرنج هذين المركبين كان لوالدي فيهما تجارة مع شخصين " (atabake-
الموصل : ١٥٥)

٤ - وهو ما يبدو من قول ابنه عز الدين " حدثني والدي قال : استدعاني يوما
atabek قطب الدين وهو بالجزيرة وكنت اتولى اعمالها له . . . قال لي اشرع
في عمارة هذه الاماكن التي تحتل العمارة . ففعلت وكبرت منزلي عنده " .
(atabake الموصل : ١٤٨)

بالاحداث التاريخية وعلى شيء من المعرفة العلمية والادبية ، فكان لهذا كله
اثر في التكوين العلمي والثقافي لاولاده الثلاثة ، مجد الدين الفقيه (١) ،
وعزالدين المؤرخ (٢) ، وضياء الدين الاديب .

ولد ضياء الدين في جزيرة ابن عمر عام ٥٥٨ / ١١٦٣ (٣) ، ونشأ بها
وحصل فيها شيئاً من العلم ، فأخذ الحديث عن اخيه مجد الدين " واستظهر
القرآن الكريم وشدا طرفاً من الادب وعلم العربية ، وحفظ من اشعار الجاهلية
واشعار المحدثين والأحاديث النبوية والسير والامثال صدراً وافراً . " (٤) ولما

١ - هو ابو السعادات المبارك بن محمد بن الاثير الجزري الشافعي ، كان
عالماً فاضلاً في العربية والقرآن والنحو واللغة والحديث والفقه كتب الانشاء
لأتابكة الموصل وله بعض التصانيف منها : (جامع الاصول في احاديث الرسول)
(النهاية في غريب الحديث) ، توفي بالموصل سنة ٦٠٦ (انظر في ترجمته ،
معجم الادباء ١٢ ، ٧١ ، والكامل ١٢ : ٢٨٢ ، والجامع المختصر : ٢٩٩
والوفيات ٤ ، ١٤١ وطبقات السبكي ٥ ، ١٥٣)

٢ - هو ابو الحسن علي بن محمد بن الاثير ، كان حافظاً للحديث والتاريخ ،
خبيراً بأنساب العرب واخبارهم ، درس على بعض علماء الموصل وبغداد ، ورحل
في طلب العلم الى دمشق والقدس . من مؤلفاته : الكامل في التاريخ ،
والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، توفي بالموصل سنة ٦٣٠ (انظر
في ترجمته : ذيل الروضتين : ١٦٢ ، والوفيات ٢ : ٣٤٨ والبدر السافر ،
الورقة ٢٠٥ ، وجزر الذهب ٥ ، ١٢)

٣ - انظر الوفيات ٥ ، ٢٨٩ ، وتكملة الاكمال : ٢٤ ورمّة الجنان ٤ ، ٩٧

٤ - عقود الجنان ٩ ، ٥٣

بلغ الحادية والعشرين من عمره انتقل الى الموصل (١) حيث اقام بعض الوقت في خدمة الامير قايمار (٢) ولعله تولى احدى الوظائف الكتابية له ، ومكث على ذلك نحو من ثماني سنوات ، ولكن يبدو انه لم يكن راضيا عن عمله الكتابي ، او قانعا بحياته في الموصل ، لا سيما وانه كان على قدر من الذكاء والطموح المتطلع الى المجد والشهرة ، لذا نراه يأخذ في اعداد نفسه لتحقيق ما يطمح اليه ، فينتظم في حلقات الدرس ، ويقبل على المزيد من الثقافة والعلم ، فيأخذ علم الحساب على ابن وهبان (٣) ، ويدرس القرآن والنحو على ابن ريان الماكسيني (٤) ، ولم تكفه هذه الدراسة ، فاعتمد طريقة التتقيف الذاتي من خلال اطلاعه على الكثير مما ألف في علم البيان (٥) ، وبالتأثير على تلاوة القرآن الكريم والتمعن في معانيه بهدف حلها والاقتباس منها

- ١ - انظر عقود الجمان ١٩ : ٥٣ ، والوفيات ١٥ : ٣٨١ ، والبدر السافر ، الورقة ٢٠٥
- ٢ - هو مجاهد الدين ابو المنصور بن عبد الله الزيني الرومي ، حاكم الموصل في الدولة النورية كان خيرا فاضلا على شي يسير من الفقه ، وكثير من حفظ التاريخ والشعر . توفي بالموصل سنة ٥١٥ (اخباره في : الكامل ١٢ : ١٥٣ واتبكة الموصل ١١٣ : ١١٢ والوفيات ٤ : ٨٢ ، والحوادث الجامعة : ٨)
- ٣ - هو ابو العباس احمد بن عبد الرحمن الجزري ، كان عالما متبحرا في علم كثيرة منها الفقه والحساب والاصول والفرائض والنجوم والمنطق . درس بالموصل وتوفي بمكة سنة ٥٨٥ (انظر في ترجمته الكامل ١٢ : ٤٢ ، وانظر عقود الجمان ١٩ : ٥٣)
- ٤ - هو صاكن الدين ابو الحارث مكي بن ريان بن شينة النحوي المقرئ الضرير . كان عارفا بالنحو واللغة والقراءات ، ملما بالفقه والحساب ، قرأ عليه اعيان الموصل وتخرجوا به وتوفي فيها سنة ٦٠٣ (لغة ترجمة في كل من معجم الادباء ١١ : ١٧١ ، والكامل ١٢ : ٢٥٨ ، ونكت الهميان ٢٩٦)
- ٥ - انظر المثل السائر ١ : ٣٥ ، ونسعه يتحدث عن هذا الاطلاع فيقول : " فشرعت عند ذلك في تطلبه والبحث عن تصانيفه وكتبه ، فلم اترك في تحصيله سبيلا الا نهجته ، ولا فادرت في ادراكه بابا الا ولجته حتى اتضح عندي بادية وخافية وانكشفت لي اقوال الائمة المشهورين فيه " (الجامع الكبير ١ - ٢) .

قال " كنت آخذ سورة من السور وأتلوها وكلما مر بي معنى أثبتته في ورقة مفردة حتى انتهى الى آخرها ، ثم آخذ في حل تلك المعاني التي اثبتتها واحدا بعد واحد ولا اقلع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة ، وأفعل ما فعلته أولا ، وكلما صقلت التلاوة مرة بعد مرة ظهر في كل مرة من المعاني ما لم يظهر في المرة التي قبلها " (١) .

وجرد من الاخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر ، وواظب على مطالعته بحيث كان ينهي قراءته في كل اسبوع مرة ، حتى حفظه حفظا تاما ولم يشذ عنه منه شيء (٢) . ووقف على الدواوين الشعرية ومجموعاتها ، فأضى وقتا طويلا في مطالعتها وفهرستها وانتقى منها " ما تكثر فوائده وتنشعب مفاصده " (٣) وما قد يحتاجه في الترميل وفي مهنة الكتابة عامة . وتدرك من حديث له انه كان على معرفة ببعض لغات عصره - وان كما لا ندري كيف تأت له هذه المعرفة ، فهو يقول يصف لقا له بخطيب اديب شاعر في احدى المدن التركية سنة ١٠٠

-
- ١ - المثل الثائر ١ ، ١٧١ ، ونجد له ما يقرب من هذا المعنى في الوشي المرقوم ، ٨٥
 - ٢ - المصدر نفسه ١ ، ١٦١ ، وانظر كلامه في المعنى نفسه في الوشي المرقوم ، ٥
 - ٣ - المثل السائر ٢ ، ٢٢٥ ، ويشير الى مختاره الشعرى في (الوشي المرقوم ص ١ - ١٠) فيقول " وكنت حفظت من الاشعار القديمة والحديثة ما لا احصيه كثرة ثم اقتصر بعد ذلك على شعر الطائيين حبيب بن اوس وابي عبادة البحتري وشعر ابي الطيب المتبي ، فحفظت هذه الدواوين الثلاثة وكنت اكرر عليها بالدرس مدة سنين حتى تمكنت من صوغ المعاني وصار الادمان لي خلقا وطبعاً " .

" فقصدت لقاؤه وألنيت كما أخبرت عنه . وعرض علي قصيدا من شعره وهي مائة بيت . كل عشرين منها على لغة . فكان متضمنا خمس لغات : العربية والفارسية والتركية والرومية والارضية فالجميع على وزن واحد وقافية واحدة . الا انه كان في غير اللغة العربية ابرع منه في اللغة العربية وهذا من اغرب ما شاهدته " (١)
ومنه ندرك ايضا ان معرفته بهذه اللغات كانت على وجه مكسبه من تقييم الشعر في كل منها .

وحين رأى ان لديه من الثقافة ما يكفي لتحقيق اهدافه . غادر الموصل عام ٥٨٢ الى دمشق حيث تمكن من الاتصال بالقاضي الفاضل (٢) فنشد مساعدته في تولي احد الاعمال الكتابية . فلم يخيب القاضي رجاءه . وألحقه بخدمة السلطان صلاح الدين الايوبي . ومكث في خدمة السلطان شهورا قلائل التقى خلالها بابنه الملك الافضل (٣) . ويبدو ان هذا اعجب بذكاء الكاتب وثقافته وشخصيته . وراقته انكاره ورفقته . ومن ثم رغب الى والده في ان كنه يتخلى عن كاتبه . فخير السلطان الاحير بينه

١ - الوشي المرقوم ٢١ - ٢٢

٢ - هو عبد الرحيم بن علي اللخمي البيسانى . من أئمة الكتاب وبلغائهم . وصاحب الطريقة الفاضلية في الانشاء . وزر للسلطان صلاح الدين الايوبي ولازمه وكتب الانشاء له . توفي بالقاهرة سنة ٥٩٦ (اخباره في الكامل ١٢ : ١٥٨ وما قبلها . وله ترجمة في الوفيات ٣ : ١٥٨ . وطبقات السبكي ٤ : ٢٥٣ . وغير الذهبي ٤ : ٢٩٢)
٣ - هو علي نور الدين بن يوسف صلاح الدين الايوبي . ولد سنة ٥٦٥ . وسمع شيئا على علماء مصر وصار شاعرا ادبيا . تولى ملك دمشق فترة ثم اخرج منها الى صرخند . ثم ملك مصر مدة عام واحد . لتؤخذ منه ويستقر نهائيا في سمبساط حيث توفي سنة ٦٢٢ (انظر اخباره في الكامل ١٢ : ٢٨ وذييل الروضتين : ١٤٥ . والوفيات ٣ : ٤١٩) .

وبين ابنه ، فاختار الابن بوحى من ذكائه وطموحه ، وأخذ في التحبب اليه حتى فاز بكامل ثقته بحيث ولاه " وزارته وكتابته وعلق به جميع اموره " (١)
وحين استقل الافضل بملك دمشق بعد وفاة والده استقل ضياء الدين ايضا بوزارة الدولة وكتابتها وتدير امورها ، وهذا " جمع بين تدبيرى السيف والقلم " (٢)
محققا بذلك ما سعى اليه سنوات طولا من تفرد بالسلطة واستئثار بالمجد .

وكان من الممكن ان يبقى في مركز القوة هذا لو لم يتصرف كما كانت تملي عليه عناصر ونزعات معينة في طبيعته واخلاقه . فقد كان بحسب شهادة صاحب عقود الجمان " متكبرا في نفسه ذا عجب عظيم وصلف زائد يتجاوز فيها الحد ، وكان كثير الحماقة ، متنافس الاحوال ، مشهورا في اموره ، سفیه اللسان ، جباها لمن يخاطبه ولو كان ملكا او سلطانا ، مقبوتا الى الناس شرس الاخلاق ، سريع الغضب قليل المبالاة بالخلق ، لا يرى في العالم الا نفسه ، ويبخس الناس حقوقهم ويحطمهم من اقدارهم ، ويرفقهم بعين الاهمال (٣)

ان من كانت له طبيعة كهذه ، واخلاق كذلك ، لا ينتظر منه ان يتوخى الحكمة او الروية في تصرف الامور ، او ان يكون قادرا على معاملة رؤوسه بفهم وعدل ، وهذا ما حدث مع ضياء الدين ، فقد اساء التصرف حتى اختلت به الاحوال

-
- ١ - عقود الجمان ١ ، ٥٣
 - ٢ - المصدر نفسه ، والوفيات ١٥ ، ٣٨١
 - ٣ - عقود الجمان ١ ، ٥٣

غاية الاختلال وكثر شاكوه " (١) واصبح الناس يتنون الخلاص منه بأية وسيلة ،
متسائلين مع احد شعرائهم :

متى أرى وزيركم وماله من وزر
يقلعه الله فذا اوان قلع الجيزر (٢)

وظل ضياء الدين سادرا في غيه ، فاشتد تضرع الناس منه وسخطهم عليه ، وكرروا
الشكوى منه الى الملك العادل (٣) ، وكان في مصر يرمى شئون الدولة الايوبية
فاستجاب العادل لاستغاثة الشاكين وتوجه الى دمشق لتسوية الامور فيها ، ومع
تطور الاحداث اضطر الى انتزاع دمشق من الافضل واخراجهم الى صرخد . (٤)
وهرب ضياء الدين في صندوق مقل من صناديق الافضل لخوفه من القتل او الحرق
من قبل الشعب النافم عليه . (٥)

- ١ - السلوك ١ : ١٣٥ ، ورمآة الزمان : ٤٣٦
- ٢ - الروضتين ٢ : ٢٢٨
- ٣ - هو ابو بكر محمد بن ايوب ، أخو صلاح الدين ، كان حازما في الامور وسياسيا
ادبيا ومحيا للعلم والعلماء ، تميز عهد بالفاوضات السياسية مع الصليبيين .
توفي قرب دمشق سنة ٥١٦ هـ . (اخباره في الكامل ج ١٢ ونهج الكروب ج ٣ ،
وانظر الوفيات ٥ : ٧٨ ، والسلوك ١ : ١٩١)
- ٤ - انظر الروضتين ٢ : ٢٢٨ ، والوفيات ٥ : ٣٨٩ ، وصرخد : بلد ملاصق لحوران
من اعمال دمشق ، وكانت قلعة حصينة ينسب اليها الخمر . (انظر معجم البلدان ٣ :
٤٠١)
- ٥ - انظر الروضتين ٢ : ٢٨٨ ، والوفيات ٥ : ٣٨٩ ، والنجم الزاهرة ٦ : ١٢٥ ،
والشذرات ٥ : ١٨٨

وكانت هذه الحادثة بداية مرحلة من القلق وعدم الاستقرار في حياة ضياء الدين . فقد لازمه الاخفاق السياسي ، واصبح دائم التجوال ، يتنقل بين حواضر الاقاليم ومدنها الكبرى ، ساعيا وراء غاية لم يستطع ادراكها ثانية ، الى ان استقر به المقام عام ٦١٨ في الموصل ، تلبية لدعوة تلقاها من صاحب الموصل لؤلؤ الأتابكي (١) ، وتولى كتابة الانشاء له ، ولم تفض فترة وجيزة الا واصبح " رأس الكتاب ومنشئ الدولة " . (٢)

وبهذا انتهى عهد السفر والتنقل وجوب البلاد ، وبات في مقدور ضياء الدين الاخلاص الى الهدوء والاستقرار خاصة وانه بلغ الستين من عمره ، وهي سن لا تستسيغ حياة التنقل والتجوال الدائم ، ثم انصرف الى التأليف الادبي ، فكتب في النقد والبلاغة وفي الترميز والانشاء ، فما ألفه من النوع الاول " المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر " - ولعله اشهر كتب المؤلف واصل شهرته كذلك ، ثم كتاب " الجامع الكبير في صناعة المنظم والمنثور " و " الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان " و " الوشي المرقوم في حل المنظم " وجميعها مطبوعة . وله مؤلفات اخرى من هذا النوع لم تطنأ ولكن المؤلف يشير اليها في بعض كتبه الأتفة الذكر ،

١ - هو بدر الدين بن عبد الله ، ولقبه الملك الرحيم ، ملك الموصل نحو من خمسين سنة وكان ذا عقل وهمة ودهاء . قدم لخزانته عز الدين ابن الاثير كتابه (الكامل) فأجازته واحسن اليه . توفي بالموصل سنة ٦٥٦ ، ار ٦٥٧ ، (اخباره في الكامل ١ : ٥ ، والهداية ١٣ : ٢١٤ ، والنجم ٧ : ٧٠)

٢ - عقود الجمان ٩ : ٥٤ ، والشذرات ٥ : ١٨٨

فله "عمود المعاني" (١١)، و"الرسالة في المعاني المبتدعة" (٢) وكتاب في السرقات الشعرية (٣).

غير ان التأليف لم يصرفه كلية عن الحياة العامة ، وقد أوفده بدرالدين لؤلؤ عدة مرات في مهمات رسمية الى بغداد ، وذهب في احداها للتعزية بالظاهر بأمر الله (٤) ، ولتهنئة المستنصر بالله (٥) بالخلافة ، فألقى خطبة بليغة استهلها بقوله " ما لليل والنهار لا يعتذران وقد عظم حادثهما ، وما للشمس والقمر لا يكفان وقد فقد ثالثهما " (٦)

وكانت وفاته ببغداد سنة ٦٢٧ / ١٢٢٩ أثناء قيامه بأحدى تلك المهمات .
ودفن هناك . (٧)

- ١ - انظر الاستدراك : ١١
- ٢ - انظر الاستدراك : ٦٠ ، والمثل السائر ٣ : ٢٨٩
- ٣ - انظر المثل السائر ٣ : ٢٢٢
- ٤ - هو محمد بن الناصر لدين الله العباس . بويج بالخلافة سنة ٦٢٢ ، وتوفي بعد شهر قلائل سنة ٦٢٣ كما جاء في ديوان رسائل ابن الاثير ١٨٦ ، والفخرى ٢٣٩ وسنة ٦٢٢ حسب قول الكامل ١٢ : ٤٣٨
- ٥ - هو ابو جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله ، كان شهيدا جوادا محيا للعلم ببنى المدرسة المنتصية للمذاهب الاربعة ، وبنى المساجد والربط . توفي ببغداد سنة ٦٤٠ (انظر في ترجمته الكامل ١٢ : ٤٥٨ ، والفخرى : ٢٤٠ والحوادث الجامعة : ١٥٥ ، والبداية والنهاية ١٣ : ١٥٦)
- ٦ - عقود الجمان ٩ : ٥٤ ومنهج الكرب ٤ : ١٩٨ وانظر نص الخطبة في ديوان رسائل ابن الاثير : ١٨٦ - ١٨٧
- ٧ - انظر تكملة الاكمال : ٢٤ والحوادث الجامعة : ١٢٦ ، وعبير الذهبي ١٥ : ١٥١

ب - ابن أبي الحديد

وأما عز الدين عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد المدائني (١) ، فقد كان أحد أخوة ثلاثة ، من أسرة ذات مكانة اجتماعية مبنزة ، وكان أبوه قاضيا بالمداين ، (٢) وأخوه أبو البركات ادبيا كاتباً (٣) ، وأما أخوه الآخر موفق الدين فقد كان قاضيا فقيها ادبيا شاعرا (٤) .

ولد عز الدين بالمداين عام ٥٨٦ / ١١٩٠ ، ونشأ بها ، وربما تلقى فيها شيئا من العلوم الأولية التي كان أطفال المسلمين يلقونها في ذلك العهد . من تلاوة القرآن الكريم ، وإلمام ببعض مبادئ العربية ، وحفظ لشيء من الأحاديث

-
- ١ - نسبة إلى المدائن ، وهي بليدة قريبة من بغداد ، وكان أهلها فلاحين يغلب عليهم التشيع على مذهب الإمامية (انظر معجم البلدان ٥ : ٧٤)
 - ٢ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٣ ، والجامع المختصر ٨٨
 - ٣ - هو محمد بن هبة الله بن أبي الحديد ، كاتب وقوف المدرسة النظامية ، كان فاضلا ادبيا شاعرا موصوفا بالذكاء . ولد بالمداين سنة ٥٦٤ ، وتوفي شابا ببغداد سنة ٥٩٨ (انظر الجامع المختصر ٨٨)
 - ٤ - هو أحمد بن هبة الله بن أبي الحديد . كان فقيها ادبيا تولى قضاء المدائن سنة ٦٢٣ ، وكتب الانشاء مدة للخليفة العباسي المستعصم بالله ، وله قصائد مدح في الخلفاء العباسيين ووزرائهم . ولد بالمداين سنة ٥٩٠ ، وتوفي ببغداد سنة ٦٥٥ أو ٦٥٦ قبيل وفاة أخيه عز الدين بقليل (انظر في ترجمته : الوفيات ٥ : ٣٩٢ ، والحوادث الجامعة ٥٦ : ٥٦ ، والوفائي ٨ : ٢١٥ ، والبداية والنهاية ١٣ : ١٩٩)

النبوية والأشعار . وكان لتشيع اهل المدائن اثره في الوجهة المذهبية له ،
اذ اقتدى بهم وتشيع وهو لا يزال حدثا ، كما اثر ذلك في نمو موهبته الشعرية
وتوجيهها بحيث اصبحت معظم اشعاره ذات لون تشيعي متميز (١) ، وقد عرف به
حتى بعد انتقاله الى بغداد طلبا للعلم .

ولا ندرى - على وجه التحديد - متى انتقل عزالدين الى بغداد ،
اذ ليس لدينا سوى اشارة عابرة اوردها في " شرح نهج البلاغة " يذكر فيها
حضوره في المدرسة النظامية وهو غلام (٢) ، ولكن من المؤكد ان ذلك حدث
قبل وفاة الشيخ صدق الواسطي (٣) ، سنة ٦٠٥ ، فقد اخذ عنه عزالدين الادب
والنحو وتفقه به بالحدِيث ودرس عليه اصول الكلام ولازمه الى حين وفاته . كذلك
درس النحو واللغة على الشيخ ابي البقاء العكبري (٤) ، واغاد منه كثيرا .

- ١ - ومنها قصائده المعروفة بالعلويات السبع والتي نظمها في المدائن سنة ٢١١
وكذلك قصائده لبعض اصدقائه العلويين في المدائن (انظر شرح النهج ٤ ،
٥٢٤ ، عقود الجمان ٤ : ٢١٨)
- ٢ - انظر شرح النهج ٣ : ٣٨٢
- ٣ - هو ابو الخير بن شبيب بن الحسين الصلحي النحوي ، درس النحو في
بغداد وسمع فيه وسمع الحديث ورواه ، وتخرج به جماعة من الاعيان واهل
الادب . توفي ببغداد (انظر في ترجمته : معجم الادباء ١٦ : ١٤٢ ،
والكامل ١٢ : ١١٨ ، ونغية الوعاة ٢ : ٢٨٢)
- ٤ - هو عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن محب الدين البغدادي الحنبلي
الضهير كان عالما بالنحو واللغة والمذهب والفرائض والحساب ، وانتفع به
كثيرون . توفي ببغداد سنة ٦١٦ (اخباره في انباء الرواة ٢ : ١١٦ ، والوفيات
٣ : ١٠٠ ، ونكت الهميان ١٢٨ ، ونغية الوعاة ٢ : ٣٨ ، وفي شرح
النهج ١ : ٤٢٢ اشارة له) .

ولم يكتف بذلك ، فأما مجالس العلم والادب ، واختلط بالعلماء من اصحاب المذاهب ، ودرس فقه الامام الشافعي ، وقرأ علم الاصول (١) ، ثم اطلع على شي من الكتب الفلسفية ، واستعان بخزائن كتب بغداد في دراسته المنطق وعلم الكلام (٢) ، وكذلك المسائل الطبيعية ونظريات الحكماء (٣) ، بحيث بات واحدا للوقائق قادرا على التدقيق والتحصيل . وظل طلب العلم والتزود بالزيد من المعرفة ويدنسه طيلة حياته ، وان لم يشغله عن النظم في شتى المناسبات .

ولعل انصرافه الى البحث والاطلاع اقمده عن مزاولة العمل في سن مبكرة ، فقد كان اول عمل له سنة ٦٢٠ حين تولى الاشراف على طريق خراسان (٤) ، وفي عهد المستنصر بالله اصبح كاتباً في ديوان الخلافة ونال الحظوة لدى الخليفة بمدائح له واثار تأليفه لخزائنه كتاب " الفلك الدائر على المثل السائر " سنة ٦٣٣ (٥)

-
- ١ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٣
 - ٢ - انظر شرح النهج ٤ : ٥٢٤ ، وفي ٣ : ١٦٨ من الشرح قصيدة له في الرد على الفلاسفة .
 - ٣ - انظر شرح النهج ٣ : ٣٠٤ ، وعقود الجمان ٤ : ٢١٣ ، وروضات الجنان ٥ : ٢٠
 - ٤ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٤
 - ٥ - انظر الفلك الدائر ٣٣ ، ونصرة الشاعر ٤٤

كما نال جوائزهم عطاياء ، واثنا ذلك كان قد نقل كاتباً في مخزن دار التشریفات (١) وكان الوزير آنذاك نصیرالدین ابا الازهر (٢) ، فاتصل به عزالدین وتوطدت الصلة بينهما ، ومدحه بالعديد من القوائد التي كانت تحوز اعجاب الوزير واستحسانه (٣) ، وحدث ان رتب مؤيد الدين العلقمي (٤) ناظراً لدار التشریفات وكان على غرار عزالدین في تشييعه واعتزاله وحبه للعلم والادب ، ف قرب المذهب والميول المشتركة بينهما وربطتهما بأواصر الصداقة والمودة ولم يضعف او يقلل من سانة صداقتهما .

انتقال عزالدین من دار التشریفات الى السواد لتولي الاشراف بأعماله (٥) ، بل ربما كان ذلك وراء اعاده عزالدین الى بغداد ناظراً للبيمارستان العضدى (٦) ، حين تولى العلقمي الوزارة سنة ٦٤٣ . ولاهتمام العلقمي البالغ بالادب ولا سيما الشيعي منه ، كلف عزالدین بشرح نهج البلاغة ، فاستجاب هذا للتكليف وشرع في تأليف الشرح في اول رجب سنة ٦٤٤ . ولما فرغ منه في آخر صفر سنة ٦٤٩ (٧) .

-
- ١ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٤
 - ٢ - هو احمد بن محمد بن الناقذ ، كان اميناً وسياسياً حازماً ، تولى الوزارة من ٦٢٩ - ٦٤٣ ، وضبط الدولة ضبطاً مرضياً . توفي ببغداد سنة ٦٤٣ (انظر الفخرى : ٢٤١ ، والحوادث الجامعة : ٢٩١)
 - ٣ - في شرح النهج ٤ : ٤١ يشير عزالدین الى استحسان الوزير لاحدى قصائد الاول المرتجلة ، وانشاده لها دائماً . وفي عقود الجمان ٤ : ٢٥١ والحوادث الجامعة : ٢٧ قصيدتا مدح وتهنئة للوزير في فتح اربل .
 - ٤ - هو ابو طالب محمد بن احمد العلقمي الشيعي ، درس الادب وشرح فيه ، وأحب الادب والعلم وقربهم ، واقتنى الكتب النفيسة . وكان خبيراً بالسياسة . توفي ببغداد سنة ٦٥٦ (انظر الفخرى : ٢٤٦ ، والحوادث الجامعة : ٢٣٦ ، والفوات ٢ : ٣١٢ ، والوافي ١ : ١٨٤)
 - ٥ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٤ ، ومجمع الاداب ٤ ق ١ : ١١٠
 - ٦ - انظر مجمع الاداب ٤ ق ١ : ١١٠
 - ٧ - انظر شرح النهج ٤ : ٥٢٤

أنفذه على يد أخيه موفق الدين الذي كان أيضا على صلة وثيقة بالوزير ،
فتلقى هذا الشرح بما يليق به من التقدير والاعتزاز ، ووصل مؤلفه بمائة
دينار وخلعة سنبة وفرنس ، وقد عبر عز الدين عن تأثره بصلة الوزير بقصيدة مدحه
فيها منها بحبه للاعتزال واهله . قال :

أحب الاعتزال وناصره ذوى الالباب والنظر الدقيق
أهل العدل والتوحيد اهلي ونعم فريقهم ابدا فريقى

.....

بآل العلقمي ورت زنادى وقامت بين اهل الفضل سوقى
فكم ثوب انيق نلت منهم ونلت بهم ركم طرف عتيق
أدام الله دولتهم وانحى على اعدائهم بالخنفقيق (١)

وتضطرب المصادر في وصف احداث السنوات الاخيرة من حياة عز الدين ،
فيشير البعض الى استمراره في عمله بنظارة البيمارستان الى حين وفاته سنة ٦٥٥ /
١٢٥٢ (٢) ، بينما ينص البعض الاخر على انه ادرك سقوط بغداد بأيدي المغول
ثم كلف بكتابة السلة (٣) ، ولكنه لم يعمر طويلا وما لبث ان توفي في مطلع
سنة ٦٥٦ / ١٢٥٨ (٤) .

-
- ١ - انظر نص القصيدة في روضات الجنات ٥ : ٢١ - ٢٢
والخنفقيق : الداهية (انظر اللسان ١٠ : ٩٣ مادة خنفق)
 - ٢ - انظر الفوات ١ : ٥١٩ ، والبداية والنهاية ١٣ : ١٩٩ ، وروضات الجنات ٥ : ٢٠
 - ٣ - " المراد بالسلة ، ما تحفظ فيه بعض الكتابات الديوانية وكتبها هو الذى يرقمها " (الجامع المختصر هاشم : ٢٢٩)
 - ٤ - انظر تلخيص مجمع الاداب ٤ ق ١ : ١١٠ ، والحوادث الجامعة : ٣٢٦

وتضطرب المصادر ايضا في حقيقة تشيعه ، فبعضها يؤكد ذلك (١) ،
وقسم ينفي تشيعه كلية (٢) ، وقسم محايد يتجنب الخوض في هذا الامر (٣) ،
وربما نشأ هذا الاضطراب من تغير آراء عز الدين بعد مفادته المدائن الى
بغداد حيث تأثر بمختلف العلوم والآراء والنظريات والمذاهب ، اما بمطالعته
للعديد من الكتب العلمية والادبية ، او باختلاطه ببعض اصحاب المذاهب من
العلماء كما ذكرنا سابقا فبات معتدلا لا يتعصب لمذهب دون الاخر و " منصفاً غاية
الانصاف في المداكمة بين الفريقين " . (٤)

على ان جميع المصادر متفقة من حيث اعتزال عز الدين ، وبعضها يورد قصائد
له يتغنى فيها بالاعتزال ، ومنها قوله :

لولا ثلاث لم أخف صرعتي	ليست كما قال فتي العبد
ان انصر التوحيد والعدل في	كل مكان باذلا جهدي
وان اناجي الله مستتمعا	بخلة احلى من الشهد (٥)

-
- ١ - انظر نصره الثائر : ٥٠ ، والبداية والنهاية ١٣ : ١١
 - ٢ - انظر روضات الجنات ٥ : ٢٠ ، ومصادر نهج البلاغة : ٢٥٧
 - ٣ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٣ ، والوفيات ٥ : ٣٩٢ ، والفوات ١ : ٢٥١١
ومجمع الاداب ٤ ق ١ : ١١٠ ، والسلوك ١ : ٤٠٨
 - ٤ - روضات الجنات ٥ : ٢٠
 - ٥ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٥ ، ونصره الثائر : ٤٧ ، والفوات ١ : ٥١١
وفي نصره الثائر : ٤٥ قصيدة للصفدي يرد فيها عليه لتغنيه بالاعتزال ،
وقصائد اخرى في الفوات ١ : ٥١١ في نفس الغرض .

ومناجاة الله سبحانه وتعالى ومخاطبته كما يفعل المتصوفة ، من الساعات التي يتميز بها شعر عز الدين ، ولكنه - ولا مرما - كان يتكتم شعره هذا ولا يبوح به الا للضرورة ، وفي ذلك نسعه يقول " من شعري الذي اتاجي به الباري سبحانه في خلواتي وهو فن أطويه وأكتمه عن الناس ، وإنما ذكرت بعضه في هذا الموضع لان المعنى ساق اليه والحديث ذو شجون :

يا من جفاني فوجدى بعده عدم هبني أسأت فأين العفو والكرم

.....

والله والله لو عاقبتني حقا بالنار تأكلني حطما وتلتهم
ما حلت عن حبك الباقي فليس علي حال ينصم والدهر ينصم " (١)

ويقول واصفا ارتياده في هدأة الليل لأماكن خالية من الناس ومناجيا ربه : " من شعري ايضا في المعنى وكنت أنادي به ليلا في مواضع مقفرة خالية من الناس بصوت رفيع وأجدح قلبي ايام كنت مالكا امرى مطلقا من قيود الاهل والولد وعلائق الدنيا :

وحقك ان اذخلتني النار قلت للذين بها قد كنت من احبه
وأفنيت عمري في علم دقيقة وما بنغيثي الا رضاء وقره
وآية صدق الصب ان يعذب الاذى اذا كان من يهوى عليه بصبه " (٢)

١ - شرح النهج ٣ : ١٩٦
٢ - شرح النهج ٣ : ١٩٦ ، وانظر نمرة الشاعر : ٤٥ ، والفوات ١ : ١١٠

وبدلنا هذا كله على ان عز الدين كان شاعرا قادرا على النظم في فنون
وأغراض عديدة . وقد شهر كشاعر عقب نظمه القصائد العلويات السبع ومن خلال
مدائحه الكثيرة للخلفاء والوزراء ، فسعى اليه لرواية شعره عدد من الادباء من
بينهم ابن الشعار (١) الذي تردد عليه مرات عديدة في منزله في بغداد
حتى تمكن من تدوين عدد من قصائده ، وأثبتها في كتابه " عقود الجمان " كما
اثبت له شيئا من كتبه الرسمية وتواقيعه (٢) .

غير ان شاعرية ابن ابي الحديد لا تقتل الا جانبا واحدا من الجوانب
المتعددة لشخصيته الادبية والعلمية . فقد كان اديبا خالعا في فنون الادب ،
متقنا لعلم اللسان العربي عارفا بأخبار العرب ولغاتها وخطبها ، وحسبه شاهدا
على رسوخ قدمه في هذه الفنون والمعارف شرحه " لنهج البلاغة " الذي
اسهب القول فيه بحيث اشتمل على الغريب والمعاني وعلم البيان، وما عساه يشتهر
وبشكل من الاعراب والتصريف ، وأورد في كل موضع ما يطابقه من النظائر والاشياء
نثرا ونظما ، وذكر ما يتضمنه من السير والوقائع والاحداث التاريخية وأثبتت
شيئا من الانساب والامثال والحكم النفسية (٣) ، ولم يفته التقدم ببعض الآراء

-
- ١ - هو ابو البركات كمال الدين المبارك بن ابي بكر بن حمدان ، اديب موصلني ،
درس الادب على ضياء الدين ابن الاثير ، وعلى بعض ادباء بغداد وشعرائها
توفي سنة ٦٥٤ (له ترجمة في مرآة الجنان ٤ : ١٢٦ ، وانظر اخباره
مع ابن ابي الحديد في عقود الجمان ٤ : ٢١٤)
 - ٢ - انظر عقود الجمان ٤ : ٢١٦ - ٢٥١
 - ٣ - شرح النهج ١ : ٢

والنظرات النقدية في بعض ضروب البديع (١) .

وربما كان كتابه " العبقري الحسان " صورة اخرى من تأليفه العلمي والادبي ، فقد جمع فيه مسائل شتى في علم الكلام والمنطق والطبيعي والاصول (٢) ، الى جانب فصول في البلاغة والنقد ، وأولى البديع عناية ملحوظة . قال " وقد تكلمت في كتابي المسمى بالعبقري الحسان على اقسام الصنعة البديعية نشرًا ونظمًا ، وبينت ان كثيرا منها يتداخل ويقع البعض من ذلك مقام البعض " (٣) .

وهو في " الفلك الدائر على المثل السائر " ناقد خبير بجيد الكلام وردئه ، وصاحب نظرات صائبة ، في تأويل المعنى نشرًا ونظمًا وفي الرد على بعض المسائل التي عرض لها ابن الاثير .

وهو الى ذلك كله الفقيه الاصولي والمتكلم المعتزلي جدلا ونقائلا وحنا .

١ - في شرح النهج ٢ : ٣٨٣ - ٣٨٥ ، ٢ : ٤٠٧ آراء له في التجنيس والاعتراض . وفي ٢ : ١٥٠ - ١٥٢ ، ٢٤٥ منه يتعقب اقوال ابن الاثير في المقابلة والاستطراد . ويحدث في ١ : ٧٢ - ٧٣ عن الاستعارة الحسنة والمستفجرة .

٢ - عقود الجمان ٤ : ٢١٢ ، وشرح النهج ٤ : ٥٧٥ ، وروضات الجنات ٥ : ٢٠

٣ - شرح النهج ٢ : ٢٨٦ . ويبدو انه بحث في كتابه هذا الفرق بين الفصاحة والبلاغة فهو يقول في الفلك الدائر ٨٧ " وقد ذكرنا نحن في كتاب العبقري الحسان اقوالا كثيرة في هذا الباب . ويشير في ١٣ من المصدر نفسه الى ذكره لوجوه اعراب الفاعل والمفعول والمبتدأ وتعليقها في الكتاب المذكور .

الذى ثبتت له مواقف وكتب مع بعض العلماء المعدودين مثل فخرالدين الرازي (١) .
فلهذا لعلمنا لا نغالي حين نصفه بأنه مثال للعالم المسلم القيم على فنون
شتى من العلم والادب .

ج - الصفدي

وناقدا الثالث وهو صلاح الدين ابو الصفا خليل بن ابيك بن عبد الله
الصفدي الشافعي ، ولد بمدينة صفد في فلسطين سنة ٦٩٦ / ١٢٩٦ (٢) .
وبها نشأ حتى بلغ مرحلة الشباب وحصل اثنا عشر عاماً بعض العلوم الأولية ، ويبدو
انه كانت لديه بعض الميول والهوايات الفنية ، مما حدا به الى الاقبال على
تعلم الرسم حتى اتقنه ومهر فيه (٣) ، وأكب على الخط يدرس اصوله

-
- ١ - هو محمد بن عمر بن الحسين التيمي ، الفقيه الشافعي ، وصاحب المؤلفات
العديدة في تفسير القرآن والفقه وعلم الكلام والحكمة والطب . توفي بهراة
سنة ٦٠٦ (انظر في ترجمته : الوفيات ٤ : ٢٤٨ ، والوافي ٤ : ٢٤٨ ،
وطبقات السبكي ٥ : ٣٣) وقد شرح ابن ابي الحديد كتابه " المرحصل "
و " المحصول في علم الاصول " ونقضهما حسب قول المصادر : نصره الثائر ،
٤٤ ، والفوات ١ : ٥١٩ ، وروضات الجنات ٥ : ٢٢
 - ٢ - في البدر الطالع ١ : ٢٤٣ ان مولده سنة ٦٩٧ / ، وينفرد صاحب النجم
الزاهرة بنسبته الى الامير عز الدين ابيك (انظر النجوم ١١ : ١٩) فيبدو
انه التبس عليه الاسمان (ابيك بن عبد الله) اذ كان لكل منهما ابن يدعى
ابراهيم (انظر الوافي ٥ : ٣٣٠)
 - ٣ - انظر الدرر الكامنة ٢ : ١٧٦

وقواعده حتى اجاده اجادة تامة (١) ثم آنس من نفسه ميلا للادب ،
اخذ يتحول على مر الايام الى شغف شديد به (٢) ، فوقف على ما سمعت به
ظروف بلاده وببئته من تراث ادبي ، مكتفيا منه بالقراءة والمطالعة والتحصيل
دون اية محاولة للتأليف او الكتابة (٣) .

وكان لا بد لطبيعته الفنية والادبية ان تفتح على مظاهر الجمال والغرابة
وان تطلبها حيث وجدت ، وصفد مدينة غنية بالمناظر الطبيعية الجميلة ، فلا عجب
ان كما نرى الصفدى يكثر من التنزه في مراحها وضواحيها مستطعنا ومتأملا ،
وربما استمرت انتباهه حادثة غريبة او نادرة مضحكة ، فيتوقف عندها يستوعب احداثها
ويحفظ ملاساتها ، وقد افاد فيما بعد من امثال هذه المشاهدات الطريفة والغريبة
في تأليفه الادبي المتنوع (٤) .

وعلى هذا النمق استمرت حياة الصفدى في بلده الى ان بلغ العشرين من
عمره وكان والده قد اصر على بقاءه معه ، ورفض ان يأذن له بفارقه او

-
- ١ - انظر الدرر الكامنة ١٧٦٠ : ٢ ، وكان الصفدى يعد الخط الجميل من ميزات
الاديب ، فينبه الى ذلك في تراجمه بقوله " خطه ابهج من الازهار "
او " خطه ابهج من الحديقة الغناء " او " كتب الخط المنسوب الملبس
الى الغاية وكانت له قدرة على حكايات الخطوط ومناسباتها " وغير ذلك كثير
في تراجمه (انظر الوافي ١ : ٢١٠ ، ٢٤١ ، ٥ ، ٣٠١ ، ٤ ، ٢٢١ وغيرها .
 - ٢ - انظر الدرر الكامنة ١٧٦٠ : ٢
 - ٣ - انظر الغيث المسجم ١٢ : ٢٣٨
 - ٤ - من ذلك ما ذكره في نكت الهميان : ٨٦ من مشاهدته لاعمى يحذر زوجته
من الوقوع في عقبة عين الورد (من ضواحي صفد) اثنا توجيهها الى حمام
(عين الزيتون)

مغادرة بلده (١) ، ولعله كان يشفق عليه من الترحل ومشاق الاقتراب قبل ان يشتد عوده . ثم أذن الوالد لابنه بالسفر ، فرحل الى دمشق طلباً للعلم والعمل ، ولا نعلم هل تولى عملاً في دمشق عقب وصوله اليها أم اكتفى بطلب العلم ، ولكن الثابت انه التقى بابن تيمية (٢) عام ٧١٧ هـ ، وجالسه واستمع اليه يدرس وناقشه في بعض مسائل النحو والتفسير ، وما لبث ان نزل عند رغبته فلازمه وواظب على حضور دروسه ما يقرب من سنتين ، وأعاد منه كثيراً (٣) . ثم انقطع الى الشعر فتمرس به فترة من الزمن ، وبدأ في النظم سنة ٧٢٠ حين كلفه بعضهم بنظم شيء في التذكرة (٤) . ثم دفعه

- ١ - انظر الدرر ٢ ، ١٧٦
- ٢ - هو شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، المفسر الفقيه الحافظ المحدث ولد بحران سنة ٦٦١ هـ ، وتوفي معتقلاً بقلعة دمشق سنة ٧٢٨ هـ (انظر في ترجمته ، الوافي ١٧ ، ١٥ ، والغيث المسجم ١٢ ، ١١ ، والفوات ٢ ، ٦٢ ، والدرر ١ ، ١٤٤)
- ٣ - يذكر الصفدي انه اثر تساؤلاته وناقشته لابن تيمية في تفسير بعض الايات القرآنية وفي اقوال المتكلمين في الواجب والممكن ، طلب الشيخ ان يلازمه ليفيد منه وقال له مبدئياً اعجابه بعقله المتأمل ، " هذا ذهن جيد ولو لازمتني سنة لانتفعت " (انظر الوافي ١٧ ، ٣٠ - ٢١) ويعقب الصفدي على ما افاده منه فيقول ، " وكنت احضر دروسه ويقع لي في اثنا كلامه فوائد لم اسمعها من غيره ولا وقعت عليها في كتاب " (الوافي ١٧ ، ٢٢)
- ٤ - انظر الغيث المسجم ٢ ، ٣٦

تعطشه للعلم والادب الى ارتياد آفاق جديدة ، فأم حلب عام ٢٢٣ (١) ،
حيث التقى بعدد من العلماء والادباء من بينهم كمال الدين الزملكاني (٢) ،
ويبدو ان هذا كان على فرار الصفدى في الميل للتنزه والترىخ ، ومن ثم راحا
يتجولان معا في ظاهر المدينة وفي الحدائق ، والزملكاني ينشد بعضا من القصائد ،
فيصفي له رفيقه باعجاب وقد يدون ما يسمعه (٣) ليضيفه الى محفوظه
الشعرى .

غير ان اقامة الصفدى في حلب لم تستمر طويلا ، فغادرها في السنة
التالية الى صفد حيث تولى كتابة الدرج (٤) . وأخذ يقضي اوقات فراغه
في مجالس العلم او الصوفية مستمعا وناظرا وناقشا ، ولم يلبث ان تعرف
الى بعض من كان يؤم تلك المجالس من رجال العلم والادب ، وكان من بينهم
شيخ صوفي يدعى شيخ حطين (٥) وقد نفع له الصفدى اشعاره ، وكتب له

- ١ - انظر الغيث المسجم ٢ : ٢٩ ، والوافي ٤ : ٢١٩
- ٢ - هو قاضي القضاة محمد بن علي بن عبد الواحد الانصارى الدمشقي ، كبير
الشافعية في عصره . درس الفقه والحريه وسرع فيها وتخرج به كتير
من الطلبة . توفي ببليبيس في مصر سنة ٧٤٧ (انظرني ترجمته الوافسي
٤ : ٢١٤ ، وطبقات السبكي ٥ : ٣٥١)
- ٣ - الوافسي ٤ : ٢١٩
- ٤ - المصدر نفسه ٣ : ٦٤ ، والدرر ٢ : ١٧٦
- ٥ - هو شمس الدين محمد بن ابي طالب الانصارى ، كان من الاذكياء ، قادرا
على التصنيف في كل منه . كتب عدة مصنفات من بينها الفراسة وجميع
فيه شيئا من كلام علماء العرب وفلاسفتهم ، واقوال افلاطون وارسطو .
وكانت ولادته بصدد وفيها توفي سنة ٧٤٧ (ترجمته في الوافسي ٣ : ١٦٣ ،
والدرر ٤ : ٧٧)

كتابه " الفراسة " ثم تناوله منه .

وظل الصفدى في بلده نحواً من سنتين ، تردد خلالها مرات عديدة على مدينة الخليل ، والتقى بالشيخ برهان الدين الجعبرى (١) ، واستمع اليه يقرأ ويحدث في المسجد الابراهيمي ، ولكن لم يتفق له ان يروى عنه شيئاً .

ثم انتقل كاتباً للدخ في القاهرة (٢) ، وشهد عاما ٧٢٨ ، ٧٢٩ جل التشفيث المثر له ، فقد أتيح له لقاء عدد من كبار الشيوخ والدرس عليهم ، فأخذ الادب والحديث عن ابن سيد الناس (٣) ، ولازمه قراءة سنتين ، تونفت خلالها عرى الصداقة بينهما ، واستمرت عبر المكاتبات الى حين وفاة الشيخ .

١ - هو ابراهيم بن عمر بن ابراهيم ، شيخ القراء في بلده ، ولى مشيخة الخليل بضعا وأربعين سنة وكتب ما يقارب المائة من التصانيف . توفي بالخليل سنة ٧٢٢ . (انظر ترجمته في الوافي ٦ : ٢٣ ، وطبقات السبكي ٦ : ٨٢ والدرر ١ : ٥٥ ، والشذرات ٦ : ١٧)

٢ - انظر الدرر ٢ : ١٧٦

٣ - هو فتح الدين محمد بن محمد بن احمد ، الامام الحافظ المحدث الاديب الناظم سمع وقرأ وترجل وتفرد بالحديث في وقته . وتوفي بالقاهرة سنة ٧٢٤ . (انظر في ترجمته الوافي ١ : ٢٨١ - ٣٠٨ ، والفوات ٢ : ٣٤٤ ، وطبقات السيكي ٦ : ٢١ والنجم ١١ : ٣٠٣)

كما تدرس بالنحو على شيخ نواة مصر آنذاك اثير الدين ابي حيان (١) ، وسمع الحديث والتفسير منه ، وقرأ عليه المقامات الحزبية ، بحضور جماعة من افاضل الديار المصرية ، فضلا عن بعض الدواوين الشعرية ، وسمع منه غير كتاب في اللغة والقراءات ، كما سمع منه ديوانه الشعرى وكتبه ، وظل على صلة به ، يزوره كلما أم القاهرة ويكتبه اذا افترقا ، وعين سمع بوفاته رثاء بقصيدة جامعة نوه فيها بعلمه وأدبه وفضائله الجمّة (٢) .

وكذلك التقى بالطبيب الاديب شمس الدين الانصارى (٣) ، فأخذ عنه شيئا من العلم العقلية . ويحدثنا الصفدى عن هذه العلم فيقول " قرأت عليه قطعة جيدة من كتاب " اقليدس " في الهندسة فكان يحل لي فيه ما افراه عليه بلا كلفة ، وما سأله عن شيء في وقت من الاوقات عما يتعلق بالحكمة من المنطق

١ - هو محمد بن يوسف بن علي الغرناطي الجياني ، الحافظ الاديب الشاعر المحدث تولى تدريس التفسير بالقبة المنصورية والافرا بجامع الاقمر بالقاهرة. وله كثير من التصانيف في التفسير والقراءات واللغة والنحو والادب ، وله ديوان شعر كذلك توفي بالقاهرة سنة ٧٤٥ (انظر في ترجمته الوافي ٥ : ٢٦٧ - ٢٨١ ، ونكت الهميان ٢٨٠ - ٢٨٦ ، وطبقات السبكي ٦ : ٣١ ونفح الطيب ٢ : ٥٣٥)

٢ - انظر هذه القصيدة في نكت الهميان : ٢٨٤ - ٢٨٥ ، وكذلك نص رسالة كتبها الصفدى لشيخه يمدحه نظما ونثرا وفي ورق احمر .

٣ - هو ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن ساعد السنجارى الاصل والمولد ، المصرى الدار ، كان بارعا في علم الحكمة والرياضيات والطب والادب ، وله مصنفات عدة توفي بالقاهرة سنة ٧٤١ (انظر في ترجمته الوافي ٢ : ٢٥ - ٢٧ ، والبدر الطالع ٢ : ٧١)

والطبيعي والرياضي والالهي الا واجاب بأحسن جواب " (١) .

وكان ابن جماعة (٢) من سمع منهم الصفدى في القاهرة ايضا ، وأفاد منه شيئا من علم الكلام والمنطق والحديث والفقه ، ونال ثقتَه بحيث حصل عيسى الاجازة منه ، على قرب العهد بينهما .

وفي أواخر عام ٧٢٩ ، عاد الصفدى الى دمشق ثانية ، (٣) وربما كاتبا للدرج ايضا ، وكانت دمشق في هذه الاونة صنو القاهرة في احتضانها للعديد من شيخ العلماء والادباء ، فوجد لديهم مبتغاه من الثقافة العلمية والادبية ، ويأدر الى التعرف ببعضهم ، فلقى ابن نباته (٤) وأخذ عنه الادب ولازمه بعد ان ربطت بينهما صداقة متينة وكانا يلتقيان في الغداة والعشى بالعائط النمطي من الجامع الاموى ويتذاكران ، وكثيرا ما كان يخطو لابن نباته انشاد مقطعات من قصائده ، فكان صديقه يصفي اليه باعجاب وشغف .

-
- ١ - الوافي ٢ : ٢٥
 - ٢ - هو بدر الدين محمد بن ابراهيم بن سعد الله ، قاضي القاضي ٢ والعالم بالحديث والفقه والاصول والتفسير . ولد بحماه سنة ٦٢١ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٢٢ بعد ان اجاز للصفدى سنة ٦٢٨ (انظر ترجمته في الوافي ٢ : ١٨ ، ونكت الهميان ٢٣٥ ، والبداية والنهاية ١٤ : ١٦٣)
 - ٣ - انظر الوافي ٤ : ٨٩
 - ٤ - هو جمال الدين محمد بن محمد بن محمد ، الفارقي الاصل المصري المولد ، كان ادبيا ناظما ناثرا ، اقام في دمشق ما يقرب من ثلاثين عاما وطوف بالشام . توفي بمصر سنة ٧٦٨ (ترجمته واخباره مع الصفدى في الوافي ١ : ٣١١ - ٣٢٩ وانظر الدرر ٤ : ٢١٦)

ولقي الصفدى شهاب الدين محمود (١) وأخذ عنه الادب ايضا ونرا عليه كتابه "حسن التوسل الى صناعة التوسل" كما سمع بعضا من اشعاره ودونها .

وأخذ التاريخ عن الذهبي (٢) بعد ان جالسه طويلا وتوثقت معرفته به ، واقتدى به في تاريخه وتراجمه فيها بعد .

وهكذا بات الصفدى تلميذا وصديقا لنخبة من الشيوخ الافاضل ، ولكن من بين صداقاته العديدة تميزت صداقته لتاج الدين السبكي (٣) بالاخوة الصادقة والعودة الخالصة ، فلا عجب في ان يسارع السبكي الى مد يد العون

١ - هو ابو الثناء بن سليمان بن فهد الحلبي ثم الدمشقي ، كان اديبا وكاتبا حافظا . عمل في دواوين الانشاء بمصر والشام نحو من خمسين عاما ، وألف "حسن التوسل الى صناعة التوسل" على غرار "المثل السائر" توفي بدمشق سنة ٧٤٥ (ترجمته واخباره مع الصفدى في الوافي ٢ : ٤٠٥ والغيبث المسجم ١ : ١٨٠ ، ٢٤٥ ، ٢٨١ ، ٢ : ٦٠ ، ٤١٠ وانظر ترجمته ايضا في الفوات ٢ : ٥٦٤ والدرر ٥ : ١٢)

٢ - هو الحافظ شمس الدين محمد احمد بن عثمان ، اتقن الحديث وألف كثيرا في التراجم والتاريخ . من مؤلفاته ، تاريخ الاسلام ، وطبقات الحفاظ ، والعبر اجاز للصفدى وتوفي سنة ٧٤٨ بدمشق (انظر ترجمته في الوافي ٢ : ١٦٣ ، ونكت الهميان : ٢٤١ ، وطبقات السبكي ٥ : ٢١٦ ، والدرر ٢ : ٤٢٦)

٣ - هو قاضي القضاة عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي الانصارى الشافعي المؤرخ الباحث ، صاحب "طبقات الشافعية الكبرى" توفي بدمشق سنة ٧٧١ . (انظر في ترجمته الدرر ٣ : ٣١ والشذرات ٦ : ٢٢١)

الى صديقه كلما دعت الحاجة الى ذلك . ومن ثم كان وراة تولي الصفدى كتابة الدستور في دمشق سنة ٧٢١ ووراة ترقية الاخير في مجال عمله حين عمل على نقله كاتباً للسرف في حلب في السنة نفسها (١) ، وجرياً على عادة الصفدى في المبادرة الى لقاء اهل العلم والادب ، نراه متوجهاً شمالي حلب حيث التقى بالشاعر صفي الدين الحلبي (٢) ، وسمع منه شيئاً من قصائده .

ويبدو ان طبيعة عمل الصفدى كانت تستدعي تنقله بين مصر والشام ، لذا نجده يغادر حلب بعد فترة وجيزة الى القاهرة (٣) ففصل (٤)

- ١ - انظر الغيث المسج ١ : ١٩٥ ، وطبقات السبكي ٦ : ١٤
- ٢ - هو عبد العزيز بن سرايا بن علي ، الاديب الشاعر الشيعي ، ولد بالحلة سنة ٦٧٣ وحصل الادب وأولع بنظم الشعر منذ ان شب عن الطوق . وكان يتعاطى التجارة متقللاً بين الشام ومصر والعراق ، ومدح ملوك ديار بكر بن وائل ، وسلاطين الماليك في مصر . من تصانيفه " الكافية البديعية في المدائح النبوية " . توفي ببغداد سنة ٧٥٠ او ٧٥٣ (انظر فسي ترجمته الدرر ٣ : ٤٧٩ ، والنجوم الزاهرة ١٠ : ٢٣٨ ، والبدر الطالع ١ : ٣٥٨ زوردة اخباره مع الصفدى في الغيث المسج ١ : ١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢٦٦ ، ٣٥٩)
- ٣ - انظر الغيث المسج ٢ : ٦٦ ، ٢٥٦
- ٤ - انظر المصدر نفسه ٢ : ٤٠٨ ، وفي الوافي ١ : ٢٩٣ ، يصف الصفدى حزنه لدى سماعه في صدد سنة ٧٢٤ بوفاة شيخه ابن سيد الناس ، ويثبت مريضة له فيه .

فالقاهرة مرة اخرى (١) ، فرحمة مالك بن طوق (٢) ، وفي كل بلد ينتقل اليه ، كان يشارك في لقاءات ومجالس ادبية مع شيوخه او اصدقائه او ادباء ناشئين ، فيزداد فائدة واطلاعا .

وبعد سنوات اخرى من التنقل ، اكتسب الصفدى فيها قدرا وافرا من الثقافة والخبرة ، اذ تلقاه كبار الشيخ كما ذكرنا ، وأمدته رحلاته العديدة واختلاطه بالناس على اختلاف طبقاتهم ، خبرة موسعة ومعرفة بمختلف العادات والتقاليد والطباع ، بعد هذا كله شعر الصفدى بحاجة ماسة الى الاستقرار . فعاد الى دمشق حيث تولى كتابة الدستور ووكالة بيت المال معا (٣) ، وكان ذلك بمساعدة صديقه السبكي . وظل في وظيفته هذه الى حين وفاته ، ولم يغادر دمشق اثنا ذلك الا لزيارة بلده صفد (٤) أو لتأدية فريضة الحج (٥) .

وقد اتاح له الاستقرار الفراغ ما شرع فيه من تصنيف ، فانهم كتابته

-
- ١ - في نكت الهميان : ١٦٤ يشير الصفدى الى مغادرته القاهرة سنة ٧٣٦ ، وانظر الوافي ٣ : ٢٤٤
 - ٢ - انظر الوافي ٢ : ١٦٣ ، والرحبة : بلد بين دمشق وحلب يقال ان مالك بن طوق احد ندماء الرشيد أسسها (انظر معجم البلدان ٣ : ٢٤)
 - ٣ - انظر طبقات السبكي ٦ : ١٤
 - ٤ - يذكر الصفدى في الوافي ١ : ١٧ انه تمت قراءة السيرة النبوية من الوافي سنة ٧٤٨ بحضور بعض اعيان صفد .
 - ٥ - ويذكر في المصدر نفسه ١ : ١٨ ان السيرة النبوية قرئت عليه سنة ٧٥٧ في تبوك اثنا توجهه للحجاء ، وفي الحزم النبوي بالمدينة ايضا .

مؤلفه الجليل الوافي بالوفيات - سجل ثقافته وخبرته معا - فضلا عن
عشرات التصانيف التي يزيد عدد مجلداتها عن المائتين (١) ومن بينها
عدد من الكتب الادبية والنقدية ، في مقدمتها كتاب " نعمة الناصر على المثل
السائر " و " جنان الجناس " (٢) و " الغيث المسجم في شرح لامية
المعجم " (٣) و " تمام المتن في شرح رسالة ابن زيدون " (٤) . ولكن
اشتغاله بالمناصب وانهماكه في التأليف لم يعيقاه عن التصدي في اواخر
حياته للتدريس في الجامع حيث سمع منه الذهبي وغيره من الشيوخ (٥) .

١ - انظر الدرر ٢ ، ١٧٦ ، والبداية والنهاية ١٤ : ٢٠٣ والشذرات
٦ : ٢٠١

٢ - عقد المؤلف فيه فصلا لمناقشة تعريف عدد من علماء العربية للجناس
وتفنيد اقوالهم فيه وكذلك لمناقشة رأى ابن الاثير في الجناس التام
ورد ابن ابي الحديد عليه (انظر ١٥ - ١٩ من المصدر المذكور)

٣ - في الصفحات ١ : ١٤٦ ، ١٧١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٧ ، وايضا ٢ : ١٦٦
من الكتاب هذا ، يتعقب الصفدي آراء لابن الاثير وردت في " المثل
السائر " ، وله تعليقات على نقد ابن جبارة لشعر ابن سنا الملك

في ١ : ١٩٥ ، ٣٤٤ ، ٣٧٣ ، ٤٠٦ ، وآراء نقدية في صفحات متفرقة .
٤ - تناول المؤلف بالنقد رسالة ابن زيدون في خمسة عشر مسألة ادرجها
في نهاية الكتاب من ٣٩٩ - ٤٠٣

٥ - انظر طبقات السبكي ٦ : ١٤ ، والدرر ٢ : ١٧٦

ولما اجتاحت الطاعون دمشق عام ٧٦٤ / ١٢٦٢ ، أصيب الصفدي به
وما لبث ان توفي ودفن بدمشق، خلفا وراءه تراثا ادبيا وعلميا ضخما
على جانب كبير من الجودة والشموع كما تقول المصادر (١) . ورغم خالصة
ما وصل اليها من هذا التراث حتى الان ، الا انه يمكن الاستدلال به على
قيمة الصفدي العلمية والادبية، وهو ما ادركه شيوخه حين احازوه وأولوه كامل
نقتهم في روايته عنهم وفي تقييم ما يرويه أو تصحيحه (٢) .

-
- ١ - انظر طبقات الشافعية ^{السلي} ٦ : ٩٤ ، والبداية والنهاية ١٤ : ٣٠٢
والنجوم ١١ : ١٩ وفتح السعادة ١ : ٢١
٢ - من ذلك ما كتبه إليه شيخه ابن حيد الناس في اجازته له " قد
أجزت لك ما رويته من انواع العلوم وأذنت لك في اصلاح
ما تعثر عليه من الزلل والوهم ، والخلل الصادر عن عقلية اعترت النقل
او وهلة اعترضت الفهم ، فيما يصدر عن قريحتي من النثر والنظم "
- الوافي ١ : ٣٠٨ .

القسم الاول

قضايا نقدية عامة

- ١ - علم البيان (بين البلاغي والنحوي)
- ٢ - الاديب بين الطبع والثقافة
- ٣ - العلاقة بين الشعر والنثر

علم البيان

يقول ابن الأثير في مقدمة المثل السائر " ان علم البيان لتأليف النظم والنثر بمنزلة اصول الفقه للأحكام وأدلة الأحكام " (١) فهو برأيه حجر الأساس في البناء الأدبي ، وبدونه لا يكتمل أى تأليف شعري أو نثري ، كما أنه اشرف الفضائل واعلاها درجة ، ولولا ذلك لما اتصل الإعجاز بـه بدون غيره (٢) . وحين يكون لعلم البيان مثل هذه الخطورة في الميــدان الأدبي ، فإن البحث فيه مفصلا أمر يستدعيه مقتضى الحال . وهو ما نهض له ابن الأثير ، فقد خصص الفصل الأول من مقدمة كتابه للتعريف بموضوع علم البيان ، وتوضيح العلاقة بين البلاغي والنحوي من حيث تناولهما لأحواله اللفظية والمعنوية . قال " موضوع كل علم هو الشيء الذي يسأل فيه عن احواله التي تعرض لذاته ، وعلى هذا فموضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة ، وصاحبه يسأل عن احوالهما اللفظية والمعنوية . وهو والنحوي يشتركان في أن النحوي ينظر في دلالة الألفاظ على المعاني من جهة الوضع اللغوي وتلك دلالة عامة وصاحب البيان ينظر في فضيلة تلك الدلالة وهي دلالة خاصة ، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن وذلك امر وراء النحو والاعراب (٣) . ويتطرق من ذلك إلى تخطئة مفسري الأشعار في ^{أقوالهم} انظرهم على شرح المعنى وتفسير الكلمات

-
- ١ - المثل السائر ١ : ٣٥
 - ٢ - انظر المثل السائر ٤ : ٤
 - ٣ - المثل السائر ١ : ٣٩

اللغوية الواردة في النص " وتبين مواضع الإعراب منها دون شرح ما تتضمنه من اسرار الفصاحة والبلاغة " (١) فهو لا يرى في أية قطعة شعرية او نثرية مجرد نص يحتاج في فهمه إلى تفكيك الفاظه وشرحها لغويا ونحويا ، وإنما لوحة فنية تقوم على عنصرين جماليين هما الفصاحة والبلاغة . ومن ثم فإنه يتطرق الى تفصيل القول فيهما ، فيذكر أنه رغم اكتثار العلماء قديمهم وحديثهم من القول في الفصاحة ، فإنه لم يجد من ذلك ما يمكن الأخذ به ، إلا القليل (٢) . فغاية ما يقال " إن الفصاحة هي الظهور والبيان في اصل الوضع اللغوي ، يقال انصح الصبح اذا ظهر ، ثم انهم يقفون عند ذلك ولا يكشفون السر فيه " (٣) . غير أنه لكثرة دراسته لهذا الموضوع وبحثه فيه ، توصل الى سره ، فوجد ان الفصاحة تختص باللفظ الواضح البين مألوف الاستعمال وحسن الوقع في الأذن ، ويوضح علاقة الصفات المذكورة ببعضها فيقول " إن الفصح من الألفاظ هو الظاهر البين ، وإنما كان ظاهرا بينا لأنه مألوف الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه ، وحسنه مدرك بالسمع ، والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ فقط " (٤) فالسمع يلتقط اللفظ دون المعنى وهذا الأخير هارج عمن

١ - المثل السائر ١ : ٤٠

٢ - قابل هذا بقول عبد القاهر الجرجاني في نفس الموضوع ص ٢٨ وما بعدها من " دلائل الإعجاز "

٣ - المثل السائر ١ : ١١٣

٤ - المصدر نفسه ١ : ١١٥

نطاق الفصاحة ، والدليل على ذلك ما نراه في الألفاظ الثلاثة - المزنة والديمة والبعاق ، فهي تدل على معنى واحد في وصف المطر ، ولكنها ليست جميعا فصحة ، بل الفصح منها المزنة والديمة لحسن وقعها في الأذن ما أشاع تداولهما بين الناس ، بينما ينفر السمع من لفظة البعاق لقبحها وبالتالي يندر استعمالها في الكلام المتداول ، فهي ليست فصحة ولو كان للمعنى علاقة بالفصاحة لما عريت هذه اللفظة منها (١) .

وأما البلاغة ، فهي في الوضع اللغوي من الوصول والانتها ، وقد أطلقت على الكلام الذي " قد بلغ الأوصاف اللفظية والمعنوية " (٢) فهي بذلك تشمل الألفاظ والمعاني ، وتغترق عن الفصاحة في كونها اخص منها ، لأن الكلام البليغ لا يكون إلا فصحا ، بينما الفصح قد يكون بليغا وقد لا يكون ، والبلاغة " لا تكون إلا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب ، فإن اللفظة الواحدة لا يطلق عليها اسم البلاغة ويطلق عليها اسم الفصاحة إذ يوجد فيها الوصف المختص بالفصاحة وهو الحسن ، وأما وصف البلاغة فلا يوجد فيها لخلوها من المعنى المفيد الذي ينتظم انتظاما " (٣) .

فالفصاحة إذا من الأوصاف المميزة للفظ ، والبلاغة من أوصاف الصيغة أو التركيب . وإذا فرق ابن الأثير بين شقي علم البيان ، الفصاحة والبلاغة ،

- ١ - انظر المثل السائر ١ : ١١٥ .
- ٢ - المثل السائر ١ : ١١٨ . وتكرر هذه العبارة في الجامع الكبير : ٧١ .
- ٣ - المصدر نفسه ١ : ١١٨ - ١١٩ . وقريب منه ما اثبتته المؤلف في الجامع الكبير : ٧١ .

تطرق إلى البحث في أصل هذا العلم وكيفية استنباط ضروبه ، فذكر أن العرب الذين ألفوا الشعر والخطب إما أنهم ابتدعوا ما أتوا به من ضروب الفصاحة والبلاغة بالنظر وقضية العقل ، أو أخذوه بالاستقراء من كان قبلهم " (١) فإذا كان الوجه الأول فإنه يؤيده بقوة ، وأما إذا كان الثاني ، فإنه لا بد من تتبع هذا الاستقراء لمعرفة أول من فعل ذلك ، ولا بد أن يكون قد ابتدعه بعقله وفكره ، فعلى كلا الوجهين يعتبر هذا العلم عقليا لا نقليا .

ويقوده تقريره هذا إلى مقارنة الفصاحة والبلاغة بالنحو من حيث اعتماد العقل أو النقل في اخذهما . فيؤكد أن أقسام النحو أخذت بها بتقليد من واضعها ، ولا يدخل فيها العقل ، على النقيض من أبواب الفصاحة والبلاغة التي استنبطت بالعقل (والذوق) ورغم أنه قد أقيمت أدلة على أقسام النحو ، فإن تلك الأدلة لا تغير شيئا من حقيقة كون النحو نقليا لا عقليا ، فهذه الأدلة واهية لا تثبت على محك الجدل ، إذ من أين علم الذين أقاموها " أن الحكمة التي دعت الواضع إلى رفع الفاعل ونصب المفعول هي التي ذكروها " (٢) .

ويشير النظر من هذه الزاوية إلى النحويين وأدلتهم ابن أبي الحديد ، فيبادر إلى التساؤل عما إذا كان ابن الأثير ممن ينفون القياس في الشريعات أو يعترفون به ، فإن كان الأول فإنه يقدر أن يناقشه على طريقة الأصوليين من الشيعة وغيرهم ممن نفى القياس في الفقه . " وإن كان يعترف بالقياس في

١ - المثل السائر ١ : ١١٦

٢ - المصدر نفسه : ١ : ١٢٠

الشرعيات فالقياس في الشرعيات كقياس في النحويات " (١) ثم يؤكد أن الحكمة التي دعت الواضع إلى رفع الفاعل ونصب المفعول هي التي يذكرها النحاة ، ومن بينها إعطاء الفاعل إعراب المبتدأ للمشابهة بينهما في تكوين الجملة المفعولة ، فكلاهما ركن أساسي فيها . ويبدو أنه يفترض اعتراف ابن الأثير في القياس فسي الشرعيات ، إذ يربط بين ما ذكره من إعراب الفاعل وإحدى المسائل الشرعية ، وهي تختص بسقوط قضاء الصلاة عن الحائض وتعليل ذلك بالمنقصة قياساً على سقوط قضاء الركعتين المنقطعتين من صلاة الظهر في السفر ، ويقول إن هذا " التعليل متفق بين القايسين على صحته " رغم أن الشارع لم يورد أي تعليل وإنما نص فقط على سقوط قضاء الصلاة (٢) . ولعل ابن أبي الحديد بتوضيحه هذا يقصد أنه إذا اعترف ابن الأثير بسلامة التعليل في المسألة المذكورة فلم لا يعترف بأدلة النحويين وتعليلاتهم كذلك . وكأنما يكتفي بهذا الرد على مجمل ما ذكره زميله من أن الفصاحة والبلاغة علم عقلي ، وأن النحو نقلي ، فهو لا يعرض لذلك بشيء آخر .

وكما انتصر للنحاة ، ينتصر لمفسري الأشعار الفالين خطأهم زميليه ، فيوضح أنهم وضعوا الشروح بقصد تفسير مراد الشاعر فقط " فكل ما يذكرونه من زيادة على ذلك مقصودة بالعرض لا بالذات ، وإذا كانت الحال هكذا لم يجز أن يقال أنهم غلطوا لإخلالهم بنقد الشعر والكلام على ما فيه من علم الصناعة الشعرية

١ - الفلك الدائر ، ١٢

٢ - انظر الفلك الدائر ، ١٣

والبحث في فصاحته وبلاغته . لان ذلك من مفرد لم يضعوا شروحهم له " (١) ثم يشير إلى أنهم يسبرون في ذلك على هدى من فسر القرآن ، فهؤلاء لم يذكرنا في تفاسيرهم ما في القرآن من البهاسة والفصاحة وأسرارها ، وعلى ذلك إذا سحب ابن الأثير حكمه عليهم فخطأهم أيضا ، يكون مخطئا لكبار الصحابة من فسروا القرآن أمثال علي بن أبي طالب ، وهو أمر فيه ما فيه من الفجاجة والشناعة ، وإن لم يخطئهم فقد انتقض بذلك ما قاله عن فسر الأشعار (٢) .

وكذلك يتخذ موقفا دفاعيا في رده على استهانة ابن الأثير بما قاله البلاغيون في الفصاحة والبلاغة ، فينبه أن هناك من كتب كلاما جيدا في الموضوع وأنه قد وقف لأبي محمد بن الخشاب (٣) " على رسالة في الفرق بين الفصاحة والبلاغة أتى فيها بنوادر شريفة ، وقد ذكر أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين كلاما جيدا في هذا المعنى " (٤) كما أنه هو نفسه قد أورد أقوالا كثيرة في الموضوع نفسه في كتابه " المعبري الحسان " ويخرج إلى التعميم فيقول " وما أظن أن أحدا من يتصدى للكلام في هذا الفن إلا وقد قال

١ - انظر الفلك الدائر ، ٢٩

٢ - المصدر نفسه ، ٤٠

٣ - هو عبد الله بن أحمد بن الخشاب ، اهل معاصريه بالعربية ، كان حارفا بعلم الدين مطلعا على شيء من الفلسفة والحساب والهندسة . وقف كتبه على اهل العلم قبل وفاته ببغداد سنة ٥٦٢ . (انظر ترجمته في انباء الرواة ١ ، ١٩ ، ومعجم الادباء ١٢ ، ٤٢ ، ووفيات الاعيان ٣ ، ١٠٢)

٤ - الفلك الدائر ، ٨٦ (انظر قول العسكري في الفصاحة والبلاغة في الصناعتين ،

٤ - ١٣)

قولا بالغاً في هذه المسألة ، فما أعلم كيف يدعي هذا الرجل على الناس أنهم يقتصرون في هذا البحث بتينك اللفظتين لا غير (١) " فابن الأثير بنظره مدع في أقواله ، وقد حاول تفنيد ادعاءه باستشهاده ببعض من ألف في الموضوع المتقدم ، إلا أنه لا يورد شيئاً مما قاله هؤلاء ، بحيث يتبين معه للقارئ مدى ادعاء ابن الأثير ذاك .

ويعترض على ما ذكره ابن الأثير من اختصاص الفصاحة باللفظ مألوف الاستعمال لحسن وقوعه في السمع ، ولكنه بنى اعتراضه على نقل خاطئ لقول زميله إذ أثبتته على الوجه التالي : " قال المصنف : والفصاحة مختصة بالألفاظ دون المعاني لوجوه منها أن الفصح هو المألوف الاستعمال ، وإنما كان مألوف الاستعمال لحسنه ، وحسنه يدرك بالسمع لأنه أمر عائد إلى تركيب حروفه ، وخفتها وتباعد مخارجها ، والذي يدرك بالسمع يكون صوتاً يأتلف من مخارج الحروف ، وكل ما ليس بسموع لا يكون فصيحاً " (٢)

ففي معرض اعتراضه يقول إن هذا الكلام يحتمل أمرين : جعل هذا الكلام حداً للفصاحة ، أو تعليل اختصاص اللفظ دون المعنى بوصف الفصاحة . فإذا كان الأول فإنه لا اعتراض لديه عليه لأن لكل امرئ الحرية في قول ما يريد ، وتوضيح ما يعنيه به . أما إذا كان الثاني - وهو ما يتبين من كلامه -

١ - الفلك الدائر : ٨٢

٢ - المصدر نفسه : ٨٦ ، وانظر قول ابن الأثير المنقول عنه ص ١١٥

من المثل السائر ج ١

فليس هذا بمنع لوجود دلالة أخرى على تسمية المعنى فصيحاً ، وإن ما استدل به على اختصاص الفصاحة باللفظ لا يوجب " انتفاً الأدلة على إطلاق هذه اللفظة على المعنى " (١) وينتهي اعتراضه بسؤال ابن الأثير عن السبب الذي من أجله نفى وصف المعنى بالفصاحة في ضوء استدلاله السابق ، وكأنه يلجأ إلى عدم اقتناعه بأقوال ابن الأثير تلك .

ثم يناقشه فيما ذكره من أن المعنى اللغوي للفظه فصيح هو فاعل الإبانة عن المعنى ، (٢) فيوضح أن معنى الفصيح ذر الفصاحة لا فاعل الفصاحة ، مثل جميل وصبيح في معنى ذر الجمال والصباحة لا فاعلها ، ويذهب إلى القول أن هذا " الموضع من المواضع التي أشبهت على هذا الرجل ، وذلك أن أفعال الطبائع نحو فصيح وظريف وشريف وكريم إنما تعطى الانصاف بتلك الصفة فقط ، ولا تعطى معنى الفاعلية أصلاً ولا تدل على المؤثر " (٣)

ويستدرك فيفترض أن ابن الأثير كان مصيباً في جعل فصيح بمعنى فاعل الافصاح عن المعنى ، وعلى ذلك يكون المعنى الواضح هو الذي فعل الفهم والإدراك في نفس السامع وأوضحه له فأنكشف له فحواه ومعناه ، فبهذا الاعتبار يسمى المعنى فصيحاً أيضاً .

-
- ١ - الفلك الدائر ، ١٠
 - ٢ - انظر ما أورده ابن الأثير في هذا المعنى ص ١١٦ من المثل السائر ج ١ ويقول في الجامع الكبير ، ٨١ " والفصيح هو الظاهر وهو اسم فاعل من فصح مطرد في باب يقال ، كريم فهو كريم ، وظرف فهو ظريف وشرف فهو شريف ، وفصح الكلام فهو فصيح .
 - ٣ - الفلك الدائر ، ١١

ويعود فيلنفي هذا الافتراض بتفريده أن النزاع برمته في هذه المسألة لفظي محض ، فقد أصرّح أهل اللغة والاستعمال على أن الفصاحة خاصة باللفظ والبلاغة بالمعاني وهو ما جعلهم يطلقون على البيّغ صفة الفصيح لا البليغ ، لأنه يلفظ دون إدراك لمعنى ما ينطق به ، ومن ثم يستحسن الاقتداء بعلماء اللغة فيما ذهبوا إليه (١) . ومنه يتضح أن ابن أبي الحديد يحنّذ الأخذ بأقوال السلف ، وإن كان يلجأ إلى حاكم العقل والمنطق في مناقشة بعض المسائل .

وأما الصفدي فإنه يقف وقفة طويلة عند ما ذكره ابن الأثير من الفروق بين الفصاحة والبلاغة ، وكذلك من أن علم البيان عقلي لا نقلي ، ففي المسألة الأولى يرى أن الفارقين اللذين ذكرهما زميله هما في واقع الامر واحد ، فإن قوله كل كلام فصيح بليغ ولا ينمكس يعني أنه " إذا قلنا قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ، فإن هذا الكلام بليغ باعتبار أن معناه بلغ في صوغ تركيبه إلى حد له توفية بتمام المراد ، وفصيح باعتبار بيان مفرداته وحسنها وعذوبتها في السمع " (٢) فإذا انردت كلماته كل على حدة فإنها لا توصف إلا بالفصاحة فقط ، ومن ثم فإن الفصاحة أهم لوجودها في حالي الأفراد والتركيب ، والبلاغة أخص لوجودها في المركب فقط . وهذا المعنى بعينه يقول الصفدي - إنه وجد في فارق ابن الأثير

١ - انظر الفلك الدائر ، ١١ - ١٢

٢ - نصره النائر ، ٧٧

الثاني حيث قال " إن البلاغة لا تكون إلا في اللفظ والمعنى بشرط التركيب " (١) .

وإذاً أظهر أن الفارقين واحد ، يتقدم بشرحه الخاص للفرق بين الفصاحة والبلاغة، فيقول إن كلا منهما خاص وعام معا ، فالْبلاغة عامة لأنها تتناول الفصيح وغير الفصيح وهو الغريب الوحشي ، وهي خاصة لأنها لا تتناول إلا الألفاظ المركبة ، وأما الفصاحة فهي عامة لتناولها العذب الحسن من الألفاظ ، مفردة ومركبة ، ويبدو خصوصها في تناولها العذب المستعمل فقط . وبذلك يثبت " أن بسين البلاغة والفصاحة عموماً من وجه وخصوصاً من وجه ، ومثل هذا لا يتنبه له ابن الأثير " (٢) . وبكلام آخر يذهب الصفدي إلى أن فرقة المتقدم بين الفصاحة والبلاغة هو المميز بينهما، وأن هذا غاب عن بال ابن الأثير فأورد فرقين معناهما واحد ، فحقيقة الفرقين تتمثل فيما أورده كل منهما معا .

ثم ينتقل إلى مناقشة ابن الأثير فيما ذكره من أن علم البيان عقلي لا نقلي ، فيتساءل عما يعنيه زميله " بعلم البيان " : إن كان قصده ما اصطلاح عليه البلاغيين من أنه أحد أقسام علم البلاغة الذي يطلق على أبواب الحقيقة والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، فإن من المجاز ما هو لغوي كالصلاة ، وحقيقتها اللغوية الدعا ، ومثل هذا المجاز تتوقف معرفته على حقيقته " وتلك الحقيقة لا تعرف إلا بالثقل لا بالعقل ، والمتوقف على معرفة الشيء متوقف على ذلك الشيء " (٣) .

١ — انظر فصرة الثائر : ٧٧ ، وفي عبارة ابن الأثير المذكورة انظر ص ١١٨ من

المثل السائر ج ١ .

٢ — المصدر نفسه : ٧٨

٣ — فصرة الثائر : ٧٩

وأما الاستعارة فقد اختلف علماء البيان فيها ، ولكن ذهب جمهورهم إلى أنها مجاز لغوي أيضا ، ودليلهم على ذلك أنه في مثل عبارة - عندى أسد شاكي السلاح - لا يفهم أن المراد بالأسد هو الرجل الشجاع إلا بالنقل (١) .

وكذلك من أقسام الكناية ما يتوقف فهمه على النقل ، مثل قول الشاعر :

ويدهي الشرب في كأس وفي قدح وأم عنقرة العبسي تكفيه

فهنا لا يمكن فهم علاقة أم عنقرة بالبيت إلا إذا عرف أن اسمها كان زبيبة ، وقد كنى الشاعر عن الزبيبة بأم عنقرة ، وعلى ذلك فالكناية هنا تتوقف معرفتها على النقل " وليس للعقل هنا مجال ، فقد اتضح أن بعض البيان نقلي " (٢) .

ومضي الصفي في مناقشته ، فيقول إنه إذا أراد ابن الأثير بالبيان علم المعاني الذي يبحث في خواص تركيب الكلام من أحوال الإسناد الخبري ، والفصل والإيجاز والوصل والإطناب وأحوال الطلب ، فإن أكثر أبوابه تتوقف معرفته على النقل ، فالمسند والمسند إليه هما المبتدأ والخبر ، وأحوال كل منهما متنوعة ، ولكنها مذكورة بالتفصيل في النحو ، وقد ذكر ابن الأثير أن النحو نقلي لا عقلي ، فعلى ذلك تكون أبواب المعاني هذه نقلية أيضا . ويثبت من ذلك كله " أن البيان ليس بعقلي كما ادعاء ابن الأثير بل بعضه

١ - نصره الشاعر : ٢٩

٢ - المصدر نفسه : ٨١

عقلي وبعضه نقلي " (١) وقد توصل الصفدي إلى إثباته هذا بالحجة والبرهان؛ ولا يعنيها هنا تقييم ما ذكره لأن هذا خارج عن موضوع هذه الدراسة .

ويقف الصفدي أخيراً عند قول ابن الأثير المتقدم في أدلة النحويين "واللهي تكلفه النحاة من التعليقات واه لا يثبت على موك النظر" (٢) ، فيذكر أن ابن أبي الحديد قد أجابه عن ذلك، ولكن إجابته لم تكن وافية وتحتاج إلى بعض إضافات؛ منها لفت نظر ابن الأثير إلى أن عدداً من أئمة النحو واللغة مثل أبي علي الفارسي، وابن جني، والسيرائي وابن الأنباري، قد أوردوا في مؤلفاتهم تعليقات حسنة لأحكام النحو، وإن كان في البعض تسامح بالترامهم بتعليل كل ما ورد عن العرب (٣)، غير أنهم لا يختلفون في ذلك عن الفقهاء، فإن أكثر تعليقاتهم لما ورد في أحكام الشرع الشريف في غاية الحسن والقوة، وفي بعض ذلك تسامح . كمن أراد تعليل بعض مناسك الحج فإنه ليس بقوي قوة غيره . والغزالي في "الاحياء" تكلم في هذا كلاماً حسناً (٤).

وكما استشهد بتفاوت تعليقات الفقهاء من حيث الحسن والقوة، يستشهد الصفدي الآن بتعليقات المتكلمين أيضاً، فإن أدلتهم لا تبلغ القوة فيما أتوا به

١ - نصره التأثير : ٨١

٢ - المثل السائر ١ : ١٢٠

٣ - انظر نصره التأثير : ٨٢

٤ - نصره التأثير : ٨٤

من حدوث العالم والنفس وإثبات الوجدانية وعدم الجهة ، فقد تجي* معهم مسائل قليلة أدلتها عليلة لا تبلغ في القطع والجزم والزام الخصم مبلغ تلك " (١) .

وهو يعني أنه إذا لم يعد ضعف بعض تعليقات الفقهاء* والمتكلمين سببا يوجب الطعن فيهم ، فلم لا يكون ذلك شأن النحويين أيضا ؟ على أن تفتت التعليقات في القوة بوجد في معظم العلم . لا في النحو فوسب ، ولولا هذا التفتت ما وقع خلاف بين البصريين والكوفيين في النحو ، ولا بين أصحاب المذاهب والفروع .

وينتهي الصفدي من ذلك كله إلى التساؤل بنهمكم " إن كانت تعليقات النواة وأهمية لم تثبت على حوك النظر ، فماذا الذي يثبت على حوك النظر من تعليقات أصحاب المعاني . وهي ما هي ؟ أكثر ما يستندون إليه شبه خطابية لا يقطع بها ، ولو عورضوا فيها وقفوا في الكثير منها " (٢) . وفي هذا إعلاء من شأن تعليقات النواة مقابل الوضع من تعليقات أصحاب المعاني ، ولعل الصفدي يلمح بذلك إلى ابن الأثير نفسه باعتباره منهم ، لا سيما وأنه يختم كلامه بالجزم بأن " الكثير من الحجج النحوية أقوى وأقطع إلى الجزم من الكثير من حجج أرباب المعاني " (٣) .

يتبين مما تقدم أن ابن الأثير يؤكد على أهمية علم البيان في التأليف الأدبي ، وأنه في تناوله لشقي هذا العلم - الفصاحة والبلاغة - يركز على

١ - نصره الناشر : ٨٤

٢ - المصدر نفسه : ٨٦

٣ - المصدر نفسه : ٨٧

بضعة مسائل مثل : ما يختص به كل من الفصاحة والبلاغة ، والفرق بينهما ، وكيف استنبطت شروطهما ، واختلافهما في طريقة الاستنباط عن أقسام النحو ، مع إبداء رأيه في جهود كل من البلاغيين في التعريف بالفصاحة ، وفسري الأشعار في شروحهم ، وفي الأدلة التي أقامها النحويون لتعليل أقسام النحو .

وقد ناقضه في معظم هذه المسائل كل من ابن أبي الحديد والصفدي ، وأردا عليه الحجج والبراهين لإظهار خطأه فيما ارتآه . ولم يوافقاه سوى في مسألة واحدة هي اختصاص الفصاحة باللفظ ، والبلاغة بالصيغة أو التركيب .

بين الطبع والثقافة

يبدى ابن الأثير اهتماما ملحوظا بقضية الابداع لدى الكاتب ، فهو يرى ان ذلك يعتمد على عاملين رئيسيين ، احدهما اصيل وهو الطبع ، والآخر مكتسب وهو الثقافة ورغم تأكيدده على انه " ينبغي للكاتب ان يتعلق بكل فن " (١) فان الطبع عنده في المقام الاول ، فهو الاصل ، والثقافة الفرع الذي يستمد منه فعاليتة وحيويته ، وعلاقة الأصل والفرع احدهما بالآخر مثل " النار الكامنة في الزناد والحديدة التي يقدح بها " فاذا خلا الزناد من النار لم يعد للحديدة تلك ، اية فائدة او تأثير ، وعلى هذا فان الطبع هو الذي يجعل من مادة الاديب مادة حية مشرقة ، ومن دونه تكون باهتة باردة متكلفة .

ويفرق ابن الأثير بين المتكلف والمطبوع فيقول : " اما المتكلف فهو الذي يأتي بالفكرة والروية وذلك ان يُلْهِى الخاطر في طلبه ويبعث على تتبعه واقتصاص انره ، وغير المتكلف يأتي مستريحا من ذلك كله ، وهو ان يكون الشاعر في نظم قصيدته او الخطيب او الكاتب في انشاء خطبته او كتابته ، فبينما هو كذلك اذ سنع له نوع من هذه الانواع بالاتفاق لا بالسعي والطلب " (٢) فهو بما ذكره انما يشير الى ما يوفره الطبع على الاديب من التعب والعناء في عملية الخلق الفني لأدبه .

١ - المثل السائر ١ : ٤٠ ويقول في الجامع الكبير : ٦ " فمثل الطبع كمثل النار الكامنة في الزناد ، ومثل الآلات كمثل الحراق والحديدة التي يقدح بها ، الا ترى انه اذا لم يكن في الزناد نار لا يفيد ذلك الحراق ولا تلك الحديدة شيئا ؟ "

ثم يأتي بنماذج على المطبوع والمتكلف في النظام - دون تحليل؛ أو توضيح لاعتباره لها
مطبوعة أو متكلفة، فيورد في المطبوع قول أبي تمام :

خدم العلا فخدمته وهي التي لا تخدم الاقوام ما لم تخدم
فاذا ارتقى في قلة من سوءدد قالت له الاخرى بلغت تقدم (١)
وقول أبي نواس :

اترك الاطلاع لا تعباً بها انها من كل برؤس دانية
وانعت الراح على تحريمها انما دنياك دار فانية
من عقار من رآها قال لي صيدت الشمس لنا في آنية (٢)

وقول الفرزدق :

منع الحياة من الرجال ونفعها حذق قلبها النساء مراض
وكان افئدة الرجال اذا رآها حذق النساء لتبليها اغراض (٣)

ويورد في المتكلف قول أبي العلا المعري :

بنت عن الدنيا ولا بنت لي فيها ولا عرس ولا أخت
وقد تحملت من الوزر ما تعجز ان تحمله البخت
ان مدحوني ساءني مدحهم وخلصت اني في الثرى سخت (٤)

١ - المثل السائر ١ : ٣٧٢

٢ - المصدر نفسه ١ : ٣٧٤

٣ - المصدر نفسه ١ : ٣٧١

٤ - المصدر نفسه ١ : ٣٦٨

ولا يفوته ان يبين صنف الطباع وآثارها في العلم عامة وفي علم البيان خاصة فيقول ان الناس متفاوتون في الطباع ، فمنهم من يميل به طبعه الى اتقان الصعب من العلم دون سهلهما ، ومنهم من يتيح له طبعه اجادة لوز معين في النثر او غرض خاص في الشعر ، دون بقية الالوان والاغراض ، بل ان منهم من اذا حاول الخوض في موزون يتنافى وطبعه ، اما ان يعجز عن معالجته كلية ، أو يأتي بما هو دون مستواه المعروف عنه ، ومثال ذلك عجز الحريري عن كتابة رسالة وهو صاحب المقامات المشهورة وكذلك التفاوت الكبير بين اسلوبه في المقامات وفي انشائه الاخرى . فللحريري " كتابة اشياء خارجة عن المقامات واذا وقف عليها أقسم ان قائل هذه ليس قائل هذه ، لما بينهما من التفاوت البعيد " (١)

واذ يغف ابن الاثير من بسط وجهة نظره فيما يختص بالطبع وأثره ينتقل الى ما يهمل هذا الطبع ويجلوه ، وهو انواع الثقافة اللازمة لكل من الشاعر والخطيب والكاظم ، فيذكر انواعا ثمانية هي : معرفة النحو والصرف ، واللغة ، ومثال العرب وايامهم ووقائعهم ، والاطلاع على مؤلفات من تقدم في النظم والنثر وحفظ كثير منها ، ومعرفة الاحكام السلطانية ، وحفظ القرآن والتدرب باستعماله ، وحفظ مختار من الاخبار النبوية والتدرب باستعمالها ايضا ، ومعرفة علم العروض والقوافي وهذا خاص بالناظم فقط (٢)

ويستثنى من الصرف معرفة الادغام ، فيرى انه لا حاجة بالكاظم اليها ، وان

١ - المثل السائر ١ : ٤٢ ،

٢ - انظر المصدر نفسه ١ : ٤٣ - ٤٤ . ويتكرر ذكر هذه الانواع في الجامع

الكبير ٢ : ٧

احتاجها الشاعر احيانا للضرورة الشعرية (١) ، على ان الاثنين لا تلزمهما -
 فيما يرى - معرفة المنطق ولا فلسفة اليونان وخاصة ما جاء منها في حصر المعاني
 والقواعد الشعرية . ويدلل على رأيه هذا بقوله ان هناك عددا من الشعراء أو
 الكتاب لم يتصلوا بالثقافة اليونانية ، ومنهم ابو نواس وابو تمام والبحرئى والمتنبى ،
 وعبد الحميد (٢) ، وابن العميد (٣) والمايى ، ومع ذلك فقد اجاد كل منهم
 في ميدانه ، ويمعن في تدليله فيقول انه اذا زعم احد ان هؤلاء قد اطلعوا

- ١ - انظر المثل السائر ١ : ٥٦ وقابل هذا بقوله في الجامع الكبير : ١٢ - ١٣
 " وأما الادغام وقولك ان المؤلف لا يحتاج الى معرفته ، واستدلالك عليه بما
 ذكرته من المثال ، فان ذلك لا يسلم الا في هذه الصورة وما يجرى مجراها ...
 فيجب حينئذ على مؤلف الكلام بهذا الدليل معرفة الادغام ليسلم من اعتراض
 متعرض أو تعنت متعنت " .
- ٢ - عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر ، عالم بالادب من ائمة الكتاب ،
 يضرب به المثل في البلاغة ، كتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني امية . وقاتل
 بمصر سنة ١٣٢ . (انظر الفهرست ١١٧ ، والبيان والتبيين ١١٣ ، ووفيات
 الاعيان ٣ : ٢٨٨)
- ٣ - محمد بن بن العميد الحسين بن محمد ، ابو الفضل الكاتب المعروف ، كان
 عالما في الادب والترسل والفلسفة والنجوم ، ووزر لركن الدولة البويهى ، ت بالرى
 وقيل ببغداد سنة ٣٦٠ ، (انظر وفيات الاعيان ٥ : ١٠٣ ، واليتيمة ٣ : ١٥٨ ،
 والشذرات ٣ : ٣١)

على كتب حكماء اليونان ، فان هذا الزعم باطل به (١) ، فهو لا يعرف ولم يعلم شيئا مما جاء في هذه الكتب ، ومع هذا فان فنه الكتابي من رسائل ومكاتبات يشهد بأن " صاحب هذا العلم من النظم والنثر بنجوة من ذلك كله ، وانه لا يحتاج اليه ابدا " (٢) فهو يقيم من نفسه وثقافته دليلا على استغناء الكاتب في مهنته عن المنطق والفلسفة ، وكأنني به يحاول بتدليله هذا تغطية ضعف تحصيله العلمي ، وقلة تنوع ثقافته ، لا سيما وانه يعود فيصر على وجوب معرفة الكاتب لكل فنون وبالجملة فان صاحب هذه المذاعة يحتاج الى التثبت بكل فن من الفنون ، حتى انه يحتاج الى معرفة ما تقوله النادرة بين النساء ، والماشطة عند جلوة العروس ، والى ما يقوله المنادى في السوق على السلعة " (٣) فهو في ذكره لهذه الفنون يبعد كل البعد عن الانواع الرفيعة من العلم والثقافة ، ويفضل الاخذ من ثقافة جمهور الناس وعامتهم . ويتراعى لي نوع من الاضطراب في تعليقه لضرورة معرفة الفنون التي ذكرها ، فهو يذهب الى ان الكاتب " مؤهل لان يهيم في كل واحد فيحتاج ان يتعلق بكل فن " (٤) .

فاذا كان الاديب يلزمه معرفة كل فن كما يقول ، فلم انكر عليه معرفة الادغام او الفلسفة والمنطق ؟ وانكاره هذا كان وراء انبراه كل من ابن ابي الحديد والصفدي للرد عليه في هذه القضية . فهما يتفان معه في وجوب توفر الطبع فسي

١ - المثل السائر ٢ : ٤

٢ - المصدر نفسه ٢ : ٥

٣ - المصدر نفسه ١ : ٧٣ ، وله مثل هذا القول في الوشي المرقوم ٤ : ٥

٤ - المثل السائر ١ : ٧٣

الأديب ولا ينقصان ما قاله بهذا الشأن ، ويتفق الصفدي معه في ضرورة صقل الطبع
باللوان معينة من الثقافة ، غير أن الاثنين يعارضانه بل ويخطئانه في ما ذهب
إليه من عدم حاجة الأديب للثقافة اليونانية .

وينفرد ابن أبي الحديد بالرد على بعض آراء ابن الأثير في النحو والصرف
واللغة ، التي وردت في تفصيله لأنواع المعرفة الثمانية المتقدم ذكرها ، ويرفض
ابن أبي الحديد اعتبار معرفة تلك الأنواع الثمانية ضرورة لا غنى عنها للكاتب أو الشاعر ،
ويرى أن " هذا الكلام من أبهات الكتاب وتزييفاتهم ، ولا يعمل عليه موصل " (١)
ويدعم رأيه بالاستشهاد بعدم معرفة بعض مشاهير خطباء العرب في الجاهلية وصدر
الإسلام لتلك الفنون ، فيذكر منهم سحبان وائل (٢) وقس بن ساعدة (٣) .

١ - الفلك الدائر ، ٤٠

٢ - سحبان بن زفر بن إياس الوائلي من باهله ، خطيب يضرب به المثل في

الفصاحة والبلاغة ، اشتهر في الجاهلية وأدرك الإسلام . له شعر قليل .

ت سنة ٥٤ . (انظر بلوغ الأرب للألوسي ٣ ، ١٥٦ ، والإصابة ترجمة

٣٦٥٨ ، وخزانة الأدب ٤ : ٣٤٢)

٣ - هو أحد حكماء العرب ومن كبار خطبائهم في الجاهلية ، وكان أسقف نجران ،

ويقال أنه أول من قال (أما بعد) في كلامه . توفي نحو ٢٣ ق . هـ .

(انظر الأغاني ١٥ ، ١٦ ، وبلوغ الأرب ٣ ، ١٥٥ ، وخزانة الأدب ٢ ، ٨٩)

ومعاوية بن ابي سفيان ، وزيايد بن ابيه (١) .

وهو عندما يرفض تلك الفنون ، فإنما يرفضها كضرورة لا غنى عنها ، ولكنه لا يعترض عليها كعنصر ثانوي متم ، يمكن الاستغناء عنه في حالة توفر الطبع والدراسة . يقول : " وان ارادوا انها متممة ومكاملة فهذا حق ، ولكن عدمها لا يقتضي سلب الكتابة اسمها " (٢) .

ويضي في معارضته فيقف عندما ذهب اليه ابن الأثير في باب الصرف من أن كل خماسي يحذف منه حرف في التصغير سواء كان الحرف زائدا أم أصيلا في قوة اللفظية الخماسية لا يحذف منها شيء في التصغير مثل حبيرا تصغير حمرا ، واجيما تصغير اجمال وقد يحدث في البعض نوع من الصرف لا الحذف في مثل موزين تصغير ميزان (٣) وفي ذلك برهنة على خطأ ابن الاثير في اطلاقه الحكم في تصغير الخماسي .

ويقف عند ما ذكره ابن الاثير - اثنا - تدليله على وجوب معرفة النحو والصرف من انه لم يجد احدا من الشعراء المقلقين سلم من لحن يدل على جهله مواقع الاعراب او من خطأ في تصريف كلمة ، فأبو نواس المعداد " في طبقات العلماء مع تقدمه في

١ - هو احد الخطباء المشهورين في العرب بالفصاحة والدهاء ورجاحة العقل ، كتب لابي موسى الاشعري في البصرة ، وكان عمر بن الخطاب معجبا بعقله وفصاحته في خطبه ورسائله . وقد الحقه معاوية بنسبه عندما تولى الخلافة . وله كتاب في المثالب . توفي سنة ٥٣ هـ (انظر تاريخ الطبري ٧ : ١٥٨ وما قبلها ، وانظر خزانة الادب ٤ : ٣٢٢) .

٢ - الفلك الدائر : ٤١

٣ - انظر المصدر نفسه : ٤٢

طبقات الشعر" قد غلط فيها لا يغلط مثله فيه " (١) عندما استعمل لفظي
صغرى وكبرى بالتكبر ودون اضافة وهما على صيغة فعلى أفعل ، في البيت :

كان صغرى وكبرى من فواتها حصبا در على ارض من الذهب
فمثل هذا الاستعمال غير جائز في النحو (٢) . كما انه لحن في البيت :

يا خير من كان ومن يكون الا النبي الطاهر الميمون
فرفع كلمة النبي وهي استثناء من الموجب (٣) ، وكان الواجب نصبها طبقا للقاعدة
النحوية المختصة بها .

وقد أخطأ ابو تمام في تصريف الفعل (اطادت) في البيت :

بالقائم الثامن المستخلف اطادت قواعد الملك امتدا لها الطول
فهذا الفعل مشتق من وطد ، فينبغي ان تكون صيغة افتعل منه اتطدت ، قياسا
على " وعد يعدد اتعد " (٤)

وكذلك المتنبى فانه خرج عن قواعد التثنية والجمع ، عندما اورد لفظة ركبات
بدلا من ركبتين في البيت :

وتكرمت ركباتها عن مبرك تمنعان فيه وليس مسكا اذ فرا (٥)

-
- ١ - المثل السائر ١ : ٥٢
 - ٢ - انظر المصدر نفسه
 - ٣ - انظر المصدر نفسه ١ : ٥٤
 - ٤ - انظر المصدر نفسه ١ : ٥٣
 - ٥ - " المصدر نفسه ١ : ٥٥

ففي وقوف ابن أبي الحديد من هذا كله ، يحاول تبرير استعمالات الشعراء
أولا وتخرجها على وجهه ، يبدو وكأنهم فيه على صواب لا خطأ كما نص ابن الأثير .
فيقول ان ابا نواس لم يكن بدعة عندما اتى بلفظتي كبرى وصغرى على الوجه المتقدم
ذكره ، فقد ورد مثل هذا الاستعمال في بعض الأراجيز والقصائد مثل :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة

وكذلك : وان دعوت الى جلى ومكرمه يوما سراة كرام الناس فادعينا (١)

على انه يمكن تخرج هاتين اللفظتين على مذهب بعض الكوفيين ، فيجعل
الحرف (من) زائدا في شطر البيت - كان صغرى وكبرى من فواقعها - ومن ثم
تصبح كبرى وصغرى مضافتين ، فلا يكون ابو نواس مخطئا من الناحية النحوية . (٢)

واما بيته الثاني فيحتل فيه وجهان ، احدهما ان تكون لفظة النسبي
مبتدأ وخبرها محذوف ، وذلك على مذهب الكوفيين ايضا ، او ان تكون منصوبة

١ - انظر الفلك الدائر ، ٤٣

٢ - " المصدر نفسه : ٤٤ ، وأورد الصفدي في الغيث المسجم ١ : ٢٨٤

نقاش ابن الاثير وابني ابي الحديد حول بيت ابي نواس هذا وعقب قائلا
" قال النجاة : وربما استعملوا هذه الصفات استعمال الأسماء فحذفوا الألف
واللام نحو قولهم " دنيا " لأنها وان كانت صفة فقد قلبت وصارت بمنزلة
الأسماء غير الصفات ومثل " جلى " وأنشدوا الأبيات التي أنشدها ابن ابي
الحديد " .

على الاستثناء من الموجب وتنصب لفظة الطاهر كعت للاستثناء ، وترفع لفظة الميمون على انها خبر حذف مبتدؤه المقدر (لهم) وذلك طبقا لقاعدة جواز قطع النعت المتعدد (١) . وفي كلا الوجهين هذين ينتفي وجود اللحن في البيت وتكون صيغته النحوية سليمة .

وعلى مذهب الكوفيين ايضا يبرهن ابن ابي الحديد ان ابا تمام كان مصيبا في استعماله لفظة (اطادات) ، فهو يستشهد بكلام لأبي زكريا الفراء يقول فيه " قال العلماء : اشتقاق اطادات من الطود . وهو الجهل بني على انتعلت من ذلك . فقبل اطادات لبنا غير مهموز لان تا الافتعال اذا كان بعدها تا قلبت الفا ، ثم همزها في الشعر للضرورة " (٢) ويرى ان استعمال المتنبي (ركباتها) بالجمع لا بالتنية هو من باب الاتساع في اللغة وليس خطأ ، وقد ورد في كلام العرب ما يدل على ذلك مثل قولهم : امرأة ذات اوراق بدلا من رركين ، وكما جاء " في حكم داود وسليمان في الغنم التي نفشت في الحرث : وكما لحكمهم شاهدين " (٣)

ثم يعرض لما رآه ابن الأثير من عدم حاجة الكاتب الى الادغام والثقافة اليونانية، فينقض قوله مؤكدا ان الكاتب والشاعر سوا في الحاجة الى معرفة الادغام ، فقد يخطئ الكاتب في بعض مسائل الادغام اذا لم يكن متصفا منه ، كما حدث مع

١ - انظر الفلك الدائر : ٤٦

٢ - " المصدر نفسه : ٤٥

٣ - الفلك الدائر : ٤٦

ابن الاثير الذى اخطأ في فك ادغام المحاqqة في عبارته " وانما قصدنا ان يكون الكتاب الذى يكتب في هذا المعنى مشتملا على الترفيب والترهيب والمسامحة في موضع والمحاqqة في موضع " (١) فكك الادغام هنا غير جائز وان كان الهدف منه الموازنة في اللفظ بين المسامحة والمحاqqة ، (٢) وعلى ذلك فان الكاتب بحاجة الى معرفة الادغام جيدا . وموقف ابن ابي الحديد هذا لا يخلو من تناقض ، فقد اعترض بادى الامر على جعل اللون الثقافية التي ذكرها ابن الاثير ، رأى انها غير ضرورية للاديب ، وهنا يعترض على استثناء الادغام منها ، وهو وان كان في اعتراضه هذا يبدو رفيقا هينا فانه في اعتراضه على عدم الحاجة الى الثقافة اليونانية وما ذكره حكما اليونان لا يدارى ثورته او عنفه .

انه يتم ابن الاثير بالانسياق وراء شدة اعتداده بنفسه بحيث يتصدى للاعتراض على ما جاء في اقوال قم وهو غير مدرك لمرادهم بها ، فيضع نفسه في مأزق حرج ، وفي ذلك يقول : " هذه جناية عجب الانسان بنفسه ، وذلك ان الانسان يدعو فرط اعتقاده في نفسه وشغفه بما يخطر له ان يتكلم على قم لا يعرف اقوالهم ، ولا يحصل معنى اصطلاحاتهم ، فضلا عن ان يبلغ مرتبتهم ويترقى في درجتهم الى ان ينقض عليهم فيقع هذا الموقع " (٣) وفي هذا القول تلميح ايضا الى وجود نوع من السطحية في تفكير ابن الاثير فضلا عن شدة إعجابه الذاتي .

ثم يحاول ابن ابي الحديد توضيح مراد حكما اليونان بالشعر ، وينتهي الى

-
- ١ - المثل السائر ١ : ٢١
 - ٢ - انظر الفلك الدائر : ٥٦
 - ٣ - الفلك الدائر : ١١١

القول ان ابن الأثير يكون واحدا اذا اعتقد ان الشاعر وقت النظم يحتاج الى استعمال مقدمتين ونتيجة (١) وفي ذلك مغالطة لما ذكره زميله ، فعبارة ابن الأثير في هذا الشأن هي " ولو انه فكر اولا في المقدمتين والنتيجة ، ثم انتهى بنظم او نثر بعد ذلك لما اتى بشيء ينتفع به ، ولطال الخطب عليه " (٢)

وهو يقصد التنبيه على عدم جدوى القواعد المنطقية في الشعر ، الا ان ظن ابن ابي الحديد ذهب الى النقيض من ذلك ، على انه في كل ما اورده لم يأت بدليل واضح على احتياج الاديب للثقافة اليونانية ، فجاء رده في هامش الموضوع لا صلبه .

ويتناول الصفدي الموضوع نفسه من زاوية اخرى ، فهو لا يطعن في ابن الأثير

او في مدى ادراكه للثقافة اليونانية ، وانما يعترض لإطلاقه الحكم بأن من ذكرهم

من الشعراء والكتاب لم يتحملوا بتلك الثقافة ، ولا يسمعه إلا التلأؤل عن المصدر

الذي اعتمد ابن الأثير في حكمه ذاك فيقول له " من اين علمت هذا حتى تحكم به ؟ " (٣)

على انه لا يمارضه فيما ذكره من نفسه من عدم معرفته لعلم اليونان ، لأنه هو نفسه المرجع الوحيد في ذلك ، فالناس اخبر بنفوسهم .

ثم يأخذ في التدليل على اتصال بعض من ذكرهم ابن الأثير بالثقافة القديمة ،

فيقول ان أبا نواس كان يشتغل بالفقه حتى قبل فيه انه فقير غلب عليه الشعر

١ - الفلك الدائر ، ١٦٢

٢ - المثل السائر ، ٢ ، ٥

٣ - نصره الثائر ، ١٨٤

" ومع ذلك فلم يظهر عنه فقه كما لم يظهر عنه اشتغال بعلم اليونان ، وهدم
الدليل لا يدل على عدم المدلول . " (١) ثم ان بعض اشعاره توحى بمعرفته
للفلسفة والمنطق ، فهو يقول في بعضها :

أباح العراقي النبيذ وشربه	وقال حرامان المدامه والسكر
وقال الحجازي الشرابان واحد	فحلّت لنا من بين قوليهما الخمر
سأخذ من قوليهما طرفيهما	واشربها لا فارق الوازر السوزر

وفي هذه الابيات دليل على احاطته بالمنطق ، فقد استنتج تحليل الخمر من
مقدمتي كلام الفقيه العراقي والحجازي . (٢)

واما المتبني فإن في قوله " انا وابو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحرى "
وغيرها من الاقوال ما يشير الى اطلاعه على تلك العلم . وقد قال في مدح
ابن العميد :

من مبلغ الأعراب أنني بعدهما	جالست رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بظليموس دارس كتبه	متبديا متلكا متحضرا (٣)

فهذان البيتان يدلان بوضوح على اطلاع المتبني على أقوال حكما اليونان من
ناحية ، وعلى كون ابن العميد متمرسا في تلك العلم من ناحية اخرى ، اذ يبعد

١ - نصره الشاعر : ١٨٤

٢ - انظر المصدر نفسه : ١٨٥

٣ - انظر نصره الشاعر : ١٨٦

ان يصدر مثل هذا الوصف عن شاعر في مدوحه دون ادراك تام منه لما يعنيه بذلك .

ثم ان في ترجمة ابن خلكان لابن العميد ما يؤيد وصف المتنبي السابق له فقد جاء في هذه الترجمة " وكان متوسعا في علم الفلسفة والنجم " (١)

ومن هذا كله يتبين خطأ ابن الأثير في اعتقاده ان من ذكرهم من الكتاب والشعراء لم يكن لهم علاقة بثقافة اليونان او علومهم ، وهو ما عناه الصفدي في استشاده المتقدم ، وان كان هذا لا يحدد موقفه من تلك القضية ، على انه يحيل القارئ على ابن أبي الحديد منها انه قد اجاب ابن الأثير " عن دعواه بأن الانسان لا يحتاج الى المنطق ولا الى هذه العلوم " . (٢)

واما من حيث تأييده لابن الأثير فيما ارده من الوان الثقافة الضرورية للكاتب فانه لا يقتصر على التأييد فحسب ، وإنما يضيف الى ما ذكر فنونا اخرى مثل الاثار المنقولة عن الصحابة ، وما دار بين الخلفاء الراشدين وعالمهم ، وتواقيع الخلفاء والوزراء والكتاب ، وحفظ ما امكن من التاريخ واسماء الرجال والحساب ، والوقوف على ترسل الكتاب ومراعاة ما قصدوه في كل فن ، من التهاني والتعازي والفتوحات ووصايا تقاليدهم وتواقيعهم واورامهم ونواهيهم فيها ، وافتتاحات ادعيتهم في كل ما ينشعب من طرق الكتابة وكيفية البدايات والمراجعات في الهدايا والشفاعات والأوصاف ،

١ - نصره التائر : ١٨٦

٢ - المصدر نفسه : ١٨٧

وكتب الاخوان وما يجرى هذا المجرى . " (١)

ويعد ان يورد هذه التفصيلات يعود فيجعلها بقوله " وعلى الجملة فالكاتب يحتاج الى كل شي " وفي ذلك تأكيد لما ذهب اليه ابن الاثير من ان الاديب " يحتاج الى التشبث بكل فن من الفنون . " (٢)

ويختتم الصفدي نقاشه لمجمل القضية بتأكيده ثانية على ضرورة الثقافة للاديب حتى لو اقتصر في ذلك على معرفة اشياء عامة من العلم او الفن كمصطلحه فقط . (٣) ومنه يتضح انه وابن الاثير متفقان تماما في موقفهما من الثقافة واهميتها في خلق الناظم او الناثر ، وهما في ذلك يختلفان عن زميلهما الثالث ابن ابي الحديد الذي لا يجد للثقافة المذكورة مثل هذه الأهمية ، فهي عنده ليست ضرورة حتمية ، وإنما عامل ثانوي متم يمكن الاستغناء عنه اذا توفر الطبع في الأديب . ووجوب توفر الطبع الأصيل او الفطرة السليمة في كل من الشاعر والكاتب والخطيب هو من المسائل القليلة التي لا يختلف بشأنها النقاد الثلاثة اولا ، بل يتم التسليم بها دون نقاش او جدل ، ولكن وجهات نظرهم تتباين فيما يختص بالثقافة عامة وبالיוنانية خاصة ، وقد مر معنا كيف عارض كل من ابن ابي الحديد والصفدي زميلهما الثالث في آرائه حول ما يلزم من تلك الثقافة للاديب وما لا يلزم

١ - نصره الناثر ، ٦٤

٢ = المثل الساثر ١ ، ٧٣

٣ - انظر نصره الناثر ، ٦٥

ولعل لهذا الاختلاف علاقة بنوع ثقافة كل منهم وطبعه ، فابن الاثير - باعترافه - لم يتصل بالثقافة اليونانية ، ولا ندري هل اثر جهله بها في موقفه منها ، أم انه كان بطبعه ينفر من العلم العقلية ، فهو ينطلق في حكمه بعدم الحاجة الى المنطق والفلسفة من تجربته الذاتية .

واما ابن الحديد المعتزلي فانه لا بد وان يكون على معرفة وثيقة بتلك الثقافة، فهو أيضا ينطلق من تجربته الذاتية في بسط وجهة نظره منها وفي نقاشه عامة .

ويبدو ان الصفدى في عدم تحديده لموقف صريح من الثقافة المذكورة ، سواء لها أو عليها ، كان بين عاملين : تقديره لها بسبب اطلاعه على بعض الوانها ، وطبيعته الفنية التي يصعب انسجامها مع اجزاء العلم المنطقية ، فجاء رده مقتصرًا على الاستدلال على معرفة بعض الشعراء والكتاب للثقافة اليونانية .

العلاقة بين الشعر والنثر

غير متوقع من ابن الأثير الناقد المعتمد بفنه الكتابي ألا يتطرق الى البحث في العلاقة بين الشعر والنثر ، لذا نراه يفرد فصلا في آخر " المثل السائر " يتحدث فيه عن كل من الصناعتين معبرا بوضوح عن تفضيله للنثر ، مؤكدا ان المنشور أشرف من المنظم لاسباب منها : أ - ان اعجاز القرآن متصل به ، وهذا سبب ديني له اهميته . ب - وكذلك ان اسباب النظم اكثر ، ولذا فقد زاد المجيدون من الشعراء على المجيدون من الكتاب " وما ذلك الا لوعورة المسلك في النثر ومعدناله " (١) ج - ويتعلق السبب الثالث بوظيفة كل من النثر والشعر في الحياة ، ففما يختص بالنثر فانه لا غنى للدولة من كاتب يدون أخبارها ويخلد ذكراها وينشر مآثرها ، وعلى ذلك فان الكاتب هو " احد دعائمي الدولة ، فإن كل دولة لا تقم الا على دعائمين من السيف والقلم ، وربما لا يفتقر الملك في ملكه الى السيف إلا مرة او مرتين ، واما القلم فانه يفتقر إليه على الأيام وكثيرا ما يستغنى به عن السيف " (٢)

-
- ١ - المثل السائر ٢ ، ٥ . ذكر المؤلف في الجامع الكبير : ٢٣ - ٢٥ اسبابا اربعة في تفضيل المنشور على المنظم ثلاثة منها كما وردت هنا ، والرابع في ان النثر ينوب مناب النظم ولا يعكس . وقابل هذا بما اورده المرزوقي في شرح الحماسة ١ ، ١٦ - ١٢ من تفضيل للنثر على النظم .
- ٢ - المثل السائر ٢ ، ٥ .

فالقلم - أى الكاتب - سلاح الدولة الدائم في الحرب أو في السلم . وفي هذا القول تكريس للكاتب وتعزيز لمكانته .

ويورد ابن الأثير كلاماً لأبي اسحاق الصابي في الفرق بين الشعر والنثر ، ذكر فيه أن الغموض في المعنى من مميزات الشعر الجيد ، كما أن الوضوح والبيان من سمات جيد النثر ، ومن ثم فإن أحسن النثر ما وضع معناه وفهم لأول وهلة ، وأفضل الشعر ما لم يتوصل إلى فهمه إلا بعد تأمل وتفكير ، وقال كذلك أن الشعر بني على حدود مفرقة وأوزان مقدرة وقد " فصلت أبياته فكان كل بيت منها قائماً بذاته وغير محتاج إلى غيره إلا ما جاء على وجه التضمين وهو عيب " (١) فبات من اللازم أن يتم المعنى في البيت الواحد ، ومن هنا كان لا بد للمعنى أن يدق ويلطف . وأما النثر فإنه مبني على أسس أخرى إذ أنه كلام واحد لا يتجزأ ولا ينقسم إلا فقرات طويلة ، مما يتيح المجال لتوضيح المعنى فيه .

ثم يميز بين الشاعر والكاتب من حيث الموضوع أو الغرض الذي يطرقه كل منهما . فذكر أن أغراض أولهما لا تتعدى وصف الديار والآثار والشوق والعين والغزل والطلب والاستجداء والمدح والهجاء ، وأما مواضع الكاتب فلا تكون إلا في سداد ثغر أو إصلاح فساد أو تحريض على جهاد أو مناقشة قضية أو التهنئة أو التعزية .

١ - المثل السائر ٤ : ٧ ، قال صاحب شرح الحاشية ١ : ١٨ " أن مبني الشعر قائم على أوزان مقدرة وحدود مقسمة ، وعلى أن يقوم كل بيت بنفسه غير مختفر إلى غيره إلا ما يكون معناً بأخيه وهو عيب فيه " .

وما شابه ذلك . (١) فهما مختلفان تماما في اغراضهما فضلا عن الأسلوب وطريقة
التناول .

وينتهي ابن الاثير من ايراد اقوال الصابي هذه ليبدأ في مناقشته ،
فيبدأ أولا تعجبه " من مثل ذلك الرجل الموصوف بذلاقة اللسان وبلاغة
البيان كيف يصدر عنه هذا القول الناكب عن الصواب الذى هو في باب ونهى النظر
في باب " (٢) . ثم يأخذ في تفنيد اقواله ، فيرى ان جعل الصابي من الوضع
والغموض مقياسا لجودة كل من النثر والشعر ، دعوى لا مستند لها " بل الأحسن
في الأمرين معا انما هو الوضع والبيان " (٣) بحيث تكون الألفاظ المفردة -
دون التركيب او الصيغة - مفهومة في النثر والنظم على حد سواء .

ولا يقبل بتعليل الصابي غموض الشعر بالتفيد بالبيت الواحد " فهب ان الشعر
كان كل بيت منه قائما بذاته ، فلم كان مع ذلك غامضا ، وهب أن الكلام المنشور كان
واحدا لا يتجزأ فلم كان واضحا " (٤) ويذهب إلى أن المسجوع في النثر كل فقرة
منه بمقام بيت من الشعر فيتأمل عن حكم الصابي في ذلك .

١ - انظر المثل السائر ٤ ، ٧ وذكر المرزوقي في شرح الحماسة ١ ، ٢٠ قولا

مشابها في اغراض النثر والناظم .

٢ - المثل السائر ٤ ، ٨

٣ - المصدر نفسه

٤ - المصدر نفسه .

ويرى ان ما ذكره هذا من اختلاف اغراض الشاعر والكاتب " تحكم محض
لا يستند الى شبهة فضلا عن بينة " (١) فهو لا يجد فرقا بينهما في هذا المقام ،
لانهما قد يكتبان في نفس الأغراض ، ويستشهد برسائل الاخوانيات ويؤكد انها بمنزلة
الغزل والنسيب من الشعر . كما يستشهد بأقوال بعض الشعراء في اغراض يعتبرها
الصاي خاصة بالنثر ومنها قول المتنبي في الإصلاح بين كافور الإخشيدي ومولاه
ومطلع القصيدة :

حسم الصلح ما انتهت الأعادي .

وكذلك قصيدة البحترى في غزو البحر ومطلعها : ألم تر تغلبس الربيع المبكر (٢)
فكل الفروق التي ذكرها الصاي لا يأخذ منها ابن الأثير وهي عنده ليست بشيء
خاصة وان لديه فروقه الثلاثة التالية : اختلاف النظم عن النثر في الصيغة .
وكذلك اختلاف لغة الشعر عن النثر ، فان هناك من الألفاظ ما يسوغ استعمالها نظما
وتحاب نثرا مثل قول ابي تمام :

هي العرمس الوجناء وابن ملهمة وجأش على ما يحدث الدهر خافض (٣)
وقول المتنبي :

ومهم جهته على قدمي تعجز عنه العرامس الذليل (٤)

١ - المثل السائر ٤ : ٨

٢ - انظر المثل السائر ٤ : ١٠

٣ - العرمس : الناقة الصلبة الشديدة ، وايضا الصخرة . (لسان العرب ٦ : ١٣٨ مادة عرمس)

٤ - انظر المثل السائر ٤ : ١١

فقد ساع في الشعر استعمال لفظي " العرس والمهمه " ، ولكن لو
ادرجنا في رسالة او خطبة لعد استعمالها معينا ، وعلى هذا فان " كل ما
يسوغ استعماله في الكلام المنثور من الالفاظ يسوغ استعماله في الكلام المنظم ،
وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظم يسوغ في الكلام المنثور " (١) .

واخيرا هناك فرق يتعلق بمقدرة الكاتب والشاعر على الإجادة - كل في
ميدانه - اذا طال موضوعه وتعددت معانيه ، فيرى ابن الأثير ان الشاعر
اذا نظم مائتي بيت او اكثر لا يجيد إلا في جزئ قليل ، في حين ان الكاتب
قد يكتب رسالة تشتمل على اكثر من ثلاثمائة سطر ، ويجيد فيها كلها ، وهو يؤكد
هذا الامر لانه رآه وسمعه وقاله . (٢) اي انه يجعل من تجربته الذاتية
دليلا على صحة فرقه هذا ، وبذلك يحول دون منازعة أحد له في قوله .

ولا يقف عند حدود الفروق بين النثر والشعر في اللغة العربية فحسب ،
بل يتعداه الى فرق محتل بين الشعر العربي والشعر الفارسي عامة ، فينسجر
الى افضلية الثاني على الاول من حيث اشتماله على نوع من القصائد الطويلة ذات
الافراض المتعددة والمتنوعة والتي هي من نوع الملاحم . يقول " وعلى هذا فإني
وجدت المعجم يفضلون العرب في هذه النكتة المشار اليها ، فان شاعرهم يذكر كتابا
مصنفا من اوله الى آخره شعرا ، وهو شرح قصص واحوال ، ويكون مع ذلك في غاية
الفصاحة والبلاغة في لغة القوم ، كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بهشاه نامه .

١ - المثل السائر ١ : ٢٣٩

٢ - انظر المثل السائر ١٤ : ١١

وهو ستون ألف بيت من الشعر ، يشتمل على تاريخ الفرس وهو قرآن القسم ،
وقد اجمع القوم ونصحاؤهم على انه ليس في لغتهم افصح منه ، وهذا لا يوجد
في اللغة العربية على اتساعها وتنوع فنونها واغراضها ، وعلى ان لغة العجم
بالنسبة اليها كقطرة من بحر " (١) . وبهذا الفرق ينهي ابن الاثير كلامه
في القضية كلها .

ويقتصر الصفدي على هذا الفرق وحده - دون بقية اقوال ابن الاثير -
في نقاشه للقضية ، غير انه ينطلق من العبارة الاخيرة للقول السابق بعد ان اثبتها
في كتابه على هذا النحو " وعلى ان لغة العرب بالنسبة اليها كقطرة من بحر " (٢)
ولا ندري هل كان ذلك مقصودا ليسوغ له الرد على ابن الاثير واتهامه بالشعوبية ،
ام بسبب خطأ في نقل العبارة من المثل السائر ، مهما كان الامر ، فان الصفدي
يتهم زميله صراحة بالشعوبية (٣) ثم ينفي خلو اللسان العربي من هذا النوع
من القوائد ، ودليله على ذلك ان بعضهم قد نظم تاريخ السعدي نظاما
في غاية الحسن ، كما نظم البعض كتاب " كلبه ودمه " في عشرة الاف بيت ،
ثم ان ابن الهبارية (٤) نظم كتابه " الصادح والباغم " في ألفي بيت .

١ - المثل السائر ٤ : ١٢

٢ - نصره الثائر : ٣٨٤

٣ - انظر في ذلك نصره الثائر : ٣٨٥

٤ - هو محمد بن محمد صالح العباس ، كان شاعرا مجيدا كثير الهجاء ت بكرمان سنة ٥٠٦
وقد نظم " الصادح والباغم " على غرار كلبه ودمه ، وهو اراجيز نظمها في
عشر سنين ويقول ابن خلكان انه " اجاد فيه كل الاجادة " (انظر في ذلك وفيما
الاعيان ٤ : ٤٥٣ وانظر ترجمته في الوافي ١ : ١٣٠ ، والنجم ٥ : ٢١ ، والشذرات ٤ : ٢٤)

" كل بيت منها قصر مشيد ، ونكتة ما عليها في الحسن مزيد ، يشتمل على الحكايات والنوادر والأمثال والحكم وكلها في غاية الفصاحة والبلاغة ليس فيها لو ولا ليت . " (١)
وأما من نظم الف بيت وما دونه فكثير جدا ، في القراءات والنحو والعروض والفقه والطب وغيره من العلم ، وهو باستدلالة هذا إنما يحاول دحض قول ابن الأثير في أن اللغة العربية تخلو من القصائد الطويلة جدا ذات الأغراض المتعددة (الملاحم) هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى اثبات أن الشاعر قد يجيد القول في جميع منظومته ، وإن تعدت هذه الثلاثمائة بيت .

وينتقل الصفدي من الجزأ إلى الكل ، فيحاول اثبات الأفضلية المطلقة للغة العربية عامة على الفارسية ، وذلك باستشاده بتفضيل العجم أنفسهم للغة العربية ، فيأتي على ذكر بعض أئمة اللغة العربية وعلمائها مثل أبي علي الفارسي ، وأبي حاتم السجستاني ، والزمخشري من أحبوا اللغة العربية واجتهدوا في تحصيلها وآلفوا فيها المؤلفات القيمة " ومن المستحيل أن يكون هؤلاء القم اجتهدوا هذا الاجتهاد في العربية وآفوا مدة العمر ، وهي ما لا يخلف من شيء هو دون غيره والأولى بهم وكل عاقل الاشتغال بالأحسن والأنصح والأبلغ والأحكم ، ولو علم هؤلاء القم أن اللغة الأعجمية لها أفعال التفضيل ، ما عرجوا على العربية إلا ريثما عرفوها ثم عاجوا إلى لغتهم . " (٢) وهو يقصد أن يقول أن اللغة العربية بخصائصها الفريدة ومميزاتها التي تتفوق بها على غيرها ، جعلت هؤلاء الأعاجم يهملون

١ - نصره الثائر : ٣٨٦

٢ - نصره الثائر : ٣٨٧

لغتهم الاصلية ويتكونها الى لغة دخيلة على عنصرهم وعرقهم ، فأحبوها وتجرروا فيها بحيث ارتفع شأنهم فيها لا في لغتهم؛ بل ان منهم من صرح بأفضلية الجنس العربي على الاعجمي ، فهذا هو الترخسري يقول : " فرقك بين الرُّطْب والعُجْم^٨ ويقول^٩ " العرب نبيح صلب المعاجم ، والغرب مثل للاعاجم " (١)
وبذلك ينقل الحفدي التفضيل من اللغة الى العرق فيرى ان العرب يفضلون العجم لا باللغة فحسب وانما بالعرق والعنصر ايضا ، وهو خلاصة رده على ما فهمه من شعوبية ابن الاثير .

على انه يلتفت ثانية الى شاهنامة الفردوسي فيصرح بأن الحكم على جميع ابياتها بختي الفصاحة والبلاغة دعوى تفتقر الى برهان ، اذ ليس في قدرة احد من البشر في اية لغة كانت ان " يأتي بستين ألف كلمة أو ستة آلاف كلمة تكون في غاية الفصاحة في الألفاظ والبلاغة في المعنى حتى انها لا تعاب بوجه . " (٢)

ويختتم نقاشه برد مختصر يسوغ فيه قلة توفر الجيد من الشعر في القصائد العربية الطوال ، فيقول ان الشاعر - في ذلك - ملزم بالتقيد بالوزن والقافية ،

١ - نصره الشاعر ، ٣٨٢ ، والشيع ، شجر من اشجار الجبال تتخذ منه القسي .
انظر (لسان العرب ٨ ، ٢٤٥ ، مادة نبح) . والغرب : من الشجر . والغرب
يمكنه الرا : شجرة ضخمة شاكّة خضراء حجازية . انظر (لسان العرب ١ ، ٦٤٤
مادة غرب) .

٢ - نصره الشاعر ، ٣٨٨

وهو ما يضيق عليه كثيرا في تناوله لموضوعه ، ولو فرض على الناثر ان يأتي
برسالة طويلة مسجوعة على حرف واحد ، لكان هو والشاعر سواه من حيث عدم القدرة
على الاجادة في الكثير . (١)

ومعه يبدو ان المصدى لا يفضل ايا من الناظم او الناثر على الآخر ،
او ان ذلك لا يعنيه كثيرا ، في ضوء ما بدا منه من الاهتمام في رده على ما
اعتقده من شعوبية ابن الاثير . وهي مسألة لا يبدو لها اثر في نقاش زميليه
ابن ابي الحديد لبعض ما ورد من آراء في القضية كلها . فيمكن التكهن بأنه لم
يحدث مع ابن ابي الحديد اى التباس في فهم عبارة ابن الاثير الاخيرة في حديثه
عن الشاهنامة وتبنيها الأدبية ، ومن ثم فإنه لا يقف عندها كما وقف المصدى ،
وانما يختار الوقوف عندما ارده ابن الاثير في ابي اسحاق الصابي واقواله في الفرق
بين الشعر والنثر ، فيستهل نقاشه بالتهكم على ابن الاثير لكونه اعاد طرح
سؤال الصابي بعد ان اتى على ذكر جواب الاخير عليه . يقول : " ان من اطرف
الاشياء انك تحكي جواب ابي اسحاق من اوله الى آخره ، ثم تعيد السؤال الأول
بعينه الذى قد حكى جوابه ومن يحكى ذلك الجواب لا يحسن لـه
ان يقول في الاعتراض عليه : وهب ان الشعر كان كل بيت قائما بذاته ، فلم
كان مع ذلك غامضا ، وهب ان الكلام المنثور كان واحدا لا يتجزأ فلم كان مع ذلك
واضحا ؟ " (٢) ثم يتطوع لإعادة الجواب بطريقته الخاصة ، فيذكر ان وحدة البيت

١ - نصرة الناثر : ٣١٠

٢ - الفلك الدائر : ٣٠٤

قيدت الشاعر واضطرته الى ايراد المعنى تاما ضمن حدود البيت الواحد ، ولكن قد تزيد معاني البيت عن ألفاظه وقد تنقص ، والمستحسن زيادتها ، فاذا كانت المعاني كثيرة وكانت الألفاظ لا تنفي بالتعبير عنها " احتج بالضرورة الى ان يكون الشعر يتضمن ضروريا من الإشارة وانواعا من الابداعات والتشبيهات فكان فيه غموض " (١) وهذا الغموض له شروط معينة منها ألا يكون معقدا " كأشكال اقليدس والهجسطي والكلام في الجزء ، بل ان يكون بحيث اذا ورد على الاذهان بلغت منه معاني غير مبتذلة ، وحكما غير مطروقة ، فلا يجوز ان يكون الشعر الذي يتضمن الوكس ليس بالاحسن " (٢) وكلام آخر يرى ابن ابي الحديد ان افضل الشعر هو المعنوي الذي يتضمن حكمة ، لانه يتطلب اعمال الفكر لا في صياغته فحسب وانما في فهمه كذلك ، وهو ما ينطبق على شعر ابي تمام ومن لف لفه . ثم يؤكد اخيرا ان غموض مثل هذا الشعر المعنوي هو ما عناء الصابي بكلامه (٣) .

ولا يقبل ان يجعل السجع نظيرا للشعر ، فيسرى عليه حكم الأخير من حيث الغموض والوضوح لان السجع ليس شرطا في النشر بينما الوزن المحدد شرط في الشعر ، حتى ولو التزم السجع في القطعة النثرية ، فان للكاتب حرية التصرف بالوزن بحيث يمكنه المراوحة بين السجعات طولا وقصرا ، واما القصيدة " فان صاحبها عند ابتدائها

١ — الفلك الدائر ، ٢٠٥

٢ — المصدر نفسه

٣ — انظر المصدر نفسه ، ٢٠٦

يلتزم عروضاً واحدة ولو زاد فيها حرفاً واحداً أو نقصه لكان شعره فاسداً " (١) من هنا كان السجع مباحاً للشعر فلا يصح أن يشملهما حكم واحد .

ثم ينتقل إلى الفروق بين الشعر والنثر ، فيوضح أن ما ذكره الصابي فسي هذا المقام لم يقصد به توضيح الفرق بينهما ، بل تحليل كون الشاعر دون الكاتب منزلة وأن تحليله هذا صحيح . ثم يورد كلاماً يفهم منه أنه تبعاً لسمو أغراض النثر على الشعر ، ارتقت منزلة الكاتب وسمت . (٢) فمن الأغراض الأساسية فسي الشعر الطلب والاستجداء ، وقد استجدى بالشعر امرؤ القيس ، الملك وغيره من أبناء الخلفاء ، وإن كان استجداءهم في سبيل الجاه لا المال ، وأما الكتابة فإنها لم تكن على هذا ، وإنما على أغراض ذات طبيعة خلقية رقيقة مثل " سداد الثغور ، وإصلاح الأمور ، والدعاء إلى الألفة ، والنهي عن الفرقة ، والاستعداد لحرب ، والإعلام بفتح . ولم يوضع الشعر لذلك " (٣) ويشير إلى ما نظمته المتنبى والبحتري وغيرهما من الشعراء في الأغراض المذكورة فيؤكد أنه لا ينبغي وجود مثلها في الشعر ، ولكن ذلك لا يكون أصلاً فيه بل عارضاً وطارئاً . (٤)

١ - الفلك الدائر : ٣٠٦

٢ - قال المرزوقي في شرح الحماسة ١ : ١٦ " وإذا كان شرف الصانع بقدر شرف صناعته ، وكان النظم متأخراً عن رتبة النثر وجب أن يكون الشاعر أيضاً متخلفاً عن غاية البليغ " .

٣ - الفلك الدائر : ٣٠٨

٤ - انظر المصدر نفسه .

ثم يعرض لما ذهب اليه ابن الاثير من ان اغراض الشعر والنثر واحدة .
فيثقف عند قوله - ان رسائل الاخوانيات يذكر فيها الحنين والشوق فهي فسي
المنثور كالنسيب في المنظم - ويرفضه موضحا ان افتتاح قصائد المدح بالنسيب
والغزل امر مستحب ، ولكن لم يحدث ان صدر كتاب " في فتح او استجداد او
تعريض او تخذيل في صدره رسالة اخوانية تتضمن الحنين والبكاء " (١) وعليه
لا تماثل بين رسائل الاخوانيات والنسيب ، فكما يختلف الشعر والنثر في سائر الاغراض ،
يختلف الغرض هنا .

ويقول اخيرا ان هناك فروقا اخرى تضاف الى ما ذكره ابن الاثير في تفرقه
بين الشعر والنثر ، منها انه يجوز للشاعر ان يمدح نفسه ، وليس للكاتب ذلك ،
وان للشاعر دون الكاتب ان يبالغ ويوغل حتى يدخل في الاحالة ، وان له ايضا ان
يخاطب الملك بالكاف ويدعوه باسمه وينسبه الى امه ، وان الشعر يحسن
فيه الكذب ولا يستحسن في الكتابة . (٢) فهو لا يعارض ابن الاثير في تفرقه
بين الشعر والنثر ، ولكنه رأى ان ما اورده لا يشمل جميع وجوه الاختلاف بينهما ،

١ - الفلك الدائر : ٣٠٩

٢ - انظر المصدر نفسه : ٣١٠ . وقال ابن رشيق في العمدة : ١ : ٢٢ - ٢٥
" ومن فضل الشعر ان الشاعر يخاطب الملك باسمه وينسبه الى امه ويخاطبه
بالكاف كما يخاطب اهل السوق فلا ينكر ذلك عليه ومن فضائله ان الكذب الذي
اجتمع الناس على تحبه حسن فيه وقيل ليس لاحد من الناس ان يطرى
نفسه ويمدحها في غير منامرة الا ان يكون شاعرا ، فان ذلك جائز له في
الشعر غير معيب عليه " .

فحاول اضافة ما يمكن اضافته من فروق . كما انه لا يعارضه في تفضيل النشر على الشعر ، بل انه يجعل من اغراض الاول علة كون الكاتب اعلى منزلة من الشاعر ، ذاهبا الى ان هذا التعليل هو ما عناء ابو اسحاق الصابي وفي كلامه في الشعر والنثر ، وليس البحث في الفرق بينهما كما فهم ابن الاثير وقد اعترض هذا ايضا على ما جاء في كلام الصابي من حيث غموض المعنى في الشعر ووضوحه في النثر ، ورفض ان يكون الغموض سببه تنيد الشاعر بالبيت الواحد بل انه رفض فكرة الغموض كلية ، ونادى بوضوح المعنى في الشعر كما في النثر كما جعل من السجعتين نظيرا للبيت الشعري ، وقد عارضه في ذلك كل من ابن ابي الحديد والصفدي ، وعارضاه ايضا فيما ذهب اليه من ان الشاعر لا يستطيع الاجادة الا في جزئ قليل من منظومة طويلة جدا ، وأوجدا البررات والاعذار للشاعر ، وانفرد الصفدي بايراد ادلة او امثلة يدحض بها رأى ابن الاثير . واخيرا عرض هذا لإحدى خصائص الشعر العربي ، وهي خلوة من القصائد الملحمة وبذلك بات متخلفا عن الشعر الفارسي الذي يتوفر فيه عدد من النوع المذكور كمنظومة الشاهنامه ، فاحتج عليه الصفدي احتجاجا شديدا ، اتهمه فيه بالشعوبية غير ان احتجاج الأخير قام على فهم مقلوب لعبارة ابن الاثير في الموضوع المتقدم " وعلى ان لغة العجم بالنسبة اليها كقطرة من بحر " بينما لم يورد ابن ابي الحديد أى رد على هذه المسألة ، مما يستتج معه انه لم يجد في اقوال ابن الاثير ما يستدعي الاحتجاج او الاتهام .

القسم الثاني

قضايا نقدية خاصة

- ٤ - قضية اللفظ
- ٥ - قضية المعنى
- ٦ - العلاقة بين اللفظ والمعنى
- ٧ - تداول المعاني (أو مشكلة السرقات)

قضية اللفظ

لا يختلف ابن الاثير عن غيره من النقاد العرب من حيث الاهتمام بقضية اللفظ والمعنى التي هي احدى القضايا الاساسية في النقد العربي ، كما انه لا يختلف عنهم في الفصل بين اللفظ والمعنى في تناوله لهما ، وان قام هذا الفصل في معظمه على اغراض تعليمية هدفها التعريف بأسس الفصاحة والبلاغة ومواطنهما في النظم والنثر . وهذا ما يتكشف عنه بحثه المستفيض في كل من الصناعة اللفظية ، والصناعة المعنوية ، وقد تحدث في الاولى عن خلائص اللفظ واوصافه مفردا ومركبا ، كما تحدث في الثانية عن المعاني الذهنية وما يرتبط بها من صور شعرية . ولانه من الصعب الفصل تماما بين اللفظ والمعنى ، فان بحث ابن الاثير لبعض المسائل المتفرعة عن القضية الام كان يأتي في الاثنين معا ، وهو ما سنتبينه اتنا الحديث عن بعض آرائه في كل من اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما .

ويتناول ابن الاثير في حديثه عن اللفظ الخصائص الذاتية للألفاظ ، وما قد تثيره في نفس المتلقي من انفعالات واحاسيس متباينة . ويكشف في حديثه هذا عن تأثر عميق باللفظ ، ولا سيما العذب الجميل السائق منه ، فهو يحس لدى سماع مثل هذا اللفظ او النطق به بمزيج من الغبطة والطرب والنشوة ، وفي ذلك يقول

" وكنت اذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ويلوح لي فيه مثل هذه الألفاظ
أجد لها نشوة كمنوة الخمر وطربا كطرب الحان " (١) ومثل هذه الالفاظ ما ترقص
الأسماع له ويرن على صفحات القلوب . (٢)

اما عذوبة هذه الالفاظ وجمالها وحسنها فإنها مستعدة جميعا من خصائص
ذاتية ثابتة لا تتغير بتغير العصور ، ولا يرجع فيها الى العرف العربي ، فهذا
امر " لا يؤخذ بالتقليد من العرب لانه شيء ليس للتقليد فيه مجال ، وانما
هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت علم حسنه من قبجه " (٣)

ويقوده هذا الرأي الى مناقشة ما أورده ابن سنان الخفاجي من أوصاف
للفظ المفرد ، مثل تباعد مخارج الحروف وتقاربها ، وعدد حروفه ، والابتذال
وعدمه والجريان على العرف العربي ، (٤) فيرفض بعض هذه الاوصاف

١ - المثل السائر ١ : ١٨

٢ - انظر المصدر نفسه ١ : ٢٤٨

٣ - المصدر نفسه ١ : ٢٢٢

٤ - اورد ابن سنان شروطا ثمانية لحسن اللفظ هي : ١ - تأليف اللفظ في
حروف متباعدة المخارج ، ٢ - ان يكون لتأليف اللفظة في السمع حسنا
ومزية على غيرها وان تساويا في التأليف في الحروف المتباعدة ، ٣ - وان
لا تكون الكلمة وحشية او متوعدة ٤ - وان لا تكون ساقطة او عامية
مبتذلة ، ٥ - وان تكون جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة ،
٦ - وان لا تكون قد عبر بها عن امر آخر يكره ذكره ، ٧ - وان تكون
معتدلة غير كثيرة الحروف ، ٨ - وان تكون مصغرة في موضع عبر بها فيه
عن شيء لطيف او خفي او قليل او ما يجري مجرى ذلك (انظر ———
الفصاحة ١ : ٦٠ وما بعدها) .

ويتقبل البعض الآخر .

فما يرفضه جعل تباعد مخارج الحروف شرطا مسبقا في استحسان اللفظ " لأنه لو اراد الناظم او الناثر ان يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ وهل هي متباعدة او متقاربة لطال الخطب في ذلك وهو " (١) . ومن ثم فان حاسة السمع هي التي تحكم في حسن اللفظ او قبحه ، ولو ان ما تستحسنه هذه الحاسة يكون في الغالب متباعد المخارج ، وما تستقبحه يكون متقارب المخارج ، غير ان استحسان اللفظ او استقبحه يسبق اعتبار مخارج حروفه ولا يخلوها . ولكن هناك شواذ لهذه القاعدة ، فقد يجيء في متقارب المخارج ما هو حسن عذب مثل لفظني - جوش وشجج - كما قد يأتي في المتباعد الفاظ قبيحة مثل - ملع - ، وما يلبث ابن الاثير ان يتخذ من هذه اللفظة دليلا آخر على عدم اعتبار مخارج الحروف شرطا لحسن اللفظ ، حين ينوه بأن مقلوبها (علم) من الألفاظ الحسنة ، رغم ان الحروف في اللفظتين لم تتغير . (٢)

وينفرد ابن ابي الحديد في مناقشة هذا الرأي فيقول " ليس بنكر ان يعلم المعلول قبل العلة والمشروط قبل الشرط " (٣) فكثيرا ما يستحسن المرء شيئا قبل ان يعتبر سبب الحسن او علة فيه ، غير ان الاستحسان الفوري

١ - المثل السائر ١ : ٢٢٢

٢ - انظر المثل السائر ١ : ٢٢٥ - ٢٢٦

٣ - الفلك الدائر ، ١٧٣

لا يطعن في تحليل الحسن ، ثم يلجأ ابن أبي الحديد الى المنطق في تحليل الموضوع وتحليله ، فيذكر ان ابن الاثير قد اقر بأن اللفظ القبيح لا يكون الا متقارب مخارج الحروف ، كما ان الحسن لا يكون الا متباعدة وان انكر ان يكون التباعده والتقارب علة الحسن والقبح في اللفظ ، ولكن اذا " كان تقارب المخارج والاستقباح متلازمين لا يفترقان فلا بد من امر أوجب ملازمتهما فيمكنك ان تقول ان الاستقباح أوجب تقارب المخارج فيما هو متقارب المخارج وهو امر ذاتي لا " يتوقف على الاستقباح (١) ومن ثم اذا كان لا بد من سبب للتلازم ها هنا فانه يمكن في مخارج الحروف (٢)

ثم يعقب على ما استثناء ابن الاثير من قاعدة استحسان اللفظ واستقباحه وفقا لمخارج الحروف فيقول " ان ابن سنان لم يدع الاطراد المطلق ، وانما قال ان الأكثر الأغلب استقباح الالفاظ المتقاربة المخارج اذا لم توجد فيها علة اخرى توجب

١ - الفلك الدائر ، ١٧٢

٢ - انظر الفلك الدائر ، ١٧٢ وقال ابن الاثير في " الجامع الكبير " ، ٤٠ : " فمن اى وجه تكسب اللفظة الجودة والحسن اذا تركبت من حروف متباعدة المخارج ؟ ... الجواب عن ذلك انا نقول : انها اكتسبت حسنا عند تركيب حروف متباعدة المخارج ... لان النطق اذا اتى على مخارج حروف اللفظة وهي متباعدة ليجمعها ويؤلفها ، كان له في ذلك مهلة وأناة لان بين المخرج الى المخرج فسحة وبعدا فتجيء الحروف عند ذلك متمكة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة " .

استقباحها والشاذ لا يعتد به^(١) ويستدرك فينبه على ان ابن الاثير قد اعترف بأن كل لفظة متقاربة المخارج تكون مستفححة وان لم يعمل الاستقباح بذلك ، وعلى ذلك فان ما نسبته هذا الى ابن سنان ينطبق على ما اعترف هو به من تلامذ الامرين المذكورين^(٢) . وهو يعني من كل ذلك ان ما جاء به ابن الاثير في هذا الموضع لا يخرج عما اورده ابن سنان وان اظهر الأول رفضه لما اتى به الثاني .

ويتخذ موقفاً مماثلاً من رفض ابن الاثير اعتبار قلة الحروف شرطاً في حسن اللفظة كما نص ابن سنان ، وقد مثل هذا على قبح اللفظ بسبب كثرة حروفه بلفظة سويداواتها في بيت المتنبي :

ان الكرام بلا كرام منهم مثل القلوب بلا سويداواتها

واعترض ابن الاثير على هذا التمثيل وذهب الى ان اللفظة تلك اقل عدداً في الحروف من كلمات وردت في القرآن مثل (فسيفيكم الله) و (ليستحلفنهم) فهاتان اللفظتان حسنتان فصيحتان رغم كثرة عدد حروفهما . فالعبرة اذاً في نظام تألف الحروف مع بعضها لا كثرتها^(٣) والدليل هو قبح لفظة - مستشزرات - فان فيجها ناجم عن توالي بعض حروفها وهي التاء والشين والزاي وليس بسبب كثرة

١ - الفلك الدائر : ١٧٤

٢ - انظر المصدر نفسه

٣ - انظر رأى ابن الاثير المناقض لرأيه هذا في الجامع الكبير : ٥٨ - ٥٩

تلك الحروف ، سيما وانها تظل قبيحة في الافراد رغم التقليل من حروفها . (١)

ويقف ابن ابي الحديد من هذا كله عند تمثيل زميله على الفصاحة بكلمتي (فسيكفيكم) و (ليستخلفنهم) ويربط بينهما وبين ما ذكره هذا في باب المعاطلة اللفظية من ان تكرير حروف اللفظ يقبحه ، فيوضح ان مثل هذا التكرير يقع في الألفاظ القرآنية ايضا مثل (بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم) . ويعقب بقوله " فهذه ميات كثيرة يتلو بعضها بعضا ، فاما ان يكون استعمالها في القرآن غير مستحسن ، أو يكون مستحسنا ، فان لم يكن مستحسنا مع انها قد استعملت ، فاختر لابن سنان ان تكون الكلمة الطويلة ، كقوله : ليستخلفنهم غير مستحسنة وقد استعملت ، وان كانت المغالطة قبيحة إلا في القرآن الكريم فاختر لابن سنان ان يكون كثرة حروف الكلمة قبيحة إلا في القرآن الكريم . (٢) وهو يقصد ان يقول ان ابن سنان لم يخرج في قواعده وشروطه ومواصفاته عما ورد في القرآن ، ومن ثم لا داعي للطعن فيه وفي اقواله ، وفي ذلك تأكيد لموقف ابن سنان وتثبيت له . ويبدو انه يكتفي برده هذين فهو لا يعرض بشيء لاقوال ابن الاثير الاخرى في اللفظة المفردة . وقد عرض الاخير لجريان اللفظة على العرف العربي ورفض ان يكون من شروط حسن اللفظة وذهب

١ — المثل السائر ١ : ٢٦٤ — ٢٦٦

٢ — الفلك الدائر : ١٧٧

الى ان هذا القول " يقدح في معرفة مستعملها بما ينقله من الالفاظ ، فكيف يعد ذلك من جملة الاوصاف الحسنة ؟ " (١)

ولكن يبدو انه يؤيد ابن سنان في كراهته للوحشي من الالفاظ وتأكيده على وجوب اسقاطها من الاستعمال الادبي ، وهو لا يقتصر على التأييد وانما يسهب في الحديث عنه ، فيوضح اولا ان لفظة وحشي اخذت من الوحش ، وهذا لا يعني كون الوحش قبيحا مطلقا ، فان من الوحش ما هو مقبول او حسن الهيئة ، غير ان الصفة المشتركة بين النوعين انما هي الغرابة ، وعلى ذلك فان الوحشي من الالفاظ ما كان غريبا غير مألوف الاستعمال ، وهذا الغريب فسمان : " ما تداول استعماله الاول دون الاخر ويختلف في استعماله بالغيبة الى الزمن واهله " (٢) وهو ما لا يحاب استعماله عند العرب لانه كان مألوفاً عندهم ، ولكن استعماله معيب في العصور المتأخرة ، ومن هذه الالفاظ ما ورد في القرآن وفي الحديث النبوي واصطلح على تسميته بغريب القرآن وغريب الحديث . ويقوده حديثه عن غريب القرآن الى مهاجمة الفلاسفة والمتفلسفين بسبب مجادلة بعضهم له في فصاحة لفظه — ضيزى — في الآية (تلك اذا قسمة ضيزى) ، وينتهي من ذلك الى توضيح المراد من ايراد هذه اللفظة ، وهو التلاؤم مع بقية أَلْفَاظِ السورة المسجوعة على حروف الياء ، فانه لو وضعت بدلا منها كلمة جائرة او ظالمة على فصاحتها ، لما وافقنا

١ — المثل السائر ١ : ٢٢٧

٢ — المصدر نفسه ١ : ٢٢٩

في الجرس بقية الألفاظ . (١) وهو يعني ان الانسجام او الائتلاف الموسيقي للسورة يحتم استعمال لفظة - ضيزى - وان لم تكن في فصاحة ما في معناها من الكلمات الاخرى، ثم يأتي على ذكر المواطن التي يسوغ فيها استعمال هذا النوع من الغريب، فيرى انه مقبول في النظم دون النثر، ويمثل على ذلك بلفظة - مشمخر - فهي مقبولة في الشعر، مكروهة في النثر، ورغم ذلك لم يحجم الخطيب ابن نباته (٢) عن ايرادها في احدى خطبه حين قال في وصف احوال يوم القيامة (اقطر وبالها واشمخر نكالها فما طالت ولا ساغت) (٣) ومثلها لفظة - شرنبنة - فهي مما يسوغ استعماله في النظم لا في النثر . (٤)

ويعرف القسم الثاني من الوحشي بأنه : الغريب القبيح الذي يكرهه السمع ويشغل على اللسان النطق به ، وهو احرى بأن يدعى الوحشي الغليظ او المتوعر " وليس وراءه في القبح درجة اخرى ، ولا يستعمله الا اجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن اصلاً " (٥) ومن هذا القسم لفظة (جحيش) في البيت :

١ - المثل السائر ١ : ٢٣٠

٢ - هو عبد الرحيم بن محمد بن اسماعيل صاحب الخطب المنبرية ، مهر بالادب ، واجتمع بالمتنبي في خدمة سيف الدولة . كانت معظم خطبه في الحز على الجهاد . توفي بحلب سنة ٣٧٤ لما نظر ترجمته في وفيات الاعيان ٣ : ١٥٦ ، وغير الذهبي ٢ :

٣٦٧ ، والشذرات ٣ : ٨٣

٣ - المثل السائر ١ : ٢٣٨

٤ - المصدر نفسه ١ : ٢٣٧

٥ - المصدر نفسه ١ : ٢٣٤

يظل بمومة ويمسى بغيرها جحيشا ويمرورى ظهور المسالك (١)

وينتهي من ذلك كله الى تقرير قاعدة عامة لاستعمال الغريب فيقول
" والعرب اذن لا تلام على استعمال الغريب الحسن من الالفاظ وانما تلام على
الغريب القبيح ، واما الحضري فانه يلام على استعمال القسمين معا وهو في احدهما
اشد ملامة من الاخرى " (٢) وفي ذلك اشارة الى تغير الذوق الادبي لدى
الانسان العربي بتغير عصره وبيئته .

ولربما كان في موقف الصفدى من بعض ما تقدم دليل على صحة ما ذهب اليه
ابن الاثير من تغير الذوق وفقا لتغير ظروف معينة ، فان الاول لا يجد لفظة -
جحيش - قبيحة منكرة ، ويراها الطف واخف على السمع من لفظة - شرنبشة -
التي سوغ زميله استعمالها في الشعر دونها ، فاللفظة الثانية لو وردت " في
النيل كدترته واحالت فراته العذب الى الملح الاجاج وغيرته ، ولو كان خلا في
وجنة الشمس هجنتها والفت محاسنها التي انارت الايام وزينتها " (٣) فيبدو
ان الصفدى بمبالغته هذه في ذم لفظة شرنبشة اراد ان يجعل من ذوق زميله
ذوقا فاسدا لا يؤخذ بحكمه .

١ - المثل السائر ١ : ٢٣٦

٢ - المثل السائر ١ : ٢٣٧ ، وانظر الجامع الكبير : ٤٦ فقد ذكر المؤلف مثل
هذا القول هناك .

٣ - نصرة الثائر : ١٣٨

وهو يعترض أيضا على ذوق زميله حين يؤكد ان كلمة - اشمخر - ليست
ما يحاب استعماله في النشر ، وقد جاءت هنا مناسبة للموضوع الذي هو وصف
اهوال القيامة فهذا " امر مهول ويحتاج الى الفاظ فخمة تهول السمع
وتسيل الدمع وتغشعر لها الجلود وتنفطر لها الكبد " (١) ويتطرق من ذلك
الى ايراد الفاظ تناسب وصف النار والجنة مشيرا الى وجوب مناسبة اللفظ لموضوعه
ويبدى عجبه من عدم تنبيه ابن الاثير الى هذا الامر . (٢)

ويقف عند كلمة ضيزى ، فلا يعبا بما دار حول فصاحتها من جدل ، وانما
يبرز خطأ زميله في قوله ان هذه اللفظة اتى بها في سورتها لتلائم بقيسة
الفاظ السورة المسجوعة على حرف اليا ، فيقول ان الفاظ السورة كتبت بحسرف
اليا نظرا الى اصل الكلمات فيها والتي هي مشتقة من فعل ناقص يائي لا وارى ،
مثل مأوى ، فهي من يأوى ، وكذلك هوى ، من يهوى وهكذا ، غير انها جميعا
من حيث اللفظ تكون مسجوعة على الالف . ويحاول التخفيف من وقع كلامه أو من
اثره تجاه زميله فيقول " وما اظن بأن ابن الاثير رحمه الله انه جهل هذا ،
ولكنها غفلة ليس الا " . (٣)

١ - نصره الثائر ١٣٨

٢ - نصره الثائر ١٤٠ وتجدر الإشارة هنا الى ان ابن الاثير قد تنبه الى هذه
الناحية حين قال ، " الالفاظ تنقسم في الاستعمال الى جزلة ورقيقة ولكل منهما
موضوع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفسي
قوارع التهديد والتخويف واشباه ذلك . واما الرقيقة منها فانه يستعمل في وصف
الاشواق وذكر ايام البعاد ، وفي استجلاب المودات وملاينة الاستعطاف واشباه ذلك "
المثل السائر ١ : ٢٤٠

٣ - نصره الثائر ١٣٧

وفي هذا كله لم يتطرق الى مناقشة ابن الاثير في اعتراضه على اوصاف اللفظ ، كما لم يبحث هو نفسه في جوهر القضية ، وانما اقتصر على مناقشة الامثلة فقط ، وقرب منه منهاجه في مناقشة بعض ما ذكره ابن الاثير في الالفاظ المركبة .

وقد اشار هذا الى ما ينبغي التركيب على اللفظ من فصاحة نابغة من نوائم الالفاظ وانسجاناتها وتألفها فقال " وذاك انه يحدث عنه من فوائد التأليفات والامتزاجات ما يخيل للسامع ان هذه الالفاظ ليست تلك التي كانت مفردة " (١) والالفاظ المركبة عنده ثمانية اقسام ، ومنها الموازنة وتختص بالمشور ، وتكرير الحروف ويختص بالمنظم والمنثور (٢) .

فاما الموازنة فهي " ان تكون الفاظ الفواصل من الكلام المنثور متساوية في الوزن وان يكون صدر البيت الشعري وغيره متساوي الالفاظ وزنا " (٣) وهذا النوع يكثر في القرآن ، والشواهد على ذلك كثيرة فيه . وقد جاء منه في المنظم ثاني البيتين التاليين :

ان يقتلوك فقد ثلثت عروشهم	بعثيبة بن الحارث بن شهاب
بأشدهم بأسا على اصحابه	وأعزهم نقدا على الاصحاب (٤)

-
- ١ - المثل السائر ١ : ٢٧٠
 - ٢ - المصدر نفسه ١ : ٢٧١
 - ٣ - المصدر نفسه ١ : ٢٧٧ ، في الجامع الكبير : ٢٧٠ يقصر ابن الاثير الموازنة على الكلام المنثور .
 - ٤ - المصدر نفسه ١ : ٢٨٠

ويتلقف ابن أبي الحديد هذا التمثيل على الموازنة في الشعر فيندد به مشيراً إلى أن ابن الأثير قد خص الموازنة بالمنحصر أثناء تعداده لأقسام الألفاظ المركبة ولكنه " هنا يذكر أن في الشعر موازنة ، وذلك نقض لما قدمه " (١) وبذلك يبرز تناقض زميله في بعض أقواله ، وإن لم يعارضه في حده للموازنة والأمثلة القرآنية عليها ، وكذلك في بحثه لتكرير الحروف .

ورغم أن ابن الأثير لم يورد في أقسام الألفاظ المركبة قسماً خاصاً باسم المعاظلة اللفظية ، فإنه يعود فيفرد لها باباً مستقلاً ويجعلها خمسة أقسام هي ، ما يختص بتكرير الحروف ، وما يختص بالأدوات ، وتتابع الفاظ على صيغة الفعل ، وورود صفات متعددة على نحو واحد ، وما يتضمن مضافات كثيرة (٢) ، ويشرح كل قسم مع التمثيل ، مع بعض من التعليق ولا سيما في تكرير الحروف ، فإنه يورد البيت :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قسبر حرب قسبر

ويعقب عليه بقوله : " فهذه القافات والراءات كأنها في تتابعها سلسلة ، ولا خفاء بها في ذلك من الثقل " (٣) ثم يقرن به قول الحريري في بعض مقاماته ،

وازود من كان له زائرا وهاف عافي العرف عرفانه

١ - الفلك الدائر : ١١٠

٢ - انظر المثل السائر ١ : ٣١٨ وما بعدها

٣ - المصدر نفسه ١ : ٤٠١ ، وله تعليق مماثل في الجامع الكبير : ٢٧٣

ويؤكد ان هذا البيت من التكرير الثقيل المشار اليه ، وينتظر من ذلك الى التدديد بالحريري لتأليفه رسالتين على حرفي السين والشين ، وتكريره في اولاهما حرف السين في كل لفظة ، كما كرر حرف الشين في كل لفظة من الثانية " فجا" تا كأنهما رقي العقارب او خذرونة العزائم " (١)

ويمثل على توارد صفات متعددة على نحو واحد بيت ابي تمام :

تأمله نهده مداخله مملومه معزله أجده

ثم يندد به قائلا انه من " المعاطلة التي قلع الاسنان دون ايرادها " (٢) وفي هذا يبدو نفوره من التكلف والتعقيد في اللفظ والذي يؤثر على الوضوح والبيان والسهولة في الصياغة اللفظية ، وهو ما نلمسه في حديثه عن المنافسة بين الالفاظ في السبك ، أي عدم لياقة الالفاظ بالموضع الذي ترد فيه .

وصف ابن الاثير هذا الضرب والذي تقدم ذكره بأنيهما " اصلا سبك الالفاظ وما عداها فرع عليه ، واذا لم يكن النائر او الناظم عارفا بهما فان مقاتله تبدو كثيرة " (٣) ومن هذا الضرب ما يوجد في اللفظة الواحدة ، ومنه

١ - المثل السائر ١ : ٤٠١

٢ - المصدر نفسه ١ : ٤٠٨

٣ - المثل السائر ١ : ٤٠٦ قال الجاحظ في البيان ١ : ٦٦ - ٦٧ " اذا كان الشعر مستكرها وكانت الفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مائلا لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين اولاد العلات واجود الشعر ما رأيت متلاحم الاجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك انه قد افترغ افراغا واحدا وسبك سبكا واحدا فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان " .

ما يوجد في الألفاظ المتعددة في الشعر والنثر على حد سواء ، فأما النوع الاول
فيمكن تبديل لفظه دون اخلال بالتركيب او الوزن ، وأما الثاني فلا يمكن تبديله
في الشعر بسبب الوزن ، ولكنه يمكن في النثر . وما جاء في النوع الاول البيت :

فلا يريم الامر الذي هو حال ولا يحول الامر الذي هو يريم

فهنا لفظه حال نافرة عن موضعها ، ولو استبدلت بلفظة ناقض لبات " قسارة
في مكانها غير قلقة او نافرة " (١) . وما جاء في النوع الثاني قول القائل :

شفيعك فاشكر في الحوائج انه يصونك من مكروها وهو بخلق

وقد جاءت المنافرة هنا في صدر البيت مما قبله وافقده حسن السبك (٢) ،
ولا يختلف ذلك عما يحدث من وصل همزة القطع ، فهذه وان كانت من جائزات
الشعر الا انها غير مستحسنة في النثر ، واما قطع همزة الوصل فيصفه ابن الاثير
بأنه اقبح من الاول لانه اثقل على اللسان ، وما جاء في وصل همزة القطع
قول امي تمام :

فأصبح بلقائي الزمان من اجله بأعظام مولود ورأفة والسد

فهنا وصلت همزة اجله وهي قطع ، وهذا مما ينبغي استعماله (٣) ، وان كان

١ - المثل السائر ١ : ٤١٠

٢ - انظر المصدر نفسه ١ : ٤١٢

٣ - المثل السائر ١ : ٤١٣

جائزا للضرورة الشعرية . ومنه يتضح اهتمام ابن الاثير بأن يكون اللفظ سهلا سلسا ومنظما في عبارته . وكذلك رفضه لتعلق ذلك بمقياس الصوة او الجواز في الاستعمال .

ويتخذ الصغدي من ذلك كله موقفا يتراوح بين التأييد والمعارضة . فهو يرى ان المناقرة بين الالفاظ داخلية في المعاطلة اللفظية وليست قسما او ضربا مستقلا ويرى ان قطع همزة الوصل مستفح . وبذلك يؤيد وجهة نظر ابن الاثير في هذا الموضع . ولكنه يعترض على عدم استحسان وصل همزة القطع . ويعمل ذلك بقوله انه في الوصل ينتقل الاثقل الى الاخف فيحسن . وهو عكس ما يحدث في القطع اذ ينتقل الاخف فيه الى الاثقل فيقبح . وعلى ذلك يرفض رأى زميله في بيت ابي تمام المتقدم ويؤكد ان وصل الهمزة فيه " من باب النقل . وقرا التجويد يعرفون ذلك ولا يسمونه وصل الهمز بل نقل الحركة من المتحرك الى الساكن كقوله تعالى - ولو انهم صبروا " (١) وهي قاعدة مطردة في القرآن جميعه . ومن ثم فانه يعجب من زميله لمنعه هذا الوصل وجعله اياه من باب المعاطلة اللفظية الجائزة في الشعر فقط . (٢)

ويبدو انه يؤيد زميله في تشيله على المناقرة . اذ يكتفي من ذلك كله بالقول ان البيت المتقدم المتضمن لفظة حالل هو من ردى شعر المتنبى . ويتطرق

١ - نصره النائر : ١٨٢

٢ - انظر نصره النائر : ١٨٣

من ذلك الى وصف شعر المتنبي وتصنيفه بين جيد وردى وان جا ذلك في معرض الدفاع عنه (١) . ويشير الى تنديد ابن الاثير ببيت ابي تمام :

تامكسه نهده مداخله الخ

حين جعله من باب المعاطلة اللفظية بسبب توارد الصفات فيه على نحو واحد ، فيعترض على هذا التنديد ، ويرى ان ثقل البيت ناجم عن اضافة - الها - الى كل وصف وليس في تعدد الصفات نفسها ، ويمضي فيقول انه اذا شك احد في هذا القول فليجعل الحسن حكما في ذلك . (٢)

ويعترض كذلك على جعل ابن الاثير بيت الحريري من نوع البيت المعروف :
وقبر حرب - الخ - وقد مثل بهما الاول على تكرير الحروف في المعاطلة اللفظية (٣)
وينوه بان جميع علماء البلاغة لم يفرقوا البيتين المذكورين ببعضهما ، فان بيت الحريري لا يحتوى سوى الجناس فقط ، ولا يدخل ذلك في المعاطلة اللفظية ، والجناس صناعة فكيف يعدها زميله عيبا ، ولكفه هذا " من تعسفه وتعنثه " . (٤) ثم يوضح ان ثقل بيت (وقبر حرب) ليس بسبب تكرار الحروف فحسب وانما بسبب تغديهما على بعضهما مع التكرار بحيث لا يستطيع احد انشاد البيت ثلاث مرات دون التلعثم فيه . (٥)

١ - انظر نصره الثائر : ١٧٠ وما بعدها

٢ - المصدر نفسه : ١٦٦

٣ - انظر في ذلك المثل السائر ١ : ٤٠١

٤ - نصره الثائر : ١٦٦

٥ - قابل هذا بقول الجاحظ في البيان ١ : ٦٥ في البيت نفسه " ولما رأى من لا علم له ان احدا لا يستطيع ان ينشد هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد ، فلا يتتبع ولا يتلجلج ، ويقال لهم ان ذلك انما اعتراه اذ كان من اشعار الجن صدقوا بذلك " .

واما بيت الحريري فان حروف جناسه تكرر دون ان تتقدم او تتأخر عن موضعها
من الالفاظ .

ويختم اعتراضه بقوله انه لا ينكر ان كثرة التجنيس في البيت او الفقرة
يؤدي الى نوع من الثقل ، ولكنه ما دفعه الى الاعتراض على ابن الاثير هو جعله
قول الحريري " من باب البيت الذي كأنه رقي العقرب او بعض العزائم الروحانية " (١)
وبذلك يغفل تعليق الاول على رسالتي الثاني المؤلفتين على حرف السين والشين ،
ولا يبدى موافقة او اعتراضا على ما جاء في التعليق المذكور .

على ان اعتراضه على مجمل ما اورد ابن الاثير يأتي في الامثلة وليس في
النظرية ، ما يمكن معه القول بأن الصفدى يتفق مع زميله في النظرية دون التطبيق ،
وهو ما لمناه في موقفه ما اعترض به ابن الاثير على ابن سنان في اوصاف اللفظة
المفردة .

وخلاصة ما هنالك ان ابن الاثير رفض ان يكون تباعد مخارج الحروف وتقاربها
سببا في استحسان اللفظ واستنتاجه ، كما رفض ان يبني استقباح اللفظ على كثرة
حروفه ، وذهب الى ان للاستقباح او الاستحسان علاقة بترتيب حروف اللفظ ونوعها
لا بعددها . ورفض ايضا اعتبار الجريان على العرف العربي من الاوصاف الحسنة
للفظ ، ولكنه أيد تحاشي استعمال الوحشي القبيح من الالفاظ ، وانتهى الى وضع
قاعدة عامة لاستعمال الغريب الحسن منه .

وفي الالفاظ المركبة ركز على وجوب مراعاة التلاؤم والتناسق والتناسب وحسن الايقاع في التركيب اللفظي ، وذلك من خلال بحثه في اقسام الالفاظ المركبة ومنها الموازنة والمعاظلة اللفظية والتأخر بين الالفاظ في السبك .

وجاء موقف ابن ابي الحديد مناقضا لموقف زميله فيما يتعلق بأوصاف اللفظة المفردة وشروطها ، فقد تصدى لموازرة ابن سنان والدفاع عن آرائه واقواله من جهة ، ولمناقشة ابن الاثير في بعض امثله ، ومحاولة اظهار تناقضه في بعض اقواله من جهة اخرى .

قضية المعنى

يشغل الحديث عن المعنى حيزا كبيرا من كتاب "المثل السائر" ، ويبدو فيه احتفال ابن الاثير البالغ بالمعنى وانحيازه التام له ، ولعل لهذا الاهتمام ، وذاك التحيز علاقة بطريقة ابن الاثير في النشر والتي تعتمد كثيرا على حل المنظم ، مما يستدعي التركيز على المعاني وتقصيها اينما وجدت .

وفي هذا الحديث يعرض ابن الاثير للخصائص الذاتية للمعنى ومنها الطرافة والوضح والبعد عن التعقيد ، وكذلك لما يكتسبه المعنى من صفات في سياق الكلام ومنها التناسب والترتيب وارتباط المعاني بعضها ببعض ، والتنوع والتفوية ، ولم يغفل - في اثناء ذلك - الاشارة الى علاقة المعنى بالنحو ، وبالصورة الشعرية ايضا .

ولكن هاجسه القوي في ذلك كله هو الطرافة او الابتداع والغرابة في المعنى فهو يركز تركيزا شديدا على هاتين الصفتين ، ويمضي في تتبعهما في المعاني وفسي ملاحظتهما بالحاح ملحوظ ذاهبا الى ان باب الابتداع لم يخلق في وجه من يجتهد في بلوغه ، وانه لا تزال " في زوايا الافكار خبايا وفي ابكار الخواطر سبايا " (١)

وفكرته عن الابتداع واضحة فهو ما "يبتدعه مؤلف الكلام من غير ان يقتدى فيه
 بمن سبقه ، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتنبه له عند الامور
 الطارئة" (١) وهو نوعان : ما يمتدى فيه الى المعنى المخترع بسهولة بسبب شاهد
 حال حاضرة ، وما يستخرج منه من غير شاهد حال متصورة وهو اغز طلبا من الاول "وليس
 يقوم به الا الفذ" (٢) لانه يعتمد الذهن والفكر المجرد ، وهذا النوع هو المفضل
 لدى ابن الاثير ومن ثم فانه لا يعجب بقول ابي نواس :

تثار علينا الراح في عسجدية	حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتها كسرى وفي جنباتها	مها ثورتها بالعشي الفوارس
فللراح ما زرت عليه جيوبها	وللما ما دارت عليه القلائس

١ - المثل السائر ٢ : ٢ ، وقال في الجامع الكبير : ٦٨ " اعلم ان المعاني على
 ضربين : احدهما يبتدعه صاحب الصناعة من غير ان يكون له فيه المام يقتدى به أو رسم
 قائمة في امثلة يعمل عليها ، وهذا الضرب لما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ، ويتنبه له
 عند الامور الطارئة . والاخر ما يحتذيه على مثال تقدم ورسم سبق " قابل هذا بقول العسكري
 في الصناعتين : ٦٩ " والمعاني على ضربين : ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير ان يكون
 له امام يقتدى به فيه أو رسم قائمة في امثلة مماثلة يعمل عليها وهذا الضرب ربما يقع
 عليه عند الخطوب الحادثة ويتنبه له عند الامور النازلة الطارئة ، والاخر ما يحتذيه على مثال
 تقدم ورسم فرط " .

٢ - المثل السائر ٢ : ٢٠

بل انه يضيق ذرعا بعلماء العربية وفي مقدمتهم الجاحظ لاعجابهم بالمعنى في الابيات هذه ، ويرى انهم قد بالغوا في اعجابهم فيحتج قائلا : " ولا اعلم انا ما اقول لهم ، ولا بي سوى ان اقول : قد تجاوز بهم حد الاكثار . . . وفصاحة هذا الشعر عندى هي الموصوفة لا هذا المعنى ، فانه لا كبير كلفة فيه ، لأن ابا نواس ، رأى كأسا من الذهب ذات تصاوير فحكاها في شعره ، والذي عندى في هذا انه من المعاني المشاهدة " (١) . فالمعنى هنا " لا كبير كلفة فيه " وكلام آخر لا غرابة او طرافة ، لانه يعتمد على صورة رآها ابو نواس فوصفها ، ولكن ابن الاثير لا يعني كثيرا بالصورة الشعرية لأنه المقدم عنده هو المعنى ، والمعنى المبتدع الغريب بصفة خاصة ، ولا سيما اذا استخرج من غير شاهد حال " كما في الأبيات :

بين الغوير وبين شطي بارق	بأبي غزال غارلته مقلتي
صهبا كالسك الفتيق لناشق	عاطيته والليل يسحب ذيله
وذو ابتاء حمائل في عانقي	وضمته ضم الكمي لسيفه
زحزحته شيئا وكان معانقي	حتى اذا مالت به سنة الكرى
كي لا ينام على وساد خافق	أبعدته عن اضلع تشنقه

وهو لا يستطيع كم تأثره الشديد واعجابه البالغ بالمعنى في هذا الشعر لأنه من الحسن والملاحاة بالمكان الاقصى ، ولقد خفت معانيه على القلوب حتى كادت ترقص

رقصا والبيت الاخير منه هو الموصوف بالابداع ، وبامثاله أفرت الأبصار بفضل الأسماع . (١)

ويبدو ان الصفدى لا يشاركه في تذوقه هذا ، بل انه يعارضه فيه ذاهبا الى ان المعنى في الابيات هذه ما عابه الناس وخاصة ما جاء في البيت الاخير منها وقد نسبوا هذا القول الى الجفاء ، لانه لا يمكن ان يصدر مثل ذلك عن محب واله فالمعنى هنا فاسد وصوابه في مثل " ابعدت عنه أضلعا تشنقه . "

ويورد الصفدى - في معرض الدعم لقوله - بعض نظم قيل في المعنى الاخير ويختم اعتراضه بقوله " فانظر الى ما استحسنته ومدحه وفضله كيف لورد الناس عليه وعابوه ولعمري انه نقد حسن ومأخذ دقيق وايراد متوجه " (٢) وفي هذا تلميح الى مخالفة ابن الاثير لذوق جمهور الأدباء سواء ممن عاصره او تقدم عليه ، كما هو الشأن في موقفه من استحسانهم لابيات ابي نواس السينية المتقدمة ، وهو ما نفهمه من انكار الصفدى الشديد للموقف المذكور حين يقول " كفى بهذا الرجل - رحمه الله - ان يقول مثل هذا وما اعرف كتابا من أمهات كتب الادب ، الا وقد تضمن ذكر هذه الابيات والثناء عليها ، وحسبك بكلام يثنى عليه ابو عثمان عمرو الجاحظ ، وهو من احذق ائمة الادب ، واعرفهم بما يقول ، وابصرهم بمدارك العقول وقوله في مثل هذا حجة ، وما قرره في الأبيات هو المحجة . (٣) فهذا انكار لعدم اخذ ابن الاثير بأقوال نفر لهم مكانتهم في عالم الادب والنقد ، بل ان احدهم وهو الجاحظ حجة فيه ، وفي هذا الانكار اتهام

١ - المثل السائر ٢ : ٣٠

٢ - نصره الثائر : ٢١٩

٣ - نصره الثائر : ١٩٤

خفي لابن الأثير بالخروج بذوقه عن العرف الذي يراعيه الصمدى في هذا المقام .
وهو لا يكتفي بما أبداه ، بل يستطرد الى التدليل على قيمة الجاحظ الأدبية
والعلمية حين يورد قولا للقاضي الفاضل يعترف فيه بفضل الأخير وفضل مؤلفاته
عليه ولى الكتاب المتأخرين عامة ، وحين ينوه بشغف القاضي بذكر الأديب المعنى -
وذلك في كتاباته ومؤلفاته ، ويعمن في تدليله ، فيجعل من الجاحظ ببيانته إحدى
العلامات المميزة لفضل الأمة الإسلامية على غيرها من الأمم ، قارنا إياه بعمر بن
الخطاب في سياسته . وبعد اقوال أخرى في تقييد الجاحظ ، يعود فيلفت الى
أبيات أبي نواس ويشير الى أن معناها مأخوذ من قول امرئ القيس :

لما استطابوا صب في الصحن نصفه وشجت بما غير طرق ولا كدر

الا ان ابا نواس تعلق على هذا المعنى " واخفاء بما شغل به الكلام من ذكره
الصور المنقوشة إلا أنها سرفة ملحّة " (١) ويتبع ذلك بنماذج شعرية مما قيل
في وصف الخمر وكأسها ، ويختتمها بأبيات من نظمه (٢) . وهو بايراده لتلك
النماذج يعبر ضمنا عن موافقته لابن الأثير في استجاداته للمعاني المبتدعة المبتكرة ،
حيث انه لا يناقشه في نظريته عن المعنى المبتدع عامة ، كما لا يناقشه في
ذلك ابن أبي الحديد الذي لا يعرض لهذا الموضوع بشيء مطلقا ، وهو نفس
موقفه من عدم استحسان ابن الأثير للتعقيد المعنوي .

١ - نصره الثائر : ١٩٦

٢ - المصدر نفسه : ١٩٦ - ٢٠١

فابن الاثير وان الح على المعنى الغريب المبتدع لا يحبذ الاغراق في الغرابة

الى درجة التعقيد والتعمية ، وهو ما ينطبق على المعاطلة المعنوية ومنها :

وما مثله في الناس إلا ملكا ابو امه حي ابوه يقاربه

فهو يرى ان هذا النوع من تعقيد المعنى ينعدم معه المقصود من الكلام اذ المقصود منه * انما هو الايضاح والابانة وافهام المعنى ، فاذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات في الفارسية والرومية وغيرها * (١) . وفي هذا تركيز على وجوب ايضاح المعنى ، وتجنب المنغلق منه الذي هو اشبه بلغة غريبة لا يقدر الانسان العربي على فهمها .

ويبدو ان الصفدى ايضا يؤمن على هذا الرأى ، فانتا لا نعثر له على رد في

هذا الموضوع ولا فيما اورده ابن الاثير في موضوع التناسب بين المعاني .

فقد تحدث ابن الاثير طويلا عن التناسب بين المعاني من حيث مقابلة الشيء

بضده أو بغير ضده (٢) ، والمواخاة بين المعاني وهو * ان يذكر المعنى مع اخيه

١ - المثل السائر : ٢ : ٢٢٩ ، في الجامع الكبير : ٢٣١ يشير ابن الاثير الى ان

الغاني مثل بالبيت نفسه على المعاطلة المعنوية . ومثل الجرجاني في اسرار

البلاغة : ٢٠ بالبيت هذا على تعسف اللفظ .

٢ - المثل السائر : ٣ : ١٥٢ - ١٥٣ ، في شرح النهج : ٢ : ١٥٠ - ١٥٢ ينقل ابن الحديد

آراء ابن الاثير في المقابلة مع الامثلة ويعترض على بعضها مؤكدا انه لا مقابلة الا بين الاضداد

وما يجرى مجراها .

لا مع الاجنبي ، مثاله ان تذكر وصفا من الأوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به ،
فان ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحا في الصناعة وان كان جائزا . (١)
ومن التناسب ايضا صحة التفسير وهو غير ما يقصده المتكلمون من قسمة عقلية ،
وانما هو " ما يقتضيه المعنى ما يمكن وجوده من غير ان يترك منها قسم واحد ،
واذا ذكرت قام كل قسم منها بنفسه ولم يشارك غيره . " (٢)

ومنه اخيرا ترتيب التفسير وهو ان يؤتى في الكلام ببيان مختلفة ، فاذا رجع
اليها بالتفسير قدم المتقدم وآخر المتأخر . (٣) وعلى كل نوع من انواع التناسب هذا
اورد ابن الاثير الحديد من الأمثلة سواء من الآيات القرآنية او الاشعار . ويقف ابن
ابي الحديد من هذا كله عند امثلة ترتيب التفسير ، فلا يعترض منها الا على البيت :

فتى وقف الايام بالسخط والرضا
على بذل عرف او على حد منصل

اذ يصرح بأن ابن الاثير قد سها في ادخال البيت هذا في جملة امثله " لأن

١ - المثل السائر ٣ : ١٥٤

٢ - المصدر نفسه ٣ : ١٦٢ ، وجاء في نقد الشعر : ٧٠ عن صحة التفسير " وهو
ان يتدبى الشاعر فيقطع اساما فيستوفيها ولا يفادر قسما منها " .

٣ - المثل السائر ٣ : ١٧٤ - ١٧٥

الشاعر لما فسر قدم بذل العرف وهو المراد بالرضا وآخر حد المنصل وهو المراد بالسخط ، وهما في صدر البيت على خلاف هذا الترتيب . (١) فهنا لا تناسب في تفسير المعنى ولا ترتيب ولهذا نظير في قوله تعالى " يوم تبيض وجوه وتسود وجوه " فأما الذين اسودت وجوههم اكفرتم بعد ايمانكم " ومن هذا نستطيع القول ان ابن ابي الحديد يؤيد ابن الاثير في وجوب مراعاة ترتيب التفسير لا سيما وانه لا ينقض شيئا مما ذكره الآخر في هذا المعنى .

ويتصل بالتناسب ترتيب المعنى ومنه التدرج ، وقد رأى ابن الاثير انه ينبغي في الصفتين او الصفات المتواردة على شيء واحد ان يتدرج في ذكرها من الأدنى الى الأعلى في مقام المدح ، ويعكس الترتيب في مقام الذم (٢) ، ومثل على الصفتين بالآية : (ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها) موضحا ان وجود المواخذة على الصغيرة يوجب وجود المواخذة على الكبيرة (٣) ، ولكنه لم يلبث ان نقض نفسه فذكر انه وفقا للقياس الذي وضعه لترتيب المعنى عامة - وهو ان " استعمال العام في حالة النفي ابلغ من استعماله في حالة الاثبات " (٤) - ينبغي ان يتقدم ذكر الكبيرة على الصغيرة في الآية المذكورة ، ولكن لما كان " القرآن الكريم احق ان يتبع وأجدر ان يقاس عليه

١ - الفلك الدائر : ٣٠١

٢ - المثل السائر : ٢ : ٢١٠

٣ - المصدر نفسه ٢ : ٢١٣

٤ - المثل السائر ٢ : ٢٠٦

لا على غيره " (١) فانه يقر بتراجعه عن قوله ومقياسه في هذا الموضع خاصة ، لا في الصفات المتعددة ، وقد مثل على التدرج من الأدنى للأعلى منها بقول البحترى :

كالفسي المعطفات بل الاسم مبركة بل الاوتار

كما مثل على اغفال هذا التدرج من قبل بعض الشعراء بقول المتنبى :

يا بدر يا بحر يا غمامة يا ليث الشرى يا حمام يا رجل

وضح ان قانون التدرج يتطلب ان يكون ترتيب البيت على الوجه التالي :

يا رجل يا ليث يا غمامة يا بحر يا حمام ، لان الحمام اعظم الجميع (٢)

ويستقطب هذا الحديث اهتمام كل من ابن ابي الحديد والصفدى ، ولكنهما لا يعرضان بشيء لمقياس ابن الاثير في التدرج ، وانا يحصران مناقشتها في الأمثلة التي اوردها عليه . فيرفض ابن ابي الحديد تأويل الآية المتقدمة على الوجه الذى ذكره زميله ، ويؤكد ان المقصود بكلمتي (الصغيرة والكبيرة) الإحصاء والعدد ، لا المواخضة ، ويدلل على قوله بالاشارة الى الكلام السابق لهذا الجزء من الآية وهو (وضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ..) فهو يدل على تخوف المجرمين من احصاء ذنوبهم وعدها ، ويؤكد ذلك تنمة الآية (إلا احصاها) وهو نص صريح على

١ — المثل المائر ٢ : ٢١٠

٢ — المصدر نفسه ٤ : ٢١٥

الاحصاء والمعد . (١) ثم يتبع قوله هذا بتفسير فقهي منطقي ينتهي منه الى القول بأن المقصود بالآية هو بيان علم الله بكبائر الذنوب وصغائرها مهما كانت ، ومن ثم فليست احداها اولى بالتقديم من الأخرى . (٢) اى ان تلك الآية يحتمل فيها مراعاة التدريج ، وان لم ير ابن الأثير ذلك .

ولا يوافق ابن ابي الحديد الأخير في موقفه من بيت المتنبى المتقدم ، فهو يرى ان المتنبى كان حسن القصد في نظمه لبيته على هذا النحو ، اذ وصف فيه مدوحه بمفتين جليلتين هما السخاء والشجاعة ، وابتدأ بالبحر لانه دون الغمامة مكانة حيث انها اصل نشأته بما تسقطه عليه من امطار ، ويضي ابن ابي الحديد في تعليقه فيقول ان البيت ختم بلفظة - الرجل - لانه جامع للاوصاف المذكورة معا رغم انه انسان من البشر ، وهنا موضع العجب والإعجاب ، واما حلة تقديم السخاء على الشجاعة فلأن الناس يفضلون الأولى على الثانية لأن انتفاعهم بها اكثر ، ومثل هذا المعنى يخفى فيما لو أتى المتنبى ببيته متدرجا كما رسم له ابن الأثير (٣) . ومن ذلك يمكننا ان نستنتج ان ابن ابي الحديد لا يعترض على نظرية ابن الأثير في التدريج ، حيث ان معارضته قامت على ما أورده زميله من تأويل لأمثله .

وبأني الصفدى فيبدي إعجابه بتأويل ابن ابي الحديد لبيت المتنبى الآنف

-
- ١ - الفلك الدائر : ٢٣٦
 - ٢ - المصدر نفسه : ٢٣٦ - ٢٤٠
 - ٣ - المصدر نفسه : ٢٤٦

الذكر مشيراً الى ان المعنى وفقاً لهذا التأويل يكون مطابقاً لبدأ التدرج من الأدنى الى الأعلى في مقام المدح ، ثم يورد تأويلاً آخر منقولاً عن بعضهم ، ولكنه لا يلبس ان يتراجع عنه مصرحاً بأنه " ليس في قوة ما ذكره ابن أبي الحديد ولا حسنه " (١) . وبلغت الى قول ابن الاثير ان الحمام اكبر من البحر ، فيقول ان الاخير لم يحلل قوله هذا ولم يوضح لم كان الحمام اكبر من البحر ، وعلى ذلك فانه - أي الصفدي - يقدم تعليله وهو ان الموت عدم والبحر وجود ، والعدم أعلم من الوجود فهو اعلى منه بهذا الاعتبار فيقدم عليه ، ونظير ذلك الآية (الحمد لله الذي خلق السماوات والارض وجعل الظلمات والنور) فقد قدم الظلمات لانها تعني عدم النور ، ويخلص من ذلك كله الى اهدا " تحفظه ازا " هذا التعليل ، حيث يشير انه بموجب ذلك قد يعتبر البعض بيت المتبني مخالفاً لقاعدة التدرج المذكورة .

ومختم مناقشته بالاستطراد الى التنويه بتمسك بعض الفقهاء من يفضلون الملائكة على الانبياء ، بقاعدة التدرج هذه كما فهموها من الآية (لن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ولا الملائكة ولا المقربون) (٢) وهو ما لا يسلم به لانه يأخذ بمذهب علماء السنة في هذا الموضوع .

وفي هذا الاستطراد من الهلافة الى الفقه ، نلمح تأييد الصفدي لابن الاثير في مبدأ التدرج في المعنى ، رغم ان مناقشته جاءت تكلمة وتأييداً لابن الحديد في موقفه من امثلة الموضوع .

١ - نصره الثائر : ٢٨٨

٢ - المصدر نفسه

ونلمس بعضا من التأزر في مناقشة هذين الناقدين لما ادلى به ابن الاثير في حديثه عن وحدة المعنى وترابطه . فقد دعا هذا الى ان يكون مفتاح الكلام من الشعر والنثر دالا على المعنى في بقية " ان كان فتحا ففتحنا ، وان كان هنا فهنا " وفائدته ان يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به ولم هذا النوع " (١) ووقف عند الرسائل السلطانية فأكد انه من الحذافة ان تجعل التحييدات في مفتحتها مناسبة لمعاني الرسائل تلك ، وان يجعل الدعاء في ابتداءات تلك الرسائل والرسائل الاخوانية ايضا متضمنا من المعنى ما بنيت عليه تلك الكتب . ثم تطرق الى ابي اسحاق الصابي فذكر انه لم يراع ما تقدم في كتبه السلطانية " فإذا أتى بتحميدة في كتاب من هذه الكتب لا تكون مناسبة لمعنى ذلك الكتاب ، وانما تكون في واد والكتاب في واد الا ما قل من كتبه " (٢) واستشهد على قوله هذا بايراد افتتاحية رسالة للمذكور في فتح بغداد وهزيمة الاتراك ، وعقب عليها بقوله " وهذه التحميدة لا تناسب الكتاب الذي افتتح بها ، ولكنها تصلح ان توضع في صدر مصنف من مصنفات اصول الدين ككتاب الشامل للجويني (٣) او كتاب الاقتصار او ما جرى مجراها ، واما

- ١ - المثل السائر ٣ : ٩٦ ، قابل هذا بقوله في الجامع الكبير : ١٨٢ " وذلك ان يجعل مطلع الكلام من الشعر والخطب والرسائل دالا على المعنى المقصود بذلك الشعر او تلك الخطبة او تلك الرسائل "
- ٢ - المثل السائر ٣ : ١١٨
- ٣ - عبد الملك بن عبد الله بن يوسف ، الفقيه الشافعي ، درس وأفى في كل من مكة والمدينة فعرف بامام الحرمين ، بنى له نظام الملك المدرسة النظامية في نيسابور وتولى الخطابة بها وفوضت اليه امور الاوقاف ٩ من تصانيفه - الشامل - في اصول الدين ، والارشاد في الفقه . توفي قرب نيسابور سنة ٤٧٨ هـ . (انظر ترجمته في وفيات الاعيان ٣ : ١١٧ ، وطبقات الشافعية ٣ : ٢٤١ وعبر الذهبي ٣ : ٢٦١ ، وشذرات الذهب ٣ : ٢٥٨)

ان توضع في صدر كتاب فتح فلا " (١) . ومثل على نظرائه ببعض من افتتاحيات رسائله الى جانب بعض من المطالع لعدد من الشعراء .

وهض لنوع آخر من ارتباط المعاني هو التخلص وهو " ان يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينما هو فيه ان اخذ في معنى آخر غيره وجعل الاول سببا اليه فيكون بعضه آخذا برقاب بعض ، من غير ان يقطع كلامه ويستأنف كلاما آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما افترقا فراقا " (٢) وتطرق من استشاده على حسن التخلص الى ابي العلاء محمد الغانمي (٣) ، فذكر ان هذا انكر وجود التخلص في القرآن ، وهو قول فاسد ، لأن في القرآن الكثير من هذا النوع ، كما في ————
ابراهيم والاعراف وغيرها " وبالله العجب كيف يزعم الغانمي ان القرآن خال من التخلص ، ألم يكفه سورة يوسف عليه السلام فإنها قصة برأسها وهي مضمنة شرح حاله مع اخوته من اول امره الى آخره ، وفيها عدة تخلصات في الخروج من معنى السبي معنى " (٤) .

ويبدو ان هذا التعريض بالغانمي وما سبقه من تعريض بالصابي كان حافزا لكل من ابن ابي الحديد والصفدي للتوجه بالرد على ابن الاثير ، فنرى اولهما

-
- ١ - المثل السائر ٣ : ١٠٩
 - ٢ - المصدر نفسه ٢ : ١٢١ ، ويكرر هذا الكلام في الجامع الكبير : ١٨١
 - ٣ - لم اثر على ترجمة خاصة به ، ولا ادري ان كان هوام حفيده المقصود بالترجمة التالية (الغانمي) ، هو جده الاديب محمد بن غانم الغانمي كان من فضلا عصره وشعره مشهور وهو من شعراء نظام الملك . ولد سنة ٤٦٤ (الباب في تهذيب الانساب ٢ : ١٦٦)
 - ٤ - المثل السائر ٣ : ١٣٢ ، وانظر حديث ابن الاثير عن التخلص في الجامع الكبير ١٨٢ - ١٨٣

يتصدى للدفاع عن الصابي دون مناقشة ابن الاثير في تعريفه للتخلص وامثلته عليه
اي في النظرية وتطبيقها ، فيورد كلاما مفصلا يؤكد فيه ان الصابي لم يخل
افتتاحيته من الاشارة الى معنى الرسالة العام ، وبعد ان يسرد الحادثة التاريخية
التي صدر الكتاب فيها ، يأخذ في ربط احداث تلك الواقعة بسجلات الافتتاحية
المذكورة ، مبرهنا بذلك على ان مفتاح الرسالة تلك ملائم في المعنى لقبقتها ،
وغير مناف لمعناها ومعناها (١) ، ومن ثم يكون الصابي قد حافظ على ترابط
المعنى في رسالته ، وفي هذا البرهان تأييد ضمني لنظرة ابن الاثير في ضرورة
مراعاة حسن التخلص في الموضوع الواحد .

ويقف ابن ابي الحديد عند تعليق زميله على مفتاح الرسالة المذكورة فيوضح
انه لا وجه للجمع في التمثيل بين كتابي الشامل والاختصار (٢) لتفاوتهما في
غزارة المادة والمواضيع " والاختصار مقدمه في نحو خمسة كراريس والشامل كتاب
كبير في اكثر من خمسة مجلدات " (٣) ونظير هذا التمثيل بكتاب لغوي صغير كقصص
نعلب ، وكتاب كبير كهذيب اللغة ، وبانعدام التاسب بين الكتابين اللذين استشهد
بهما ابن الاثير يستدل ابن ابي الحديد ان زميله " قد سمع بالكتابين اللذين
سماعا ولم يبرهما عيانا " (٤) وفي ذلك تلميح من طرف خفي الى ان ابن الاثير
لا يلتزم الدقة العلمية في معلوماته احيانا .

-
- ١ - الفلك الدائر ، ٢٩٨ - ٢٩٩
 - ٢ - يذكر ابن ابي الحديد ان هذا الكتاب للغزالي ، ولكنني لم اجد له ذكرا
في مصادر ترجمة المذكور التي وقعت الي .
 - ٣ - الفلك الدائر ، ٢٩٩
 - ٤ - المصدر نفسه ، ٣٠٠

غير اننا لا نعثر على رد لابن ابي الحديد على ما ذكره ابن الاثير
في التخلّص ، ما يوصى الى موافقته له في هذا الموضوع . ويلبس الصفدى جانباً
من موضوع التخلّص حين يقف عند تنديد ابن الاثير بأبي العلا الفانسي ، فيبيد
اعتراضه على هذا التنديد ، غير انه يبيّن اعتراضه على خطأ في نقل اقوال
ابن الاثير ما جعل بعضها يبدو وكأنه جزء من كلام الفانسي ، ومن ثم فإن الصفدى
يقرر ان ما ذكره الفانسي لا يخرج عما قاله ابن الاثير ، وينوه بعد ذلك بأن القرآن
جميعه متعلق بمفهومه ببعض الآخر ، وقد تكلم بعض المفسرين في كتبهم على تعلق
الآية بما بعدها . ويخلص من ذلك الى القول بأن ابن الاثير لم يفهم كلام الفانسي
ولم يعلم قصده " وهو انه اراد التخلّص الذي اصطلح عليه الشعراء " ، وهو ان
يتخلص الشاعر في البيت الواحد من غزل او عتاب او وصف الى مديح . ومثل هذا
لم اعلم انه ورد في الآية الواحدة " (١) . وينهي اعتراضه بالتنديد بتخلّصات
ابن الاثير لا سيما وانه اثبتها بعد تشيله بنماذج مختارة من تخلّصات المتنبي
وابي تمام والبحترى (٢) . وفي كل هذا لا يمس الصفدى من الموضوع سوى بعض
الجوانب الهامشية دون التعرض لصميم الموضوع .

١ - نصره الناصر : ٣٦٢ ، وقابل هذا بقوله في الغيث المسج ١ : ١١٢
" وقد جاء التخلّص في القرآن الكريم في قوله تعالى (وأتل عليهم نبأ
ابراهيم اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون) الآيات الى قوله تعالى :
(فلو ان لنا كرة فنتكلم من المؤمنين) . وهذا تخلّص خلافاً لا بي العلا
محمد بن غانم المعروف بالفانسي ، فإنه انكر وقوع التخلّص في الكلام وفي
القرآن الكريم كثير منه " .
٢ - انظر نصره الناصر : ٣٦٢

وهذا قريب من موقفه ما ذكره ابن الاثير عن المعنى في الافتتاحيات والمطالع ، فهو يقتصر من ذلك كله على الوقوف عند افتتاحيتين اورد هما ابن الاثير من انشائه في معرض التمثيل على موضوعه ، فيبدى استخفافه بالافتتاحية الأولى وما تضمنته ويذكر بأن مؤلفها عاب على الصابي وبعض الشعراء في الافتتاحيات ، ورغم ذلك فإنه لم يحجم عن ايراد مثل هذه الافتتاحية ، والتي لا تدل على معنى بقية الرسالة ، فهي تدل على مطلق الهناء ، بينما غرض الرسالة التهئة بمولود . ثم يقرنها بأمثلة من كلامه وكلام القاضي الفاضل في الموضوع ليتبين القارئ ايها اجود واكثر تطبيقا لما نادى به ابن الاثير . (١)

ويتناول من افتتاحية الاخير الثانية عبارة (وصدق حينئذ قول القائل ان البحر عنصر السحاب) (٢) فيعترض على هذا القول ويرى أنه مخالف للحقيقة اذ كيف يمكن للبحر الملح الأجاج ان يكون عنصرا للسحاب بقطره العذب الفرات ؟ ثم يأخذ في التدليل على خطأ هذا القول فيورد بعضا من الآيات القرآنية التي تشير الى ان الرياح هي سبب نشأة السحاب وليس البحر ، ويورد ايضا بعض اقوال قيلت في علاقة السحاب بالرياح والبحر ، ليمتلي منها الى التنبية " على ان المطر ليس من البحر ، وان البحر ليس بعنصر السحاب ، وغير ذلك يؤخذ من كتب هذا الفن في الطبيعيات " (٣) وواضح ان اعتراضه جاء مناقشة للحقيقة العلمية لعبارة ابن الاثير ، لا للافتتاحية نفسها ، على انه يختم اقواله في الموضوع بتقييم هام

١ - نصره الشاعر : ٣٥١

٢ - المثل السائر ٣ : ١١٢

٣ - نصره الشاعر : ٣٥٤

لافتتاحيات ابن الاثير ، فيذكر ان منها ما هو على بعض من الحسن ولكنها جميعا دون افتتاحيات القاضي الفاضل بكثير . (١) فهو في موقفه هذا كما في التخلص لا يعترض على جوهر الرأي او النظرة وانما على الجزئيات . ولكنه يغفل كلية ما ذكره ابن الاثير في تقوية المعنى ، ولعله اكتفى من ذلك بما اورده ابن ابي الحديد على بعض جوانب الموضوع .

وقد اشار ابن الاثير الى تقوية المعنى ضمن الحديث عن تكريره فأسهب القول فيه مع التمثيل ، وخلاصة رأيه ان التكرير يأتي تأكيدا للمعنى وتثبيتا للفرض المقصود منه . (٢) وما جاء في تمثيله على ذلك الآية (فصيام ثلاثة ايام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة) وذهب الى ان " عشرة " تنوب مناب " ثلاثة وسبعة " مرتين فهي تأكيد لهما وان " كاملة " تأكيد ثالث ، والمراد بذلك كله " ايجاب صم الأيام السبعة عند الرجوع في الطريق على الفور لا عند الوصول الى البلد كما ذهب اليه بعض الفقهاء " (٣) وانغمس اثر ذلك في جدل طويل اشعان فيه بالنطق والنحو والبلاغة لاثبات صحة رأيه وفساد رأى اولئك الفقهاء ، وخلص منه الى اعادة القول بصواب رأيه وهو وجوب صم الايام السبعة فورا فسي الطريق (٤) اي ان التكرير هنا تأكيد لتنفيذ الامر فورا .

وهذا ما لا يقبل به ابن ابي الحديد الذي يرى ان تأويل التكرير هنا

-
- ١ - نصره الثائر ، ٢٥٥
 - ٢ - المثل السائر ٣ ، ٤ ، ٤٩
 - ٣ - المصدر نفسه ٣ ، ٢٠
 - ٤ - المصدر نفسه ٣ ، ٢٠ - ٢٢

وعلى هذه الصورة تأويل ضعيف " لان فحوى كلامه انه يذهب الى ان الامر اذا ورد مجردا عن التكرير لم يدل على الفور . " (١) ثم يورد رأيا لبعضهم ينوه على تحليل منطقي . يذهبون فيه الى ان الامر يقتضي الفورية سواء كرر أم لم يكرر . ويصرح بأنه لا حيلة له في دفع هذا الرأي إلا انه يؤكد ان الآيئة المتقدمة لا تتضمن معه لان المقصود بتلك عشرة كاملة " انما هو نعت الأمور به فقط " (٢) ويتبع ذلك بجدل ينقض فيه جدل ابن الاثير وعلى غرار أسلوبه الى حد ما ، بحيث يبقى التركيز منصبا على الامثلة وتأويلها او تخريجها نحويا (٣) دون البحث في اساس القضية او صلبها .

وقريب من هذا موقفه من تنوع المعنى . فقد تطرق ابن الاثير الى هذا الموضوع في بحثه المستفيض في السجع حين استحس ان يكون المعنى في كل من السجعتين المزدوجتين مختلفا عنه في الأخرى " فان كان المعنى فيهما — " فذلك هو التطويل بحينه . واذا وردت سجتان تدلان على معنى واحد كانت احدهما كافية في الدلالة عليه " (٤) . واستطرد من ذلك الى التعريض ببعض كبار الكتاب لعدم التزامهم بذلك في سجعهم وأورد بعضا من كلام الصابي والصاحب ابن عباد مظهر عدم التنوع في معنى السجعتين المترادفتين منه (٥) . وقرن ذلك ببعض من اسجاعه .

-
- ١ - الفلك الدائر ، ٢٨٦
 - ٢ - الفلك الدائر ، ٢٨٧
 - ٣ - المصدر نفسه ، ٢٨٨ - ٢٩٢
 - ٤ - المثل السائر ، ٢٧٨
 - ٥ - المصدر نفسه ، ٢٨٢

ويأتي رد ابن أبي الحديد دفاعا عن الصابي وتبريرا لطريقته في السجع ،
فيذكر انه في ذلك لم يخرج من تقاليد الكتاب فان " هذه سنة الكتاب وهادتهم
ما زالوا عليها قديما وحديثا " (١) ولذلك تعليلا ، احدهما كون ذلك من باب
سعة العبارة والاقتدار على الالفاظ ، والآخر " أن السجعة الثانية تؤكد معنى الاولى ،
والتأكيد عمدة البيان والكتابة ولذلك احيوا فيها الاطالة " (٢) على ان اولئك
الكتاب انما ساروا في كتاباتهم على هدى من القرآن الكريم ، فهو على ايجازه واختصاره
يتضمن كثيرا من تكرير المعنى في آياته ومنه (قل اعوذ برب الناس ، ملك الناس ،
اله الناس) والتي هي بمعنى واحد . وعلى طريقة المتكلمين والحكما ، يأخذ
ابن أبي الحديد في تأويل معاني الآيات المتقدمة ، وكذلك اسجاع الصابي التي عابها
ابن الاثير ، ليستتج من ذلك كله ان في الاسجاع المذكورة فروقا دقيقة في المعنى
" ومثل هذه التدقيقات الخفية في التأويلات لا يتعذر تحصيلها على من عنده فقه
في موارد هذه الصناعة " (٣) . وفي هذا يبدو ابن أبي الحديد وكأنه لا يكتفي
بالاخذ بالتقليد والعادة ، وانما يحاول ايجاد المصوغات المقتنة لذلك ، متخذا من
القرآن الكريم من جهة ، ومن المنطق من جهة اخرى ، مرتكزا له في نقاشه وجدله ،
على انه ليس في اقواله ما يشير الى رفضه الكلي لنظرية ابن الاثير في تنوع معنى
السجعتين .

١ - الفلك الدائر : ١٧٩

٢ - الفلك الدائر : ١٧٩

٣ - المصدر نفسه

ويكاد ان يكون ايجابيا تماما في موقفه من نظرية ابن الاثير الى علاقة
 المعنى بالنحو فابن الاثير وان كان يؤكد الهمية الاساسية لعلم النحو في علم
 البيان من النشر والنظم حين يراه بمنزلة ابجد في تعليم الخط (١) ، لا يجد
 لمجمل اقسام النحو اهمية فيما يتعلق بالمعنى ، فأكثرها - كالجنم والحال والتمييز
 والاستثناء والمجرورات والمفعولات - غير ضرورية في اصال المعنى الى الافهام ،
 ودليله على ذلك " انك لو امرت رجلا بالقيام فقلت له - قم - باثبات الواو
 ولم تجزم ، لما اختلف من فهم ذلك شي " ، واذا قلت : جاء زيد راقب ، ولم
 تبين اعرابا لما توقف الفهم على نصب الراكب " (٢) ، واما ما يحتاج اليه من
 اقسام النحو في المعنى فهو قلة ومنه تقديم المفعول على الفاعل ، فقد بسبب
 خلوهما من العلاقة الإعرابية التباسا في فهم المعنى كما في " ضرب زيد عمرو "
 بالوقف على الفاعل والمفعول ، فلا ريب انه في هذا الوضع لا بد وان يحصل
 التباس في ايهما الضارب وايهما المضروب ، ومن هذا القبيل الآية " انما يخشى
 الله من عباده العلماء " فهنا ايضا يذهب ابن الاثير الى ان المعنى يتوقف
 على بيان علامة الاعراب في كل من الفاعل والمفعول (٣) ، وهو ما يناقضه فيه
 زميله ابن ابي الحديد .

-
- ١ - المثل السائر ١ : ٤٤
 - ٢ - المثل السائر ١ : ٤٥ ، وقال في الجامع الكبير : ٧ " اما علم النحو فهو الذي
 يستقيم به معاني الكلام وتمان عرى تأليفه عن الانحلال والانقسام ، ولولا ذلك لفسدت
 معانيه واختلت مبانيه فوجب حينئذ على المؤلف بهذا الدليل معرفة النحو
 اذا كان ضابطا لمعاني كلامه ، حافظا لها من الاختلالات " .
 - ٣ - المثل السائر ١ : ٤٥

فهو يرى ان تلك الآيـة معناها فهم بالوقف ويدون اظهار العلامة
الاعرابية فيها ، ويأتي بتعليل فقهي ومنطقي لما يراه فيقول " لاننا لو وقفنا
على الفاعل والمفعول منها لم يحصل التباس لعلمنا ان الله لا يخشى احدا من
العلماء ولا من غيرهم ، فالآيـة تدل بنفسها لا بعلاقة لفظية على انه تعالى
مفعول وان العلماء فاعل " (١) . ومن ثم لا تصلح هذه الآيـة للتشيل على
وجوب التقيد بالاعراب طلبا لفهم المعنى ، خلافا لغيرها ما مثل به ابن الاثير
على نظريته الآنفـة الذكر ، وهو ما نستنبه من عدم تعرض ابن ابي الحديد
لها بالنقض او النقاش ، كما نستج من اكتفائه برده المتقدم على جميع ما
اورده زميله في بحثه لعلاقة المعنى بالنحو - انه يتمشى معه فيما ذهب اليه .

ولكن الصفدى يتخذ موقفا مناقضا لموقف زميله هذين ، حين يبدى انكاره
الشديد لما ارتآه ابن الاثير ، ويندد به بقوة مصرحا ان مثل هذا القول
لا يصدر الا عن " عوام الناس ومن لم يتلبس بالمعرفة ومن لم يرح رائحة العلم " (٢)
وان اية رسالة ادبية لا تراعى فيها قواعد الإعراب تكون موضع سخيرة من قبل
المفغلين فضلا عن العقلاء . ثم يدعم تصريحه بايراد اقوال لبعض الصحابة
والتابعين يحضون فيها على تعلم العربية واتقانها تلافيا للحن الذى هو " نسي
الكلام القبح من آثار الجدرى في الوجه . " (٣) ولا يقتصر على ذلك بل انه
ليعمد الى شي من البالغة في تأكيد اهمية النحو حين يجعله نظيرا للفروض

١ - الفلك الدائر : ٤٢

٢ - نصره الثائر : ٦٦

٣ - المصدر نفسه : ٦٢

الدينية ، ذاكرا ان بعضهم استدل على ان النحو فرض كفاية ، وان البعض الآخر ذهب الى ان الله لا يقبل الدعا اذا لم يكن معريا ، وليس هذا فقط ، بل ان التحديث مع الجهل بالنحو يضاھي في العقوبة الكذب المتعمد على النبي (١) .

ولا يخفف من موقفه الحاد هذا ما ذكره ابن الاثير من ان لبعض اقسام النحو ضرورة في توضيح المعنى - لانه يرى ان النحو بجميع اقسامه وضروره لا غنى عنه في هذا المقام ، ومن ثم فانه يضع قاعدة عامة لعلاقة النحو بالمعنى فيقول " لا يتوصل الى معرفة الغامض الا بعد معرفة الواضح ومن لم يعرف البين لم يعرف العويص ليتنقل في الفهم من الأدنى الى الأعلى " (٢) .
وبكلام آخر : النحو ضروري لتمكين الفهم من الاحاطة بالمعنى سواء كان الكلام واضحا مبينا او غامضا مستغلفا . وفي هذا كله نرى الصدى أميل الى التعميم - دون تحليل او تدليل - سواء في رفضه لرأى ابن الاثير ، او في وضعه هو نفسه لقاعدته المضادة .

وما تقدم يمكننا القول ان النقاد الثلاثة - فيما عدا المسألة الاخيرة هذه - يتفقون في الافكار الاساسية الواردة في مجمل القضية . فقد تناول ابن الاثير المعنى من بعض خصائصه وجوانبه مثل : الطرافة والوضوح وعدم التعقيد والتناسب والتقوية والوحدة والتنوع ، ودم ذلك كله بالامثلة والشواهد ان نظما او نثرا ، ولكن ردود زميليه دارت في معظمها حول بعض الامثلة ، فأبدى ابن ابي الحديد

١ - نصره الفائر : ٦٢

٢ - المصدر نفسه .

اعترضه على التأويل اللغوي والنحوي لقسم منها ، وهرض تأويله الخاص لها ،
كما في : التدرج في المعنى ، وفي التكرير ، وعلاقة المعنى بالنحو ، وتبنى
موقفا دفاعيا عن المايي الذي ندد به ابن الاثير اثناء الحديث عن التخلص
والافتتاحيات وتنوع المعنى في السجعتين ، ودعم الصفدى موقف زميله ابن ابي
الحديد من التدرج في المعنى ، ولكنه عرض بالنقد لبعض افتتاحيات ابن الاثير
من حيث المعنى وتناول الحقائق العلمية ، وأبرز خروج الاخير على الذوق العام
في تقييم بعض امثلة المعاني المبتدعة ، وختم اقواله برفض كلي لنظرية ابن الاثير
في علاقة النحو بالمعنى .

في العلاقة بين اللفظ والمعنى

يقول ابن الأثير : " اعلم أن العرب كما كانت تعتني بالألفاظ فتصلحها وتهذبها فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها ، وأشرف قدرا في نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بألفاظها لأنها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحها وزينوها وبالعوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في النفس وأذهب بها في الدلالة على المقصد . . . فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورفقوا حواشيها وصللوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني " (١) .

ويكرر هذا القول ولكن بإيجاز في موضع آخر فيقول : " فالعرب إنما تحسن ألفاظها وتزخرها عناية منها بالمعاني التي تحتها فالألفاظ إذا خدمت المعاني والمخدم لا شك أشرف من الخادم " (٢) .

ويفيد هذان النكتان أمورا منها ما يراه ابن الأثير من أن المعنى أشرف من اللفظ وأجل قدرا لأنه مخدم واللفظ خادم له ، وأنه لا ينفرد بهذا التصور

-
- (١) المثل المائر ٢ : ٦٥ . وفي الجامع الكبير : ٢٠ قول مماثل مع شيء من التفصيل
(٢) المصدر نفسه ٢ : ٦٩ . قال في الجامع الكبير : ٢٢ " فالعرب إنما تحلّي ألفاظها وتديبها وتوشحها وتزخرها عناية منها بالمعاني التي تحتها أو توصلها بها إلى إدراك مطالبها ، فالألفاظ إذا خدمت المعاني ، والمخدم لا شك أشرف من الخادم " . قابل هذا بقول الجرجاني في دلائل الإعجاز : ٤٤ " ولا سيما ما ذكرت من أنه لا يتصور أن تعرف اللفظ موضعا من غير أن تعرف معناه . . . وأنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتاج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدتها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني وتابعة لها ولا حقة بها " .

ولأنما يسير فيه على هدي من العرب، فهو لا يهتموا بتحسين اللفظ وزخرفته
خدمة للمعنى كي يأتي أوضح غاية، وأقوى تأثيرا في النفس، فالمعنى هو
الغاية وما اللفظ إلا وسيلة لإدراكه .

غير أن ابن الأثير لا يغفل عن تأثير اللفظ والمعنى في بعضهما البعض
لذا نراه يقف عند بعض جوانب هذا التأثير مثل : ١- المناسبة بين اللفظ
والمعنى ٢- والمساواة بينهما ٣- وتوكيد اللفظ للمعنى ٤- وقوة اللفظ
لقوة المعنى ٥- وتغيير المعنى بتغيير الوضع اللفظي ٦- وأثر التكلف فسي
اللفظ على المعنى .

١- وقد عرض ابن الأثير لمناسبة اللفظ للمعنى في حديثه عن الجزل
والرقيق من الألفاظ حين نص على وجوب مراعاة اللفظ للمعنى أو الغرض الذي
يتطلبه " فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد
والتخويف وأشباه ذلك ، وأما الرقيق منها فإنه يستعمل في وصف الأشواق ، وذكر
أيام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك " (١) .
فوصف المواقف الجادة أو العظيمة يتطلب لفظا جازلا ، والمعاني الوجدانية
تتطلب لفظا رقيقا ليحدث تناسب وتلازم بين اللفظ ومعناه . وقد يتأثر
المتلقى بهذا التلازم أو التآلف تأثرا قويا ، فيحدث عنده نوع من التفاعل يرى
بموجبه الكلام وكأنه صور مجسدة " فالألفاظ الجزلة تتخيل لي السمع كأشخاص

عليها مهابة ووقار، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولبين أخلاق ولطافة مزاج^(١) . وهذا نوع من التأثير الإيجابي للفظ على المعنى ، ولكن قد يقابله تأثير سلبي على أولهما حين يؤدي المعنى الى ابتذال اللفظ .

والمبتذل من الألفاظ - كما يقول ابن الأنثري - هو ما فُتِرت العامسة دلالاته من معنى وضع له في أصل اللغة الى معنى آخر^(٢) ، ومنه ما يكره ذكره مثل لفظة الصم في بيت المتنبي .

أذاق الغواني حسنه ما أذقنني وهف فجازاهن عني بالصم^(٣)

فقد غُيِّرت العامة المعنى الأصلي في اللغة للفظ الصم وهو القطع ، الى المعنى الشائع المتداول بينهم^(٣) .

ومنه ما هو غير مستقيم أو مكروه مثل كلمة الظرف ، فهذه اللفظة تتعلق بالنطق خاصة فغُيِّرَتِها العامة عن أصلها اللغوي ، وقد وصف أبو نواس بها الوجه كما وصف بها أبو تمام الخلق ، وكلاهما مخطئ في ذلك "إلا أن هذا

١- المثل السائر ١: ٢٥٢ .

٢- المصدر نفسه ١: ٢٥٤ . وله كلام مشابه مع التمثيل بالبيت نفسه في الجامع الكبير ٤٩ .

٣- المصدر نفسه ١: ٢٥٥ .

غلط لا يوجب في هذه اللفظة قبحا ، ولكنه جهل بمعرفة أصلها في وضع اللغة^(١) . وكأنني باين الأثير يريد أن يقول ، إنه لا يليق بالمعنى الشريف إلا اللفظ الشريف^(٢) ، وإنه إذا فقد التناسب أو التآلف بين اللفظ والمعنى لم يتأت للكلام أن يؤدي الغرض المطلوب على الوجه الصحيح ، وضعفت قوته على الإيحاء أو التأثير النفسي .

ويبدو أن هذا ما يذهب إليه أيضا كل من ابن أبي الحديد والصفدي ، إذ لا يرد لهما نقض لما تقدم به زميلهما ، ولكننا نجد لابن أبي الحديد اعتراضا على تخطئة أبي نواس وأبي تمام في استعمالهما للفظه الظرف على غير أصلها اللغوي . فهو يرى أن هذا الموضع ما اختلف فيه الناس حين ذهب بعضهم الى مثل قول ابن الأثير ، بينما قال البعض الآخر ان الظرف هو الكياسة^{*} . ومعلوم ان الكياسة لا تكون راجعة الى النطق اللساني خاصة ، وعلى كل الأحوال فأبو نواس لم يغلط لأن أداة الظرف وهي اللسان على

١- المثل السائر ١: ٢٥٦-٢٥٧ . وقال في الجامع الكبير: ٥٠٠* وأما الضرب الثاني ٠٠٠ ففيه عيب واحد وهو انه وضع في كلام العرب لمعنى فجعلته العامة دالاً على غيره ، إلا أنه ليس بمستقيم ولا مستكبر ، وذلك كتسميتهم الإنسان ظريفاً إذا كان دمث الأخلاق ، حسن الصورة واللباس ، طيب الريح وما هذا سبيله . والظريف في أصل اللغة بخلاف ذلك ٠٠٠٠* . إذ الظرف يتعلق باللسان لا غير^{*} .

٢- وهو قريب من عبارته في الجامع الكبير : ٢١* فإنه جدير بالمعنى الشريف أن يكون لفظه شريفاً^{*} .

ما يريد جزء من أجزاء الوجه^(١) وكأنما يريد توضيح سلامة موقف أبي نواس من استعمال اللفظة هامة ، بالإشارة إلى جواز اطلاق اللفظ على الكل وإرادة الجزء منه .

ويرى كذلك أن قول أبي تمام " مذهب لا بأس به لأن تهذيب الأخلاق ورياضتها وتسهيل حزنها وتدميته مما يعين على حسن التوصلات المنطقية ، ويؤثر في تلطيف الألفاظ وإصابة الأغراض بهما " . ويدل على رأيه بالإشارة إلى أن النبطي الجافي " لا يكاد يبلغ أغراضه بالكلام ، ويحسن التوصل إلى إدراك ما يرويه بلسانه ، بخلاف من قد خالط وجرب وراهن أخلاقه وهذب نفسه ، فمن هذا الوجه جعل أبو تمام دماثة الخلق مؤثرة في الظرف ، وإن كان عائدا إلى النطق اللساني خاصة^(٢) وكأنه يعني أن هناك علاقة تأثيرية بين الظرف ودماثة الخلق ، يمكن معها اطلاق لفظة الظرف على الخلق ، وإن كان الظرف خاصا بالنطق ، فهو في النهاية يتشعب مع قول ابن الأثير في هذا المقام .

٢ — وعرض ابن الأثير للمساواة بين اللفظ والمعنى حين قال " وأما الذي يجب توحيه واعتماده فهو أن يسلك المذهب القويم في تركيب الألفاظ على المعاني بحيث لا تزيد هذه على هذه مع الإيضاح والإبانة^(٣) . وهو ما

١ — الفلك السائر : ١٢٥ .

٢ — المصدر نفسه : ١٢٦ .

٣ — المثل السائر ٢ : ٢٦٩ . وانظر العبارة بنصها تقريبا في الجامع الكبير :

يتوفر في الإيجاز حيث أنه "دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه" (١).
وتقع المساواة في ضرب من الإيجاز يسمى التقدير "وهو ما ساوى لفظه معناه" (٢).
ومثل الناقد عليه ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأخبار العرب وأقوال
الشعراء ومنها أبيات أبي نواس السينية والتي مطلعها :

"ودار ندامي عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس" (٣).

ولكن قد يزيد المعنى على اللفظ، فيعمد آنذاك إلى حذف المفرد والجملة
من الكلام والإكفاء بدلالة الفحوى على الحذف. وقد جعل ابن الأثير
حذف الجمل ضرباً أربعة هي (٤) : حذف السؤال المقدّر ويسمى الاستتشاف،
والإكفاء بالسبب عن المسبب وبالعكس، والإضمار على شريطة التفسير، وما ليس
بواحد من الأنواع الثلاثة المتقدمة .

١- المثل السائر ٢ : ٢٧٠ .

٢- المصدر نفسه : ٣٣٢ . قال قدامة في نقد الشعر : ٨٤ "ومن أنواع ائتلاف
اللفظ مع المعنى المساواة وهو أن يكون اللفظ مساوياً للمعنى حتى لا يزيد
عليه ولا ينقص عنه وهذه هي البلاغة التي وصف بها بعض الكتاب رجلاً فقال :
كانت ألقاه قوالب لمعانيه أي هي مساوية لها لا يفضل أحدهما على الآخر"
وفي الصناعتين : ١٢٩ ما يماثل قول قدامة هذا .

٣- المثل السائر ٢ : ٣٤٦ .

٤- المصدر نفسه ٢ : ٢٨١ - ٢٨٩ .

وجعل حذف المفردات أربعة عشر ضرباً ^(١) هي كل من : الفاعل ،
والفعل وجوابه ، والمفعول به ، والمضاف والمضاف إليه ، والموصوف والصفة ،
والشرط وجوابه ، والقسم وجوابه ، ولو وجوابها ، وجواب آما ولما ، وجواب إذا ،
والمبتدأ والخبر " ولا " مع ارادتها في الكلام ، والوار .

وأورد على كل ضرب مما تقدم ما يناسبه من الأمثلة والشواهد القرآنية
والنثرية والشعرية .

وتتعدم المساواة حين تزيد الألفاظ على المعاني ، وهو ما يعتبره ابن
الأثير من باب التطويل الذي لا حاجة إليه ، ومنه قول القائل :

" طلوع الشاما بالمطايا وسابق الى غابة من يبتدرها يقدم "

فلان ذكر - المطايا - في صدر البيت " فضلة لا حاجة إليه وهو تطويل بارد
فت " ^(٢) . أما إذا ورد في الشعر ألفاظ زائدة يقصد بها تصحيح الوزن
مثل - لعمري يا صاحبي ، فلا عيب فيها لأن الوزن قد يضطر الشعراء
إلى الاستعانة بها ، ولكنها " إذا وردت في الكلام المنشور فلانها إن وردت
حشوا ولم ترد لفائدة كانت عيباً " ^(٣) ، فهو بذلك يرى أن من عيوب الكلام
احتوائه على ألفاظ لا فائدة لها في معناه أو في تحسين هذا المعنى .

١- المثل السائر ٢: ٢١٥-٣٢٩ . وابن الأثير كلام مائل عن الإيجاز في

الجامع الكبير : ١٢٤-١٤٠ .

٢- المصدر نفسه ٢: ٢٧١ .

٣- المصدر نفسه ٢: ٢٧٣ .

وأما الصفدي فيتناول حكاية أوردها ابن الأثير كمثال على التطويل المعيب فينقد به أولا للاستشهاد بها ، ثم يجعلها نظيرا لرواية الحديث في تطلب ضبط الزمان والمكان ، وهو ما يحتاج إليه بصفة خاصة في الوقائع الغربية * ومثل هذه الواقعة التي أوردها غريبة في الوقوع ، وهي بعيدة في الزمن ، وانفاها غريب . . . ويحتاج مثل ذلك الى ضبط الزمان والمكان والعصر ومن حضر ذلك ، ليكون ذلك قرائن يتمسك بها السامع في الصدق ، والمحافظة على ذلك والنقل له أبعد من الكذب وأنفى للريب^(١) .

ثم يستشهد بمثال من كتاب الأغاني على فائدة التطويل في مواضع معينة . ومنه نستنتج انه وزميلة ابن أبي الحديد لا يعترضان على نظرية زميلهما الثالث ابن الأثير ، ومن ثم جاء اعتراضهما على جزئ ضئيل من أمثله .

ونكاد لا نجد أي رد للصفدي على أقوال ابن الأثير في الإيجاز ، سوى تعليق عام أورده الأول على تمثيل الثاني في مساواة اللفظ لمعناه ، بأبيات أبي نواس السينية المتقدم ذكرها ، ويقول فيه مبينا تناقض موقف ابن الأثير من تلك الأبيات * هنا يحد هذه الأبيات في الطبقة العليا ، . . . ومن قبل أوردها وقال : إن الجاحظ أوردها وعظمها . وهنا وقاها حقها ، وهناك كابر نفسه ،^(٢)

١- نصره الثائر : ٢٩٤ .

٢- يشير الصفدي الى قول ابن الأثير بعد أن أثبت رأي الجاحظ في الأبيات المذكورة : " ولعمري أن الجاحظ عرف فوصف وخبر فشكر والذي ذكره هو الحق " . أنظر المثل السائر ٢ : ٣٤٦ .

وهذا دليل على عدم الإنصاف^(١).

وهو باقتصاره المناقشة على مثل واحد، لا يتمشى مع ابن أبي الحديد الذي يقف عند عدد من أمثلة ابن الأثير على الإيجاز بالحذف، ومنها التمثيل على الإضمار على شريطة التفسير ببيت أبي تمام :

” يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسنته آثام ”

أو كما يروي في بعض النسخ :

” يتجنب الآثام خيفة فيها فكأنما حسنته آثام ”^(٢)

وتأتي مناقشة ابن أبي الحديد في شرح زميله لمعنى البيت بصورته الأولى ورفضه الأخذ بالرواية الثانية، فيخالفه في شرحه، ويثبت ما فهمه هو من معنى البيت^(٣)، كما يخالفه في موقفه من الرواية الثانية، ويخرج المعنى فيها على مذهب بعض المفسرين القائل بأن البيت محمول على القلب وتقديره :
” كان آثامه حسنة ” وبعد تفسير المعنى المقلوب والتبويه بأن القلب يأتي في الكلام كثيراً وإن في القرآن شيء منه، يؤكد صحة الرواية الثانية بقوله ” فالرواية التي أفسدها وزعم أنها لا تصح صحيحة غير منكورة ”^(٤).

١- نصرة الثائر : ٢٩٦ .

٢- المثل السائر ٢ : ٢٨٧-٢٨٨ .

٣- الفلك الدائر : ٢٧٦ .

٤- المصدر نفسه : ٢٧٧ .

وواضح ان الاختلاف إنما هو في فهم معنى المثال ، لا في مدى مطابقتها للنظرية ، وفي مناقشته لأمثلة ابن الأنير على حذف الجمل والمفردات ، ويعتمد ابن أبي الحديد القواعد النحوية ، ويطبق ما جاء في تلك الأمثلة عليها ، ويفرض التمثيل على حذف الجمل بآيات معينة من سورة النحل ^(١) ويرى أنه لا حاجة إلى حذف وإضمار فيها ، لأنه يمكن تخريجها على وجهين في النحو ، ويثبت بموجبها ان التقدير في الآيات يعني عن الحذف وهو ما فعله في هذا الموضع ^(٢) .

ومما مثل به ابن الأنير على حذف الفاعل الآية " كلا إذا بلغت التراقي " وقد استدل بها على جواز حذف الفاعل خلافا لما نص عليه ابن جنى من عدم جواز ذلك ^(٣) . فيأتي ابن أبي الحديد ويؤيد الأخير في موقفه قائلا " إن البصريين كلهم قد منعوا حذف الفاعل لقاعدة مقررة عندهم وهي ان الفاعل ينزل منزلة جزء من الكلمة " ^(٤) . ثم يورد أربعة وجوه يستدل بها على تنزيل الفاعل منزلة جزء من الكلمة ، ومن ثم لا يجوز حذفه ويختم نقاشه بقوله " إن قوة العلم بالفاعل في بعض المواضع تفهم مقام ذكره أو ذكر ما يدل عليه " ^(٥) .

١- أنظر في ذلك المثل السائر ٢: ٢١٤ .

٢- الفلك الدائر : ٢٢٨ .

٣- أنظر المثل السائر ٢: ٢١٦ .

٤- الفلك الدائر : ٢٢٩ .

٥- المصدر نفسه : ٢٨٠ .

وفي الآية تلك الفاعل معلوم دون ذكره وهي النفس . ويجدر الإشارة هنا إلى أن ابن الحديد أثبت في رده الآية (حتى توارت بالحجاب) بدلا من الآية موضع البحث ، والمرجح أن يكون ذلك سهوا ، سيما وأن تقدير الفاعل في الآيتين واحد وهو النفس .

ومضي في تناول أمثلة ابن الأثير من الوجهة النحوية ، فيقف عند قول الأخير إن الفعل قد يحذف لدلالة المفعول عليه كما في (أهلك والليل) بنصبهما معا ^(١) فينقذه قائلا : " ظاهر هذا الكلام أنه انتصب اللفظان بإضمار فعلين ، وهو خلاف ما تقوله النحاة لأنهما عندهم منصوبان بفعل واحد تقديره بادر أهلك والليل ومعناه بادر أهلك قبل الليل " ^(٢) .

ويلين في موقفه من تمثيل زميله على حذف لو بقول الشاعر :

" لو كنت من مازن لم تستج لبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن عن الحفيظة إن ذو لومة لانا " ^(٣)

وذاك حين يقول : " إن هذه المسألة تنبني على أن العامل في المبدل هو العامل في المبدل منه أم لا ، فإن لم يثبت ذلك لم يصح هذا الكلام ، لأنه جاز أن يكون قوله (إذا لقام بنصري) بدلا من قوله (لم تستج لبلي) لأنه في

١- المثل السائر ٢: ٢٩٨ .

٢- الفلك الدائر ٢٨٢ .

٣- أنظر في ذلك المثل السائر ٢: ٣٠٠ .

معناه ، والفعل يبدل من الفعل إذا كان في معناه ٠٠٠٠ وإذا لم يحتج في
البدل إلى تكرير العامل لم يحتج هنا إلى تكرير لو ، فإن لم تثبت هذه
القاعدة فلأن ما ذكره صحيح لا ريب فيه ^(١) ، وبهذا يوضح أنه لعدم
تمكّنه من الجنم في تخرّيج البهت الثاني على نحو آخر وفقا لقاعدة معلومة
في البدل ، فإنه لا يسهه سوى التسليم بصحة التمثيل على حذف لو .

ومن ذلك كلف نرى ان ابن أبي الحديد يتكف في مناقشته على القواعد
النحوية أو اللغوية ، وهو في ذلك يختلف عن ابن الأثير الذي يبدو أنه
لا يأخذ ذلك في اعتباره حين يتحدث عن الوجه البلاغي في مواضعه
ونظرياته المختلفة ، غير أن الاختلاف جاء في الأمثلة لا في النظرية .

٣- وقرب من هذا موقف ابن أبي الحديد من ابن الأثير في تقوية
المعنى ، فقد جعل ابن الأثير من توكيد الألفاظ وتكرارها عاملا مؤثرا في
تقوية المعنى وتشبيته حين قال في توكيد الضميرين : * إذا كان المعنى
المقصود معلوما ثابتا في النفوس فأنت بالخيار في توكيد أحد الضميرين فيه
بالآخر ، وأما إذا كان غير معلوم وهو مما يشك فيه فالأولى حينئذ أن يؤكد

أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه لتقرره وتثبته^(١) . ومن ذلك توكيد المتصل بالمتصل ، والمتصل بالمنفصل ، والمنفصل بالمنفصل ، ومما مثل به على النوع الأول الآية (ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا)^(٢) وعلى الثاني الآية (قلنا لا تخف انك أنت الأعلى)^(٣) ، كما جاء من تمثيله على النوع الثالث قول أبي تمام :

“ لا أنت أنت ولا الديار ديار خف الهوى وتولت الأوطار ”

وقول المتنبي :

“ قبيل أنت أنت وأنت منهم وجدك بشر الملك الهمام ”^(٤)

مع شرح المعنى البلاغي الذي يتضمنه كل مثال .

١- المثل السائر ٢: ١٩٢ . قال في الجامع الكبير : ١٥٥ “ إذا كان المعنى المقصود ظاهرا معلوما قد ثبت في النفوس . ورسخ في الألباب فأنت بالخيار بين أن تؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه وبين أن تقتصر على أحدهما دون الآخر ، لأنك إن وكدت الكلام فيه فقد أعطيت المعنى حقه فإن لم تؤكد الكلام فيه فلأنه لا يحتاج إلى توكيد لبيانه وظهره . وإذا كان المعنى المقصود خافيا ليس بظاهر ولا معلوم فالأولى توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر لتقرره ويكسبه وضوحا وبيانا ” .

٢- المثل السائر ٢: ١٩٣ .

٣- المصدر نفسه : ١٩٤ .

٤- المصدر نفسه : ١٩٧ .

وأما التكرار فقد أشار إليه في حديثه عن التكرير في اللفظ والمعنى وحده عند " هو دلالة اللفظ على المعنى مردداً " (١) . وقد يأتي لمعنى وهو المفيد ، كما يأتي لغير معنى فيكون غير مفيد ، وأما فائدته فلأنه " يأتي في الكلام تأكيداً له وتشبيهاً من أمره ، وإنما يفعل ذلك للدلالة على العناية بالشئ " الذي كررت فيه كلامك ، أما مبالغة في مدحه أو ذمه أو غير ذلك " (٢) . ومما جاء في هذا النوع الآية " يريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون " (٣) .

ومما مثل به على التكرير غير المفيد قول أبي نواس :

" أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامساً "

وقول المتنبى :

" ولم أر مثل جيرانى ومثلى لمثلى عند مثلهم مقام " (٤) .

وقد وصف الأول بأنه بيت سخيف دال على الكنى الفاحش ، كما أن التكرير في الثاني " هو التكرير الفاحش الذي يؤثر في الكلام نقصاً " (٥) .

١- المثل السائر ٤: ٣ .

٢- المصدر نفسه .

٣- المصدر نفسه ٣: ٥٠ . وانظر في ذلك الجامع الكبير ٢٠٤ .

٤- المصدر نفسه ٣: ٢٤-٢٥ . في الجامع الكبير ٢٠٤ . يمثل ابن الأثير بيت

المتنبى دون تعليق .

٥- المصدر نفسه ٣: ٢٥ .

ويبدو أن ابن أبي الحديد لا يقره على رأيه هذا ، فهو يرى أن التمثيل
ببيت المتنبي على التكرار غير المفيد تمثيل غير جيد ، لأنه لم يحدث فيه تكرار
في اللفظ والمعنى حيث أن المتنبي لم يذكر في صدر البيت سوى نفي رؤية
مثله ومثل جيرانه دون أن يبين في ماذا ، فلما اتبعه بعجز البيت أزال ذلك
الابهام ، وعلى ذلك لا يتكرر فيه اللفظ والمعنى " ولكن أول ألفاظه يعطي معنى
مجملًا ، والثاني يعطي معنى مفصلاً وهو شرح ذلك الجمل ، فلم يكن ذلك تكريراً
مشتلاً على إعادة اللفظ والمعنى معاً " (١) . ومن ثم لا ينطبق هذا المثال
على التكرير المذكور ، غير أن ابن أبي الحديد يصرح باستحسانه للأمثلة التي
أوردها ابن الأثير على التكرار المفيد (٢) ، ثم يقف عند هذا الحد في تناوله
لقضية التكرار في اللفظ والمعنى ، مما يوحي بتأييده لما أورده زميله فيها .

ويتناول التوكيد بالضميرين تناولاً نحوياً يبدو في نقاشه للأمثلة ابن الأثير
في الموضوع ، حين يرى أن بيتي أبي تمام والمتنبي (لا أنت أنت) و (قبيل أنت
أنت) لا يصلحان للاستشهاد بهما على توكيد الضمائر " وذلك أن التوكيد ما
لو حذف وبقي المؤكد يبقى اللفظ دالاً على المعنى إلا أنه غير مؤكد له ...
ولو حذف أنت الثانية من بيت أبي تمام أو من بيت المتنبي لخرج الكلام عن
الافادة أصلاً ، وكيف يفيد وهو مبتدأ وخبر وقد حذف الخبر " (٣) . ويدل على

١- الفلك الدائر : ٢٨٥ .

٢- المصدر نفسه : ٢٨٤ .

٣- المصدر نفسه : ٢٢٩ .

قوله هذا بشرحه للبراد من البيتين المذكورين وينتهي من ذلك الى التأكيد بأن المعنى فيهما غير التوكيد " وقد اشتبه على هذا المصنف لا محالة " (١) . ومن ثم فلان هذين البيتين خارجان عن باب التوكيد بالضميرين ، كما تخرج عنه الآية (لم أقل لك انك لن تستطيع معي صبرا) والتي مثل بها ابن الأثير على توكيد المتصل بالمتصل وفي ذلك يقول ابن أبي الحديد " ولكن تمثله بهذه الآية على تأكيد الضمير المتصل فليس من هذا الباب أصلا ، وإنما عدى بالفعل منها الى المفعول بحرف الجر لا غير ، ولو كان هذا توكيدا للضمير لكان قولنا مرتت يزيد تأكيدا للضمير وهذا ما لا يقوله أحد " (٢) . ويخرج من ذلك كله بنتيجة هي انه كان غرض ابن الأثير البحث في علم البيان ، فإنه في توكيد الضميرين لم يخرج الكلام فيه إلا على الاصطلاح النحوي " فلما أراد أن يطبق الآيات والأشعار عليها وقع في الغلط " (٣) . وهذا يشير الى التباين بين نظرية ابن الأثير وتطبيقه عليها دون التعرض للنظرية في حد ذاتها بشي " .

ويخالفه في ذلك الصفدي حين يقف عندما ذكره ابن الأثير من أن بحثه في توكيد الضميرين يختص بالفصاحة والبلاغة فيه ، وهو ما لم يتعرض له النحاة (٤) .

-
- ١- الفلك الدائر : ٢٢٩٠ .
 - ٢- المصدر نفسه : ٢٣٠ .
 - ٣- المصدر نفسه : ٢٣١ .
 - ٤- انظر المثل السائر : ٢ : ١٩١ .

فيؤكد ان معظم نحو الأئمة النحويين المتقدمين هو معان وبيان، وان أكثر ما
دقن في علم المعاني مذكور في كتبهم، ولكن عندما جاء عبد القاهر الجرجاني
جرد ما ليس بإعراب وجمعه ودونه مرتبا ومبثيا فصار علما منفردا، وتنبه علماء
البلاغة من بعده لهذا فساروا على نهجه^(١)، ومن ثم قلن من لا يعرف النحو
جيدا لا يستطيع طرق الأبواب البلاغية في أبحاثه، والدليل على ذلك الزمخشري
فهذا " لما كان عارفا بالنحو تيسر له في تفسيره ما لا تيسر لغيره، وهاقتداره
على الإعراب والنظر في أسرار العربية وتعليل أحكامها أورد تلك الإشكالات
وأجاب عنها تلك الأجوبة المرفقة "^(٢) وأصبح بكتابه "الكشاف" مرجعا لعلماء
العربية والتفسير .

ويجعل الصفدي انفصال البلاغة عن النحو واللغة نظيرا لانفصال الفقه عن
الحديث فكما أفرد أبو حنيفة الفقه عن الحديث وتبعه في ذلك الفقهاء — بحيث
أصبح علما منفصلا — كذلك أفرد علم المعاني والبيان عن النحو وجعل علما
مستقلا بنفسه^(٣)، وهو يعنى بتوضيحه هذا ان صلة النحو بالبلاغة أوثق وأقوى
ما يراه ابن الأثير وان النحو والبلاغة متلازمان لا منباينان، وخاصة في بعض
ما عرض له زميله هذا مثل تأكيد الضميرين حيث كان مما مثل به على الموضوع
الآية (قالوا يا موسى أما أن تلقى ولما ان نكون نحن الملقين)^(٤) فقد التقط

-
- ١- نصره الثائر: ٢٨١-٢٨٢ .
 - ٢- المصدر نفسه : ٢٨٢ .
 - ٣- المصدر نفسه : ٢٨٤ .
 - ٤- المثل السائر ٢: ١٩٢ .

الصفدي الآية هذه وبدأ في نقاشه للتمثيل بها بقوله : " ظهرت فائدة ما
قررت أنا من أن المعاني والبيان جزء من النحو ، وإذا خرجا عن القواعد
النحوية ، خبط قائلهما خبط عشواء " والدليل على ذلك أنه قرر في القاعدة
التي له أن المعنى إذا كان ثابتا في النفس ، فأنت مخير في تأكيد أحد
الظهيرين بالآخر " (١) ثم نفى أن تكون هذه القاعدة مطلقة لأن التأكيد هو
التكرار ومن شرط هذا أن يتم المعنى بدونه والأمثلة على ذلك كثيرة ، على
أنه قد يتكرر الضمير ولا يجوز حذفه كما في قوله تعالى (وقلنا يا آدم اسكن
إنت وزوجك الجنة) لأن أحد الضميرين مقدّر وجوبا في فعل الأمر اسكن .
ولتعليل ذلك أورد الصفدي أقوال بعض كبار النحاة ومنهم ابن مالك صاحب
الألفية ، وخلص من ذلك كله إلى القول بأن هذا لا ينطبق على الآية
المذكورة آنفا . ثم طرأ بعض التراجع على موقفه حين صرح بأن آيته التي
أتى بها ليست من باب التوكيد ، وإنما يستشهد بها على عدم جواز العطف
على الضمير المستتر ، ولكن هذا كله لم يمنعه من القول أن عبارة ابن الأثير
في تقرير قاعدته لا تنفي بالقصد و " نحتاج إلى أن تكون محكمة غير موهمة " (٢)
ولا تعرضت للنقص والاعتراض . فهنا أيضا أحال الصفدي ما مثل به زميله على
القواعد النحوية غير عابى بقصده البلاغي .

١ - نصرة الثائر : ٢٨٥ .

٢ - المصدر نفسه : ٢٨٦ .

ولكنه يفارق النحو في مناقشته لتمثيل ابن الأثير على التكرير في اللفظ
والمعنى ، فهو يقتصر على الوقوف عند بيت أبي نواس :

” أقمنا بها يوما ويوما وثالثا ويوما له يوم الترحل خامس ”

فيرفض ما ذكره زميله من أن مراد الشاعر هو الإقامة أربعة أيام ، وأن
التكرير في البيت عيب فأحش (١) ، ويشير الى أن بعض المتأدبين ذهب الى
كون الإقامة أسبوعا ثم يؤكد ان البيت كما ورد يراء صاحب الذوق أحسن من
القول : أقمنا بها أسبوعا على إيجاز القول هذا . ويستدرك فيقول إنه حتى
لو سلم بقول ابن الأثير من جهة الإقامة ، فإن التكرار في البيت قصد به معنى
لا يوجد إلا فيه ” وهو ان المقام في هذه الحالة مقام وصف لأيام قطعها في
لذة فأخذ يعددها أفرادا غير جملة ويقول : أقمنا بها يوما ويوما كالمتلذذ
بهيئة كل يوم استحضرها في ذهنه . . . وهذا أمر متعارف في الخير والشر ” (٢)
ومن هذا قول الشاعر :

” سقى الله نجدا والسلام على نجد ويا حبذا نجد على النأي والبعد ” .

١- انظر في ذلك المثل السائر ٢: ٣٤٦ .

٢- نصره النائر : ٣١٥ . وقال في الغيث المسجم ١: ١٧١ ” قلت أبو نواس أجل قدرا
من أن يأتي بهذه العبارة لغير معنى طائل وهو له في مثل هذا مقاصد
جلية يراعيها ومذاهب يسلكها وأما معنى البيت فإن المفهوم منه أن المقام سبعة
أيام لأنه قال وثالثا ويوما أي آخر له اليوم الذي رحلنا فيه خامس . وابن الأثير
لو أمعن الفكر في هذا ربما كان يظهر له ” .

حيث كرر الشاعر لفظة نجد تلذذاً بذكرها وتحرقاً بالشوق اليها (١).

فالإختلاف هنا ناجم عن كيفية تذوق كل من الناقدين للبيت ، وحسب هذا التذوق حكماً على سلامة التكرير فيه أو فساد ، وغير أنه يمكن القول انه في إشارة الصفدي إلى ما يضيفه التكرير الى معنى البيت ، تأكيد على اتفاقه مع ابن الأثير في ان التكرار يقوى المعنى ويثبته .

٤- ويبدو انه يتفق معه أيضاً فيما أورده هذا من آراء ونظرات حول قوة اللفظ لقوة المعنى ، فإنه لا يورد عليه شيئاً في هذا الموضوع .

وقد نوه ابن الأثير في هذا الباب بتأثير تغير وزن اللفظ او صيغته على المعنى فقال " أعلم ان اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل الى وزن آخر أكثر منه فلا بد من ان يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً ، لأن الألفاظ أدلة على المعاني ، وأمثلة للإبانة عنها ، فلذا زيد في الألفاظ أوجهت القسمة زيادة المعاني ، وهذا لا نزاع فيه لبيان ، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة " (٢) .

١- نصرة الثائر : ٣١٥ .

٢- المثل السائر ٢ : ٢٥٠ .

غير أن الزيادة في الألفاظ لا توجب زيادة في المعاني إلا إذا تضمنت معنى الفعلية ، كإسم الفاعل ، والمفعول ، والفعل نفسه ، فالفعل خشن دون اخشوشن ، وكذلك اقتدر أبلغ وأقوى في المعنى من قدر ، كما أن وزن فعال يدل على كثرة صدور الفعل خلافا لفاعل الذي لا يدل على الكثرة ، ومن ذلك ثواب وثقار ، لأنهما يفيدان كثرة الثوبة والمغفرة وتكررها من الفاعل (١) . ولكن قد يأتي هذا الوزن في مقام النفي فينعكس المعنى إلى ضده ، ومن ذلك لفظة حَيَّاد ، فقد وردت منفية في البيت :

” ومحش حرب مقدم متعرض للموت غير مكذب حَيَّاد ”

وقصد الشاعر بها المبالغة في وصف شجاعة الرجل ، فنعكس النفي قصد به حيث أصبحت تدل على الجبن لأنه إذا ” كان هذا الرجل غير حَيَّاد كان حائدا أي وجدت منه الحيدودة مرة واحدة ، وإذا وجدت منه مرة كان ذلك جهنا ولم يكن شجاعا والأولى أن كان يقال : غير مكذب حائد ” (٢) .

وأما من حيث تغير صيغة اللفظ فلان ابن الأثير يرى أن ” قوة اللفظ لقوة المعنى لا تستقيم إلا في نقل صيغة إلى صيغة أكثر منها ، كنقل الثلاثي إلى الرباعي ” (٣) ، ومن ذلك صيغة فعل مثل قتل الرباعية المنقولة عن الثلاثي قتل ،

١- المثل السائر ٢: ٢٥٢ .

٢- المصدر نفسه ٢: ٢٥٤ .

٣- المصدر نفسه ٢: ٢٥٥ .

فإن الفائدة من هذا النقل هي التأكيد وكذلك يقال في لفظة كَلِمَ بمعنى جرح^(١)، وأما صيغة فعل الرباعية أصلاً مثل (رَتَلَ) فلأنها لا تفيد التأكيد لأن المراد بها أن تكون القراءة على هيئة التأنى والتدبر، وعلى ذلك فإنه يعترض على جمهور علماء العربية لجعلهم لفظة (علم) أبْلَغَ في معنى العلم من (عالم) وهما رباعيتان لا زيادة لإحدهما على الأخرى، بل إنه ليخالفهم مخالفة تامة حين يرى أن عالماً هي الأبلغ لكونها اسم فاعل من فعل (علم) المتعدي، بينما علم اسم فاعل من فعل (علم) الذي هو على وزن اللانم مثل شرف، وكلم. وينتهي من ذلك كله إلى القول وينتهى خفي "ولربما كان ما ذهبوا إليه لأمر خفي عني، ولم أطلع عليه"^(٢).

ويقف ابن أبي الحديد عند هذا القول فيوضح أن العرب لم ينصوا على أن فعلاً للمبالغة ولكنهم نسبوا عليه باستعمالهم آياه خبراً عن الجماعة وأجراً صَفَتْه على المذكر والمؤنث وما جاء منه خبراً الآية (ان رحمة الله قريب من المحسنين) وما جاء منه وصفاً لمؤنث ومذكر قول الشاعر:

"جلون العيون النجل ثم رميننا بأعين أعداء وهن صديق"^(٣)

١- المثل السائر ٢: ٢٥٥/٢٥٦

٢- المصدر نفسه ٢: ٢٥٧. في الجامع الكبير: ١٩٤-١٩٥ يبحث ابن الأثير

بلافة فاعل وفعل، مؤكداً أن فاعلاً أبْلَغَ من فعيل.

٣- الفلك الدائر: ٢٧١.

ويعلّل ذلك من الوجهة النحوية فيقول ان فعلا في هذا الموضع أشبه
بفعل لأنه صفة مثله وثالثه حرف مد ، وقد اخبر بفعل عن الجماعة في الآية
(فلأنهم عدّوا لي إلّا رب العالمين) فهنا عدّوا على صيغة فعل ، وهي تستعمل
أيضا مع المؤنث والمذكر فيقال : امرأة شكور ورجل شكور ، وفي الموضعين استعملت
للمبالغة والكثرة ، أما السبب في هذا الاستعمال فيرجع الى ان فعول على وزن
(فعول) المصدر مثل دخول - وليس بينهما سوى الفتحة والضمة على أولهما .
وبعد أن يستشهد بقول ابن جنى في هذا الموضع ، يختم نقاشه بقوله ان مجي
فعل من أفعال الغرائز لا ينافي وقوعه للمبالغة (١) .

ويكتفي بما ذكره ابن الأثير في قوة اللفظ لقوة المعنى بالوقوف عند بعض
الأمثلة ، ومنها لفظة "حياد" فيعترض على شرح زميله لمعناها ويتخذ من القياس
مرتكزا له في نقاشه حين يقول : " فعلى هذا القياس يكون قوله تعالى : (وما
ربك بظالم للعبيد) يقتضي أن يكون دالا على نفي شكر الظلم ، ويكون مفهوم
ذلك وفحواه انه يظلم العباد ظلما قليلا ، كما كان فحوى بيت الشاعر أن هذا
الموتى يجهن نادرا " (٢) . وكذلك يكون معنى قول النبي (صلعم) في علي بن
أبي طالب (كزار غير قرار) انه لا يكثر الفقر بل يقر أحيانا في النادر ، ولم
يعرف عن علي الفرار مطلقا في الحرب .

١- الفلك الدائر : ٢٧١-٢٧٢ .

٢- المصدر نفسه : ٢٦٢ .

ثم يوضح هدف العرب من استعمال صيغة فعال في النفي والإيجاب وكيف أن ابن الأثير لم يتنبه للفرق بين الاستعمالين فيقول : " واعلم أن العرب إذا استعملت هذه اللفظة في النفي فإنهم لا يعنون بها إلا ما يعنون باللفظة فاعل فقط ، ولو شئت أن أذكر من ذلك الأمثلة الكثيرة لذكرتها ، فأما فـ في الإثبات فإنهم قل أن يستعملوها إلا في الكثرة والتكرير كما ذكره هذا الرجل ، وكان الواجب أن يتصفح كلامهم ويفرق بين استعمالهم لها نفياً واستعمالهم لها إثباتاً " (١) .

وهذا يبدي موافقته على جانب ما أورده زميله في استعمال صيغة فعال ويرفض جانباً آخر منه وهو ما يختص بشرح المثال المتقدم .

ونرى له مثل هذا الموقف المتراجح بين الموافقة والمخالفة في مناقشته ليقول ابن الأثير أن صيغة فعل من الثلاثي تعطي معنى التكرير والقوة ، فهو يعترض على هذه القاعدة ويرأها غير مطردة ، فقد يأتي الثلاثي بالتخفيف والتشديد دون اختلاف في المعنى كما في (قصر من الصلاة وقصر منها) ، ولا يبدي اعتراضاً على قول زميله أن الفعل المشدد الرباعي أصلاً لا يدل على الكثرة كما في (كلم) ولكنه يرى أن التمثيل بلفظة (رتل) لا ينطبق على القاعدة هذه لأن لها صيغة ثلاثية (٢) .

١- الفلك الدائر : ٢٦٨ .

٢- المصدر نفسه : ٢٦٩-٢٧٠ .

هـ - وينفرد ابن أبي الحديد أيضا في الرد على ابن الأنير في رأيه حول تغير المعنى بتغير الوضع اللفظي في الكلام ، وقد أشار الأخير الى هذا في حديثه عن التقديم والتأخير . فذهب إلى أن تقديم اللفظ أحيانا يجعل المعنى أبلغ ، ومن ذلك تقديم المفعول على الفعل ، والخبر على المبتدأ ، والظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل ، إذ يتضمن الكلام حينئذ معنى الاختصاص^(١) ، وقد يأتي تقديم المفعول على الفعل لتغيير معنى الاختصاص كما في كثير من الآيات القرآنية ، فإن التقديم فيها يرد مراعاة لحسن نظم الكلام " وذاك أن يكون نظمه لا يحسن إلا بالتقديم ، فإذا آخر المقدم ذهب ذلك الحسن ، وهذا الوجه أبلغ وأؤكد من الاختصاص^(٢) . وهذا يخالف ابن الأنير الزمخشري في قوله إن التقديم في الآية (إياك نعبد وإياك نستعين) قصد به الاختصاص ، ذاهبا إلى أن المقصود به مراعاة "حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون ، ولو قال : نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن ، وهذا غير خافي على أحد من الناس فضلا عن أرباب علم البيان^(٣) .

١- المثل السائر ٢: ٢١٧ . قال في الجامع الكبير: ١٠٩ " اعلم ان التقديم والتأخير... على ضربين : أحدهما يكون التقديم هو الأولى والأبلغ لموضع الاختصاص ، والآخر يكون التأخير هو الأولى والأبلغ ؛ إما الفائدة تقتضي ذلك ، وإما خوفا من فساد المعنى واختلاله) .

٢- المثل السائر ٢: ٢١٨ .

٣- المصدر نفسه ٢: ٢١٩ .

وأما في قوله تعالى (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) فقد قدم خبر
الابتداء عليه لأنه كان أهم عنده * وفي ذلك ضرب من التعجب والإنكار لرغبة
إبراهيم عن آلهته وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها ، وهذا بخلاف ما لو
قال : أنت راغب عن آلهتي * (١) .

ورأى أيضا أن تقديم الظرف أولى من تأخيره في حالة الكلام المنبث وفائدته
إسناد الكلام الواقع بعده الى صاحب الظرف خاصة كما في قوله تعالى (إن علينا
لإياهم ثم إن علينا حسابهم) ، وأما تقديمه في حالة النفي كما في الآية (لا
فيها غول ولا هم عنها يترفون) فإنه يفيد تفضيل المنفي عنه على غيره (٢) .

ورأى أخيرا أن تقديم الحال في (جاء راكبا زيد) يشير الى عدم احتمال
كون زيد غير ذلك أي غير راكب ، ويجري الاستثناء هذا المجرى في مثل (ما
قام إلا زيدا أحد) (٣) .

قلنا ينفرد ابن أبي الحديد أيضا في الرد على هذه المسألة ، وهو لا
يناقش ابن الأثير في القول بأن تقديم اللفظ في التركيب يؤثر على المعنى ،
 وإنما يفند شرحه للمعنى الحاصل بعد التقديم ، فيرفض أن يكون تقديم المفعول

١- المثل السائر ٢: ٢٢٢ .

٢- المصدر نفسه : ٢٢٦ .

٣- المصدر نفسه . وله كلام مماثل في الجامع الكبير : ١٠٩ - ١١٢ .

على الفعل دالاً على الإختصاص كقاعدة مطردة ، فإن من الإختصاص ما يفهم من سياق الكلام أو القرينة كما في الآية (بل الله فاعبد) إذ تقدمها من الكلام المنزل ما يصرح بالإختصاص ، ولو قال في هذا السياق (بل اعبد الله) لآفاد الإختصاص لا محالة ، فلا تأثير هاهنا في الإختصاص المعلوم ، لا لتقديم المفعول ولا لتأخيره (١) .

ولكنه يأخذ بقول الزمخشري بالإختصاص في الآية (إياك نعبد وإياك نستعين) حين يقول " ان كان تقديم المفعول يقتضي الإختصاص كما يراه الزمخشري وجماعة من أهل العربية ، فلا مانع من أن يكون المراد من قوله ... كلا الأمرين : الإختصاص والسجع ولا منافاة بين هذين المطلبين " (٢) .

ويرفض أن تكون الآية (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) من باب تقديم الخبر على المبتدأ " لأن قوله (أراغب) اسم فاعل معتمد على همزة الإستفهام فيكون قوله (أنت) في موضع رفع بالفاعلية إلا على القول الضعيف المتروك " (٣) . وقد أورد قوله هذا ضمن جدل طويل ناقش فيه معنى الآية المتقدمة ومعظم أمثلة ابن الأثير في الموضع ، مرتكزا على القواعد النحوية في نقاشه هذا .

١- الفلك الدائر : ٢٤٧ .

٢- المصدر نفسه : ٢٤٧-٢٤٨ .

٣- المصدر نفسه : ٢٥٥ .

وأما فيما يختص بتقديم الظرف فإنه يرى انه لا يفيد الاختصاص مطلقا ،
وأن في الآية التي مثل بها زميله على ذلك ، أفادت القرينة الكلامية الاختصاص
لا مجرد الصيغة ^(١) . ويرفض تفسير زميله لتقديم الظرف في حالة النفي كما
في الآية (لا فيها غول) فيقول : " وليس تفسير هذا الرجل لقوله تعالى (لا
فيها غول) بأن المراد تفضيلها على الخمر التي فيها غول بأولى من أن
تعكس القضية عليه ، ويفسر نحو قوله تعالى (لا لغو فيها) بأنه يدل على
تفضيلها على خمر الدنيا التي فيها اللغو والتأثم فيجعل حرف النفي إذا
باشر النفي وتأخر الظرف دالا على الأفضلية ، وإذا تقدم الظرف دالا على
النفي المطلق على مناقضة ما ذكره ، فإنه لأفضل بين القولين إلا مجرد التسمي
والتحكيم . ^(٢) .

كما يرفض ان يكون تقديم الحال يفيد الاختصاص ويرى أن " هذا لغو من
القول " ^(٣) . ويرى انه لا فرق في الاختصاص بين تقديم المستثنى وتأخير
ولكن إن " كان هذا الرجل بذوقه وحسه قد تغطى لاختصاص زائد على هذا
المعنى عند تقديم المستثنى لا يؤخذ عند تأخيره ، فهذا الرجل قد أدرك ما
غفل عنه الأولون والآخرون ، ورزق حسا وذوقا وقف بهما على ما لم يقف عليه غيره ،

١- الفلك الدائر : ٢٥٨ .

٢- المصدر نفسه : ٢٦٠ - ٢٦١ .

٣- المصدر نفسه : ٢٦١ .

ولا كلام لنا مع من هو بهذه الصفة ، وإنما نتحدث مع أمثالنا وأشكالنا ، وأما من ترقى إلى طبقة أخرى فلأن أمره يجلّ عن ذلك* (١) .

ومنه يتضح أن ابن أبي الحديد لا يكفي برفض معظم أقوال ابن الأثير في التقديم اللفظي وأثره على المعنى ، وإنما يتناول موقفه مجملاً بتعليق متهم ساخر ، يوصي فيه إلى خروج زميله على آراء الأولين والآخرين ، وتفرد به بآراء يصعب معها التصدي لمناقشته .

ويبدو أن الصفي وجد في ردّ زميله ابن أبي الحديد ما يغنيه عن التصدي للموضوع نفسه ، فلأننا لا نسمع له صوتاً يتردد في ذلك ، ولكنه خلافاً لزميله يتصدى بالردّ على ابن الأثير في حديثه عن علاقة تكلف اللفظ بالمعنى .

٦ - وقد أظهر ابن الأثير نفوره من التكلف في اللفظ وأعمال الصنعة فيه وعلى الخصوص حين يؤدي ذلك إلى ركافة المعنى وهلهلته ، ومثل لهذا النوع من التكلف بما فعله الحريري من إيراد رسالتين تتعاقب في إحداها الكلمات المعجمة والمهملّة ، وتتعاقب في الأخرى الحروف المعجمة والمهملّة (٢) ، وكذلك

١- الفلك الدائر : ٢٦٢ .

٢- أنظر نص الرسالة الأولى في مقامات الحريري : ٦٢ ضمن المقامة السادسة المرافية أو الخيفاء . وتضمنى الثانية الرقطاء ونقصها في المقامة السادسة والعشرين : ٢٥٦ من المصدر نفسه .

بنظم شاعر لقصيدة كل بيت منها أول للبيت الذي يليه ، وعقب على هذا كله بقوله " وهذا الكلام المصوغ مما أتى به الحريري في رسالته وأورده ذلك الشاعر في شعره لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة ، وإنما يأتي ومعانيه غثة باردة ، وسبب ذلك أنها تستكره استكراها وتوضع في غير مواضعها ، وكذلك ألفاظه فلأنها تجرد مكرهة أيضا غير ملائمة لأخواتها " (١) . كما أشار الى نظم شاعر مخربي لقصيدة على شكل شجرة بحيث يقرأ كل بيت منها بطرق مختلفة تبعا لشعب تلك الشجرة ، وعقب عليه قائلا " وكل ذلك الشعر وإن كان له معنى إلا أنه ضرب من الهديان ، والأولى به وبأمثاله ان يلحق بالشعبذة والمعالجة والمصارعة لا بدرجة الفصاحة والبلاغة " (٢) ، وهو قول ينم عن مدى إنكاره واستهجانته لأية محاولة أدبية يتعمد فيها التكلف والتصنع في الألفاظ والصيغة لما يجتره ذلك على المعنى من ضعف وإسفاف .

ويقف الصفدي من هذا كله عند تنديد ابن الأثير برسالتي الحريري ، فيبتر ما فعله بقوله : " إن الحريري — رحمه الله تعالى — لم يأت بما أتى به من هذه الأنواع ، وأدعى أن هذا هو الفصاحة والبلاغة ، وإنما أتى بذلك ليستوب أنواع الأدب ، ويبين للأديب ما يلزمه معرفته ، وكل ذلك دليل القدرة والتمكن " (٣) .

-
- ١ — الحثل السائر ٣ : ٢١١ .
 - ٢ — المصدر نفسه .
 - ٣ — نصره التائسر : ٣٦٩ .

ولكنه يستدرك فيشير إلى أن اتباع مثل هذا النمط في جميع المقامات غير مستحسن، وإن كان لا يثقا ببعضها، كما أنه مكروه ومستثقل في الترسل والخطب لتنافيه مع أغراض الترسل والتي لا يليق بها التكلف. ثم يوضح رأيه في استخدام التكلف والتعمية عامة، حين يذكر " أنه وإن كانت هذه الأنواع في المقامات فينبغي أن تكون كاللمع اليسيرة فإنها إذا كثرت سمجت " (١).

ويمضي في حديثه عن التكلف، فينتوه بأنه قد يأتي الشاعر المجيد بنوع من التكلف لا أثر فيه للكلفة كما في قول القائل :

" لبق أقبل فيه هيف كل ما أملك إن غنى هبه " (٢)

وبعد لإيراد أمثلة شعرية أخرى على هذا النوع من التكلف يذهب إلى أن أقل هذه التكاليف استثقالا ما كان كله مهملًا، بل إنه ليجده غير مستثقل بالمرّة " بل هو خفيف عذب في السمع والقلب كقول الحريري :

" أعدد لحسادك حد السلاح وأورد الآمل ورد السماح " (٣)

ومن ذلك أيضا خطبة للقاضي الفاضل وضعها لدخول العام الجديد وهي

١- نصره الشاعر : ٣٦٩ - ٣٧٠ .

٢- المصدر نفسه : ٣٧٠ .

٣- المصدر نفسه : ٣٧١ .

مهمة كلها وفي غاية الحسن ، فكما يوتى بهذا النوع نظما يوتى به نثرا ويستساغ في كليهما . وينتهي من ذلك كله الى التعريض بابن الأثير فيقول " وأما ابن الأثير فكانه يظن ان الأدب عبارة عن الترسل فقط ، ولم يعلم انه جزء منه وان كان جزءا كبيرا ونوعا جليلا " (١) .

ما تقدم يمكننا أن نتبين وجهة نظر الصفدي في هذا الموضوع ، إنه لا يرى للتكلف تأثيرا سيئا مطردا على المعنى ، فهو وان كان مكروها في النثر والخطب ، إلا ان بعضه يتناسب وبعض الأنواع الأدبية مثل المقامات بل ان منه نوعا لا يعتبره الصفدي تكلفا مطلقا . ومن ثم يبدو الصفدي وكأنه ممن يذهبون الى تأنيق اللفظ وزخرفته وان أدى ذلك الى توهين المعنى ، خلافا لزميله ابن الأثير الذي يرفض أي تكلف اولئحتص أو تعقيد في اللفظ .

ويظل الناقد الثالث ابن أبي الحديد خارج الموضوع نهائيا ، وتظل دوافعه لاتخاذ مثل هذا الموقف السلبي مجهولة ، ولكن لا يبعد ان يكون من بينها تضامنه مع زميله ابن الأثير في موقفه المعادي للتكلف .

ولكن ، فيما عدا هذا الموضوع - يمكننا القول ان النقاد الثلاثة يتفقون في المبدأ ، وتتباين وجهات نظرهم في التفاصيل . وقد رأينا ان ابن الأثير

جعل العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة الخادم بالمخدم ، وتطرق من ذلك إلى بعض جوانب الموضوع مما له تأثير على اللفظ والمعنى ، ومنها : التآلف بينهما من حيث التناسب ، والمساواة ، والتوكيد ، والتقوية ، وتغير المعنى بتغير ترتيب اللفظ في الصيغة ، وأخيرا تأثير التكلف اللفظي على المعنى . غير ان مناقشة زميلنا لهذا كله حامت حول الأمثلة ، من حيث المفهوم ، أو مدى المطابقة للقاعدة او النظرية . وقد تقارب الإثنان الى حد ما في تناولهما للشواهد حين جعلنا من معظمها مسائل نحوية لا بلاغية كما نرى عليه ابن الأثير .

مشكلة السرقات

ينطلق ابن الأثير في حديثه عن السرقات الشعرية من اعتقاد تام بأنه لا فرق بين أخذ النثر من الناظم أو أخذ الشاعر من الشاعر، وعلى ذلك فهو يرى أنه كما ساغ للأول الاستعانة في إنشائه بمعاني المنظوم، يسوغ للثاني أخذ ما يحتاجه من التراث الشعري شريطة أن يعتمد في ذلك "التورية والاختفاء" بحيث يكون ذلك أخفى من سواد الغراب^(١). ولكن الحذاقة في هذا الأخذ لا تقتصر على المهارة في الإخفاء، فلا بد من إضافة نوع من الطرافة والغرابة يبدو معها وكأنه جديد مبتكر لم يسبق إليه أحد. وهذا لا يعني تسليم ابن الأثير بقول القائل إنه لم يبق لمتأخر معنى مبتدع بعد أن سبقه الأولون إلى كل معنى^(٢)، إنه يرى لتطور الظروف المعيشية والحضارية والسياسية أثرا كبيرا في نمو المعاني وتشعبها واحتوائها للزيد من الابتداع والغرابة المعنوية، ومن ثم فإن "باب الابتداع

١- المثل السائر ٣: ٢١٨ وقال ابن طباطبا في هذا المعنى: ٧٧ من كتاب عيار الشعر: "ويحتاج من سلك هذه السبيل إلى الطرافة الحيلة وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها". وانظر ما أورده العسكري في الصناعتين: ١١٨ في المعنى نفسه.

٢- أنظر المثل السائر ٣: ٢١١. وقال في الاستدراك: ٦ "ان اطلاق قول القائل بأن المتقدم أفضل من المتأخر، أو أن أولئك اخترعوا المعاني وابتدأوها فلن هذا قول غير متجه" وقابل هذا بقول ابن طباطبا في عيار الشعر: ٨ "والحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان قبلهم لأنهم سبقوا إلى كل معنى بديع ولفظ فصيح".

للمعاني مفتوح الى يوم القيامة ومن الذي يحجر على الخواطر وهي قاذفة بما
لا نهاية له؟^(١)

إلا أن الخواطر قد تتوارد على معان ظاهرة وتتساوى في إيرادها فلا
يعزى فيها الابتداء للأول دون الآخر ومن هذه المعاني قول القائل في الغزل:

" عفت الديار وما عفت آثارهن من القلوب "

وقولهم " إن الطيف يجود بما يبخل به صاحبه " وكذلك " ان عطاءه كالبحر والسحاب "
وما أشبه ذلك.^(٢)

فالأخذ من المعاني الشائعة المتداولة لا يعدّ سرقة^(٣) وإنما يطلق اسم
السرقة في معنى مبتدع بخصوص مثل قول أبي تمام :

١- المثل السائر ٣: ٢١٩ .

٢- قال في الاستدراك: ٦ " ومن المعاني قسم قد تساوى فيه جميع الشعراء ولا بدّ
لهم من التوارد عليه . . . مثل قولهم في المديح : إنه بحر أو سحاب إذا وصفوه
بالسخاء ، وإنه أسد إذا وصفوه بالشجاعة . . . وأشياء ذلك . . . وقال الأمدى في
الموازنة ، ٥٣ في الحديث عن تداول المعاني " ان كان غير منكر لشاهرين متساوين
من أهل بلدين متقاربين أن يتفقا على كثير من المعاني ولا سيما ما تقدم الناس
فيه وتردد في الأشعار ذكره وجرى في الطباع والاعتقاد من الشاعر وغير الشاعر
استعماله " . وعقد القاضي الجرجاني في الوساطة فصلا في تداول المعاني وعرض
فيه للمعاني المشتركة والخاصة . أنظر الوساطة ، ١٨٢ وما بعدها .

٣- قال أبو هلال العسكري في الصناعتين : ١١٧ " وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون

على تداول المعاني بينهم ، فليس على أحد فيه عيب إلا إذا أخذه بلفظة كله
أو أخذه فأنسده وقصر فيه عن تقدمه " .

"لا تتكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والبأس
قاله قد ضرب الأقل لنوره مثلا من المشكاة والنيسراس"

وقد جاء أبو تمام بهذا التشبيه في مناسبة معينة فكان معنى مبتدعا خاصا به
"فمن أتى من بعده بهذا المعنى أو بجزء منه فإنه يكون سارقا له".^(١) ولكن
هل ثمة دليل يهتدى به في السرقات الشعرية؟ إن ابن الأثير لا يعدم حيلة
في ذلك فهو يذهب الى أن من أدل الدلائل على السرقة ان يورد الشاعر
المتأخر شيئا من ألفاظ المتقدم في معنى من المعاني ولو لفظة واحدة^(٢) ،
فاستعارة اللفظ بل اللفظة الواحدة دليل دامغ على السرقة مهما تحايل الشاعر
على إخفائها من جهة المعنى .

ويقسم ابن الأثير السرقة الى خمسة أقسام رئيسية هي النسخ ، وهو أخذ
اللفظ والمعنى برمتهم من غير زيادة عليه ، والسلخ ، وهو أخذ بعض المعنى
والمنسخ ، وهو إحالة المعنى الى ما دونه ، والرابع : أخذ المعنى مع الزيادة
عليه ، وأما الأخير ، فهو عكس المعنى الى ضده^(٣) . وتتفرع هذه الأقسام فروعها
عدة فيصبح مجمل أنواعها ستة عشر ضربا ، ويتناولها ابن الأثير بشيء من التفصيل
مشيرا إلى أنواع منها يرى أنها تكاد تخرج عن باب السرقة لحسنها ، ومنها
عكس المعنى بطريقة تصبح السرقة معها خفية جدا لا تكاد تدرك ، وأولى بهذا

١- المثل السائر ٣ : ٢٢٠ ، وانظر قول ابن الأثير في معنى هذين البيتين في
الاستدراك : ١٢ .

٢- المصدر نفسه ٣ : ٢٢٢ .

٣- المصدر نفسه . في الجامع الكبير : ٢٤٢ يقتصر ابن الأثير على ذكر النسخ
والسلخ والمنسخ . وانظر بحثه في الأقسام الخمسة للسرقات في الاستدراك : ٦١
وما بعدها .

الضرب أن يسمى ابتداء لا سرقة^(١) ومن السرقات الحسنة : أخذ المعنى وسبكه في عبارة أحسن^(٢) من العبارة الأولى فهذا هو الحمود الذي يخرج به حسنه عن باب السرقة . وكأنه يوصي* الى أن المعنى المسبوق إليه يصح من حق الشاعر المحدث إذا أخذه فأخفاه في حذافة أو تفوق في صياغته ونظمه على من أخذه منه^(٣) .

ويقف وقفة طويلة عند ضرب من السلخ يسميه "اتحاد الطريق واختلاف المقصد"^(٤) أي اتفاق الشعارين في التوارد على معنى أو غرض واحد واختلافهما في كيفية تناوله وصياغته ، والهدف من بحثه في هذا الضرب هو المفاضلة أو الموازنة بين شاعرين ، لا في بيتين منفردين وإنما في قصيدتين متكاملتين ، وقد طبق نظريته هذه على قصيدتين للمتنبى والبحتري في وصف الأسد^(٥) ، وخرج من المفاضلة

١- المثل السائر ٣ : ٢٤٥ . وقريب منه قوله في الاستدراك : ٦٥ " وهذا حسن ، لا بل هو أحسن المآخذ والطفها " .

٢- المصدر نفسه ٣ : ٢٥٤ . وفي الاستدراك : ٦٨ يذكر هذا النوع دون تعليق .

٣- نظير هذا قول ابن طباطبا في عيار الشعر : ٢٦ " وإذا تناول الشاعر المعاني التي قد سبق إليها فأبرزها في أحسن من الكسوة التي عليها لم يحب بل وجب له فضل لطفه وإحسانه فيه " . وقول أبي هلال العسكري في الصناعات : ١١٢ " ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده أجود من لفظه كان هو أولى به ممن تقدمه " .

٤- المثل السائر ٣ : ٢٦٥ . وفي الاستدراك : ٧٠-٧٣ يذكر هذا الضرب ويفاضل بين البحتري والشريف الرضي في وصف الذئب .

٥- انظر المثل السائر ٣ : ٢٨٥ - ٢٨٦ . قابل هذا بما ورد في الموازنة ١ : ٧ " ولكي أقارن بين قصيدة وقصيدة إذا اتفقتا في الوزن والقافية وأحزاب القافية ، وبين معنى ومعنى ، ثم أقول أيهما أشعر في تلك القصيدة وفي ذلك المعنى ، ثم أحكم أنت حينئذ على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علماً بالجيد والردى " .

بينهما بأن البحري "وان كان أفضل من المتبى في صوغ الألفاظ وطلاوة
المسبك، فالمتبى أفضل منه في الغوص على المعاني" (١) . وإذا استرجعنا
في أذهاننا أن ابن الأثير يؤثر المعنى على اللفظ، استطعنا القول أن حكمه
جاء في جانب المتبى .

ولا يقتصر على المفاضلة بين المعنيين المتفقين، وإنما يرى إمكانية التفضيل
بين المختلفين، وإن كان هذا أصعب من الأول (٢) ، وعلى ذلك فإنه يرفض ما
ذهب إليه البعض من منع المفاضلة بين المعنيين المختلفين "فإنه لو كان ما
ذهب إليه هؤلاء من منع المفاضلة حقاً لوجب أن تسقط التفرقة بين جيد الكلام
ورديته وحسنه وقبيحه وهذا محال" (٣) . فالمعول كله على الأصل الذي تقع
المفاضلة فيه سواء اختلفت المعاني أم اختلفت، ويختم كلامه في هذا الموضع بالإشارة
إلى تأليفه لمقالة مفردة ضمنها الحكم بين المعنيين المختلفين، وأقام الدليل
على ما نزع عليه، إلا أنه لم يوردها في المثل السائر لأنه ألفها بعد تداول
الناس للكتابة (٤) . وفي هذه الإشارة تأكيد لنظريته في المفاضلة بين المعاني
المختلفة .

-
- ١- المثل السائر ٣: ٢٨٧ .
 - ٢- المصدر نفسه ٣: ٢٦٦، ويؤكد رأيه في الاستدراك : ٥٨ .
 - ٣- المصدر نفسه : ٢٧٠ .
 - ٤- المصدر نفسه : ٣٨٦ . قال في الاستدراك : ٦٠ "وقد صنفت كتاباً وسميته "بالرسالة
في المعاني المبتدعة" وأشرت فيه إلى المفاضلة بين الكلامين المختلفي المعنى وحقت
القول في ذلك فليؤخذ من هناك" .

غير أن الآراء هذه لا تجد صدق لدى ابن أبي الحديد ، فهو يغفل أمرها كلية ولا ندري هل يعود ذلك الى أنه يوافق على ما جاء فيها ، أم لأنه يراها قضية معادة كثر تداولها وتكرر القول فيها فليس ثمة كبير أهمية في تناولها من جديد ، أو ان ضيق وقته لم يتيح له الوقوف عندها ^(١) .

ربما كان أول هذه الأسباب أرجحها لا سيما وأن للصفدي من مجمل القضية موقفا يقرب الى حد ما من موقف زميله ذاك ، فهو لا يعرض لما ذكره ابن الأثير إلا من حيث التمثيل على الموضوع ، وجاءت مناقشته في موضعين اثنين فقط .

أما أولهما فيأتي تعفينا على تعليق للأخير أبدى فيه عجبه وانكاره من عدم اكتشاف أهل الشام ومصر ان المعنى في بيت ابن الخياط ^(٢) :

”أغار إذا آتست في الحى أنه
كؤارا عليه أن تكون لحيه“

ماخوذ من بيت المتنبى :

”لو قلت للذئف المشوق قد يته
ما به لأغزته بفدائه“

١- ذكر ابن أبي الحديد انه أتم تصنيف الفلك الدائر في خمسة عشر يوما فقط . (انظر الفلك الدائر : ٣٤) .

٢- أحمد بن محمد بن علي التغلبي الدمشقي الكاتب ، كان من الشعراء المجيدين وطاف البلاد مادحا . ولد وتوفي بدمشق سنة ٥١٧ هـ . وله ديوان مطبوع بدمشق ١١٥٨ هـ . (انظر في ترجمته : وفيات الأعيان ١ : ١٤٥ هـ ، والوافي ٨ : ٦٧ هـ ، وجزر الذهب ٤ : ٣١ وغيرها) .

وأن المعنى في بيت عمارة البيهني^(١) :

" وهل درى البيت أني بعد فرقتك ما سرت من حرم إلا إلى حرم "

مأخوذ من بيت أبي تمام في مدح بعض الخلفاء وقد حج :

" يا من رأى حرما يسعى إلى حرم طوى لمستلم يأتي ولتسليم^(٢) "

ففي تحقيقه يعمل الصفدي خفا السرقة في مثل البيتين المذكورين ، بأن الأصل يكون ركيكا وساقطا من الاستعمال ، فيأتي بعض الشعراء ويبرز معنى الأصل ويسبكه سبكا أرشق وألطف مما كان عليه ، فيحلو ويتداوله الناس ، غير عابئين بالبحث عن أصله ، ومن ثم ينسى البيت الأصل .

وهو لا يجد الأدباء ملومين لعدم تتبعهم السرقات في الشعر ، لأنه ليس في استطاعة كل أديب استخراج أي معنى ما يمر به دون أن يتروى ويحقق فيه وخاصة فيما كان عذبا سائغا ، ولا شك أن قول ابن الخياط أعذب من قول المتبي ، ولهذا اشتهر ، وكذا قول عمارة أحسن وأرق من قول أبي تمام ولهذا ساع واشتهر واستعمل مثلا على تأخر زمانه وتقدم زمان أبي تمام ، خصوصا عجز بيت عمارة فإنه ذاع وضاع وملأ الأنواء والأسماع^(٣) .

١- عمارة بن علي بن زيدان الحكمي البيهني ، فقيه شافعي شاعر أديب . ولد في اليمن واستوطن مصر ومدح الفاطميين وورثهم . اشترك في مؤامرة ضد صلاح الدين فأُسِرَ (وقيل صلبه) سنة ٥٦٩هـ (أنظر في ترجمته الروضتين ١ : ٥٧٢ ، ومفرج الكروب ١ : ٢١٢ / ٢٣٨ والوفيات ٣ : ٤٣١ وغيرها) .

٢- المثل السائر ٣ : ٢٢٣-٢٢٤ .

٣- نصره الشاعر : ٣٧٦ .

إذا ليس لتقدم الشاعر زماناً أو شهرته ورسوم قدمه في ميدانه أثر في
ذويوع نتاجه ودورانه على السنة الناس، بل العمدة في ذلك إنما هو عذوبة
اللفظ وجمال السبك، واللذان إذا توفرا في نظم شاعر متأخر عملاً على اشتها
شعره، وتسويغ أخذه للمعنى من المتقدم .

ولعلنا أدركنا من قول الصفدي هذا أنه يسلم بما أورده ابن الأثير من
أقوال في تسويغ السرقة الشعرية، وهو ما يؤكد موقفه من تمثيل ابن الأثير على
أحد ضروب الملتح وهو أخذ المعنى وصياغته بإيجاز^(١)، وقد مثل الأخير عليه
بقول بشار بن برد :

”من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج“
والذي أخذ معناه تلميذ هذا - سلم الخاسر^(٢) - وضعه قوله :

”من راقب الناس مات غماً وفاز باللذة الجسور“
وعلق ابن الأثير على ذلك بقوله ان الفرق بين البيتين لفظتان فقط^(٣) .

ولكن الصفدي لا يرض بهذا الفرق ويرى فيه عدم إنصاف لسلم الخاسر
لأن ”اللفظة تصدق على الحرفين، مثل : من ومن وما ... وغير ذلك، بل على

١- المثل السائر ٣: ٢٥٧ .

٢- هو سالم بن عمرو بن حماد، شاعر ماجن سمي الخاسر لأنه باع مصحفا واشترى
بشمه طنبراً، مدح المهدي والهادي والرشيد والخلفاء العباسيين، وكذلك وزراءهم
البرامكة توفي ببغداد سنة ١٨٦ . (أنظر ترجمته في الأغاني ١٩: ٢١٤، وتاريخ
بغداد ١: ١٢٦، ومعجم الأدباء ١١: ٢٢٦، والوفيات ٢: ٢٥٠)

٣- المثل السائر ٣: ٢٥٨ .

الحرف الواحد كباء الجر ولامه ، والأحسن في هذا أن يقال بينهما تسعة أحرف .
فلأن الأول أربعة وأربعون حرفاً ، والثاني خمسة وثلاثون حرفاً^(١) ويشير إلى الفرق
في الحروف أيضاً بين بيتين لأبي العتاهية وأبي تمام . ثم يتبع ذلك بأمثلة عديدة
على أخذ المعنى واختصاره ، بعضها من نظم سلم الخاسر ، والبعض الآخر لشعراء
مختلفين^(٢) .

وهكذا يأتي اعتراض الصفدي متسماً بالشككية والاعتماد على جزئيات صغيرة لا
كبير أهمية لها في التدليل على مقدرة الشاعر في أخذ المعنى واختصار لفظه .
غير أن ما أورده من أمثلة على هذا الضرب من السرقة يوحى بموافقة على مجمل
آراء ابن الأثير في الموضوع ، وبذلك ينسجم مع موقفه الأول كما بيناه .

وما تقدم يمكننا القول أن نظرية ابن الأثير في السرقات الشعرية لم يتعرض
لها بنقض أو نقاش كل من ابن أبي الحديد والصفدي ، ورغم أن الصفدي ناقش
تعليقين أوردهما ابن الأثير على بعض أمثله ، إلا أن مناقشته تلك جاءت في أمور
هامشية لا تمس النظرية في أساسها .

وقد ذهب ابن الأثير إلى أنه لا ينبغي عيب الآخذين عن السابقين لأنه لا
يوجد من لم يتأثر بأحد ، وإنما المدار كله على كيفية الأخذ وإخفائه أو تحسينه .

١- نصره الشاعر ، ٣٨٠ .
٢- المصدر نفسه ، ٣٨١-٣٨٣ .

ورفض الأخذ بقول القائل إن باب المعاني أغلق على السابقين من الشعراء
دون المحدثين . وأشار الى جملة من المعاني المشتركة التي لا يختص بها
شاعر دون آخر مثل: إن الطيف وجود بما ييخل به صاحبه وإن الواشي لو
علم بجزار الطيف لساءه ، وكقولهم في المديح : إن عطاءه كالبحر والسحابه
وأنه لا يمنع عطاء اليم عطاء الغد ، وكقولهم في المراثي : ان هذا الزر
أول حادث ، وان الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلة ، وما شابه ذلك ^(١) .
فهذه المعاني لا يعتبر توارد الشعراء عليها سرقة والسرقه لا تصح إلا في
المعاني المخصوصة المبتدعة . ونص أخيرا على إمكانية المفاضلة بين المعاني
سواء اتفقت أم اختلفت .

القسم الثالث
مناقشات مفردة

مناقشات مفردة

١ - ابن الاثير الناقد الاديب في ميزان نفسه وميزان الآخرين

لعل من اظهر ما يميز ابن الاثير عن غيره من النقاد توفره على ابراز دور الناقد القدير في "تعليم البيان" من خلال تطبيق آرائه النقدية على نماذج من نثره اولا ثم من نثر الآخرين او شعرهم . الا انه في احيان كثيرة لم يكن ليتوقف عند حد ايراد المثل لحسب وانما يمزجه بما يعن له من آراء واقوال في نفسه وترسله او في غيره من النقاد . فقد يقول ملحا الى ما يعتقد في نفسه من تبحر في علم الفصاحة والبلاغة " وهذه نكت تخفي على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة " (١) او يقول " فان هذه الاسرار البلاغية لا يتنبه لها الا العارفون بها " (٢) وليس هذا فقط بل انه نصيح طبعها كما يوحي بذلك قوله في تعقيب له على موضع نبه عليه في التكرير - " وهذا لا يتنبه لاستعماله الا الفصحاء اما طبعها واما علما " (٣)

غير انه اذا عمد الى التلميح في بعض اقواله عن نفسه ، فانه في حديثه عن ترسله ومعانيه لا يعرف مواراة او مداراة . وما اورد في هذا الشأن قوله : " وهذا معنى انفردت

١ - المثل السائر ٢ : ٢٤٣

٢ - المصدر نفسه ٢ : ٣٦٢

٣ - المصدر نفسه ٣ : ١٨

بابتدائه ولم يأت به احد ممن تقدمني^(١) وقوله " وهذا معنى ابتدئته ابتداعا ولم اسمعه لاحد من قبلي^(٢) وكذلك " وهذا فصل في هذا المعنى قلما يوتى بمثله^(٣) وقوله في فصل من انشائه يبدو انه حظى باعجاب القراء " وهذا الفصل بهجته مما توافقه الناس واغروا بحفظه^(٤) هذا الى جانب تصريحه بان معانيه المبتدعة والمختصة تفوق عددا معاني ابي تمام الذي كان " اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني وقد عدت معانيه فوجدت ما يزيد على عشرين معنى^(٥) .

واما اقواله في غيره فانها في معظمها تتناول بالغض او التهمك او السخرية بعض علماء العربية واثمتها مثل ابن جنى ، والبي علي الفارسي ، وابي العلاء المعري ، وابي حامد الغزالي ، وابن سينا فضلا عن عدد من الكتاب وعلماء البلاغة من بينهم : القاضي الفاضل وابو اسحاق الصابي والحري ، وابن زيادة البغدادي^(٦) ، والزمخشري . فلما جاء له من ذلك قوله في ابن جنى " وما كنت اظن ان احدا من الناس يذهب وخمه وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره ، واذا كان هذا القول قول امام من ائمة اللغة

- ١ - المثل السائر ١٢ : ٣٥
- ٢ - المصدر نفسه ١٢ : ٣٤
- ٣ - المصدر نفسه ١ : ١٤٨
- ٤ - المصدر نفسه ١٢ : ٩٩
- ٥ - المصدر نفسه ١٢ : ٢٢٠ وانظر اقواله الاخرى في الفرض ذاته في الصفحات ١ : ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ١٢٠ ، ٧٠ ، ٣ : ١١٥ ، وغيرها .
- ٦ - لم اقدر على ترجمته له ، ولكن يبدو انه كان كاتباً في ديوان الخلافة ببغداد وانما كان معاصراً للقاضي الفاضل (انظر نصرة الناشر : ٧٦)

العربية تشد اليه الرجال ، فما يقال في غيره ؟ (١) وذلك تعقيبا على شرح ابن جني
لبيت المتنبي ،

نبه خدي كلما اهتمت من مظر برقة ثناياها

لقد شرحه على هذا الوجه " انها كانت تهزق في وجهه "

وكذلك وصله لكتاب عصره بانهم من متخلفي مهنة الكتابة وانهم " يجعلون همهم
مقصورا على الالفاظ التي لا حاصل وراءها ، ولا كبير معنى تحتها ، واذا اتى احدهم
بلفظ مسجوع على اى وجه كان من الغثاثة والبرد ، يعتقد انه قد اتى بامر عظيم ، ولا يشك
في انه صار كاتباً مفلحاً فقاتل الله القلم الذى يمضي في ايدى الجبال الاغمار ،
ولا يعلم انه كجواد يمضي تحت حمار " (٢)

لهذه الاقوال وامثالها اثار عليه كلا من ابن ابي الحديد والصفدى ، وحفظتهما
للرد عليه فوقف اولهما عند قول ابن الاثير ، " وهداني الله الابتداء اشياء لم تكن من قبلي
مبتدعة ، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون اقوالها تابعة وانما متبعة " (٣) واما الحق
به في الموضوع نفسه من قول في تقريب لكتابة " المثل السائر " ولا ادعى فيما ألفت من ذلك فضيلة

١ - المثل السائر ٢ : ١٠٨ ويقول فيه في الاستدراك : ١٧ " وذلك غريب غريب ،
وما كنت اتوهم ان احدا من بني آدم عنده من اعوجاج الذهن الى هذه الغاية " .

٢ - المثل السائر ٢ : ٦٣ وفي الجامع الكبير : ٦٦ يورد كلاما مشابها الى قوله " بامر
عظيم " ويتمه كما يلي : " فاذا انكرت هذه الحال عليهم يقولون لنا اسوة بالعرب
الا ترى الى جهل هؤلاء القوم ، فانهم لم يكلمهم جهلهم فيما ارتكبوه من ذلك ، حتى
انهم ادعوا ان العرب مثلهم ، نصارت جهالتهم جهالتين " .

٣ - المثل السائر ١ : ٣٧

الاحسان ولا السلامة من سبق اللسان " فنجد أولا بتظاهر ابن الاثير بالتواضع رغم مباحاته بهداية الله لا ابتداع ما لم يبتدع من قبله . ثم تسأل بتعجب متهمكم " فمن يزعم ان الله هداه في هذا الفن الى ابتداع اشياء لم يسبق اليها ، وزقه فيها بلوغ درجة الاجتهاد التي يتبعها الناس ولا تكون تابعة لاحد منهم ، كيف يقول لا ادعي فيها الفتنة فضيلة الا وبلغتها " (١)

وهذه الاشارة الى ما ظهر من تناقض في اقوال ابن الاثير ينسب ، ابن ابي الحديد رده ، ويبدو انه وجده كائنا للتعبير عن رأيه في مجمل ما اورد زميله في مدح نفسه وفيه الكتابي ، اذ تكاد لا نعثر له على ردود اخرى في الغرض ذاته . وهو في ذلك يخالف الصفدي الذي لم يمن بالرد المباشر على تلك الاقوال وعلى ما ذهب اليه ابن الاثير من احصاء لمعانيه المبتدعة ، وانما راح يلاحق تلك المعاني بالنقاش والتحليل ، وغالبا بما يؤيد وجهة نظره من امثلة وشواهد ، ولعل غرضه من كل ذلك اظهار الحقيقة فيما ذهب اليه ابن الاثير ، وربما افصح لنا منهاجه في هذا المقام من خلال مناقشته لنماذج ثلاثة من انشاء زميله .

يمرض ابن الاثير فصلا له في ذم الشيب يقول في بعضه : " والشيب اعدام للايسار وظلام للانوار ، وهو الموت الاول الذي يصلي نارا من الهم اشد وقودا من النار عولثن قال قوم انه جلالة فانهم دقوا به وما جلوا ، وافتوا في وصفه بغير علم فضلوا واضلوا ، وما اراه الا محروثا للعمر ، ولم تدخل آلة الحرث دار قوم الا ذلوا . ومن عجيب شأنه ^{الذي} الجهول الذي

الذى يخلق من بعده ، والخلق الذى يكره نزع برده .^(١)

وينتهي من الفصل المذكور الى التنبيه على المعنى المخترع في عبارة " وما اراه

الا محراثا للعمير "

فيقف الصفدى عند هذا التنبيه ويعلق قائلا : " انه ليجز بعد فراغه من هذا الفصل في الدندنة على العادة ، وان المعنى الذى ابتدعه هو تشبيه الشيب بآلة الحرث ، وقد شبه الناس الشيب باشيا منها اشتعال النار ، وقد نطق القرآن العظيم به في قوله تعالى " واشتعل الرأس شيئا " .^(٢) ثم يبدى رأيه في العبارة المذكورة فيرى ان التشبيه فيها غير مناسب لعدم وجود وجه شبه بين الشيب والمحراث ، وانه لو شبه الهرم بالحرث نفسه لكان ذلك جائزا .

ويلتفت الى معاني الفصل موضع النقاش ، فيبين ان معظمها مأخوذ من اقوال

بعض الشعراء ، فعبارة " والشيب اعدام للايسار " اخذت من البيت :

وقد اراني الشباب الروح في بدني وقد اراني المشيب الروح في بدله^(٣)

كما اخذ معنى " ظلام للانوار " من البيت :

ابعدت بياضا لا بياض له لانت اسود في عيني من الظلم

ومن البيت ايضا :

١ — المثل السائر ٢ : ٢٣

٢ — نصره الشاعر : ٢٣٣

٣ — المصدر نفسه : ٢٣٦

له منظر في العين ابيض ناصع ولكنه في القلب اسود اسفع^(١)
واما قوله " وهو الموت الاول " فمأخوذ من قول بعضهم : " الشيب احدى الميتتين " .^(٢)
كما اخذ قوله " ولئن قال قوم انه جلالة " من قول بعضهم :
وقالوا شباب المرء لهو وغرة ومن خلفه شيب الوقار ولا ريب
واى وقار لا مرى عرى الصبا وقد امه شيب ومن خلفه شيب^(٣)
وكذلك اخذ " وهو الملول الذى يشفق من بعده " من :
الشيب كره وكره ان يفارقني اعجب بشي على البغضا مودود
يمضي الشباب فيأتي بعده بدل والشيب يذهب مفقودا بمفقود^(٣)
وعلى ذلك فإن معظم معاني النموذج هذا غير مبتدعة ، ولكن انصافا للحق نوضح هنا
ان ابن الاثير لم ينص على ان جميع معاني نموجه هذا مبتكرة وانما اختص بالابداع معنى
عبارة (ما اراه الا محرابا للعرس) فقط . فيبدو ان الصلدى في غمرة تحمسه للبرهنة على
ما ذهب اليه لم يتفطن الى ذلك الاختصاص وهو ما نلاحظه في مناقشته لنموذج آخر من انشاء
ابن الاثير يقول فيه في وصف صورة مليحة : " البس من الحسن انضر لباسه ، وخلق من طينة غير
طينة الناس ، وكما زاد حسنا فكذلك ازداد ظليها وانفتت فيه الالهواء حتى صار الى كل
قلب حبيباً ، فلو صاح الورود لتعطرت اوراقه ، او مر على النيل فركب^(٤) لا لتفتحت

١ — نصره الشاعر : ٢٣٦

٢ — المصدر نفسه

٣ — المصدر نفسه : ٢٣٧

٤ — النيلوفر ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدية (انظر القاموس ١٢ : ١٤٧)

اوراقه* (١)

ثم ينبه على المعنى الغريب في عبارة "او مر على النيلونر ليلًا لتفتحت اوراقه" فلا
يكتفي الصغدي بالوقوف عند المعنى المنه عليه ، وانكار الغرابة والابداح فيه ، بل
يشمل بالفكره معاني النموذج كلها فيقول : "اي غريب في هذه المعاني ، واي ابداع
حتى يثبته ويتعجب له ويروقه" (٢) ويتناول عبارة "فلوصاف الورود لتعطرت اوراقه"
فيوضح ان المعنى فيها لا يعبر عن مدح للموصوف لان الورود عطري في كل الاحوال ، ولا
يكسب عطره من اي انسان ، ويرى ان ما يعبر عن المدح هو مثل قوله في وصف الانسان
بانه "يكسب الطيب ما ليس له طيب ، ويفيد الحسن ما لم يكن معروفًا بحسن" (٣) ويدلل
على صحة رأيه بالاشارة الى تنبيه ابن الاثير لهذا الامر في السجعة التالية " او مر على
النيلونر ليلًا لتفتحت اوراقه" اذ قال ليلًا ولم يقل نهارًا لان النيلونر لا يكون في النهار
الا مفتوح الاوراق ،

ثم يورد الأشعار التي يرى ان معاني النموذج المذكور قد اخذت منها ، فمن

البيت

ربيب ملك كأن الله صوره مسكا وقد رانشاء الوري طينا (٤)

اخذ معنى السجعات الثلاث الاولى . كما اخذ معنى السجعة الرابعة من

انرفت في الزجاج من كل قلب فهي محبوبة الى كل نفس (٥)

١ — المثل السائر ٢٢٠٢

٢ — نصره الشاعر ٢٢٦

٣ — المصدر نفسه ٢٢٧

٤ — المصدر نفسه

٥ — المصدر نفسه

ومن البيت ايضا :

عصرت من دم القلوب فما يتبصر الا تعلقت بالقلوب (١)

قد يلهم من طريقة مناقشة الصلدى للنموذجين السابقين انه في جميع مناقشاتنا
— لهذا النوع من اقوال ابن الاثير — لا يعني بالوقوف عند المعنى المنبه على غرابته فقط
وانما يتجاوزها الى ما لم ينبه عليه ، والواقع انه احيانا يلتزم بتعقيب زميله ولا يخرج في
رده عما جاء في هذا التعقيب ، ومن ذلك مناقشته للفصل من رسالة لابن الاثير في دم
الشيبة ايضا يقول في بعضه :

” والعيش كل العيش في سن الحداثة ، وما يأتي بعدها فلا يدعى الا بسن الغثاء وليس بعد
الاربعين من مصيف اللذة ولا منزع ، وهي نهاية القوة الصالحة من الطبائع الاربع فاذا تجاوزها المرء
اشتت ثمار عمره على حرصها وصارت زيادته كزيادة التصغير التي هي زيادة تدل على نقصها ،
ويصبح بعد ذلك ابا بعد ان كان يدعى ابنا .”

فجريا على عادته ينبه ابن الاثير على معاني الواردة في الفصل المتقدم قائلا :
” في هذا الفصل معاني كثيرة لا توجد في كلام آخر .” (٢) ولكن الصلدى لا يستسيغ هذا
التنبيه ، فيبادر الى تحدى زميله بقوله : ” قد ادعى انه ابتكر ما في هذا الفصل من المعاني ،
وانا اذكر ابياتا تدل على اخذ كلامه منها .” (٣)

١ — نصرة الناصر : ٢٢٧

٢ — المثل السائر : ١٣٩

٣ — نصرة الناصر : ١٠٤

ثم يورد ابیاتا عديدة تتضمن معاني الفصل المذكور منها :

- | | |
|------------------------------|--------------------------------|
| آلة العیش صحة وشباب | فاذا ولبا عن المرء ولی (١) |
| کأن الفتی یرقی من العیش سلما | الی ان یجوز الاربعین ومنحط (١) |
| وکان ابنا عدوکا شرا | له یأثی حروف انیسبان (٢) |
| متی لحظت بیاض الشیب عینی | نقد رأت انتقاصی فی ازدياد (٢) |
| واذا دعوتک عنی فأنه | نسب یزیدک عند هن خبالا (٣) |

ويتقدم الصفدى لأدلته في أن معاني ابن الاثير في الفصل المتقدم كما في
الفصلين السابقين ليست بمبتكرة وانما اخذت من "كلام آخر" يصح احصاء المذكور
لمعانيه المبتدعة موضع شك وتساؤل ، وينسحب ذلك على أقواله الأخرى في نفسه وفي
كتاباتة ، بحيث يتراعى للمرء أن لدى هذا الناقد من المبالغة او الزيادة ما يتنافى مع
الدقة والموضوعية الواجب توفرهما في الناقد القدير . وفيما يبدو كان هذا هو هدف الصفدى
من مناقشاته وأدلته ، على أن لا يلتزم بمنهاجه هذا في تصديه للرد على معارضة ابن الاثير
لبعض الكتاب . ومن ذلك رده على كتاب ابن الاثير في معارضته القاضي الفاضل في فتح
القدس . فقد افتتح ابن الاثير كتابه بقوله :

"خلد الله سلطان الديوان العزيز النبوى ، وجعل إمام دولته اترابا ، ومناقب مجدها
هضابا ، وزادها على مرور الايام شبابا ، ووسعها توشية واذهابا ، ومنحها نسي
الدنيا الآخرة عطاء ، وفاقا لأعطاء حسابا ، ومثل جدودها في عيون الأعداء شيئا عجابا ،

١ — نصره الناشر ١٠٤

٢ — المصدر نفسه ١٠٥

٣ — المصدر نفسه ١٠٦

واراهم منها وراءهم في البقعة ارهاها وارهاها ، وفي المنام ابلا صعاها تقود خيلا عراها^(١) .
واستمر في اثبات الكتاب الى نهايته .

ولكن الصفدى لم ينتق للمناقشة من الكتاب المذكور سوى الافتتاحية المتقدمة وبدأ

نقاشه بالتنويه بأهمية عاملي الزمان والمكان في انجاز اى عمل ، وتأثيرهما على مستوى
الجودة فيه ، فاشار الى ان ابن الاثير عندما انشأ هذا الكتاب " قعد في بيته وتأنى
ونقّى ونقّح " ^(٢) ، واما القاضي الفاضل فقد اصدر كتابه " وهو ابن يومه بل ابن ساعته " ^(٣)
وعلى ذلك ان كان ثمة فضل في الكتاب الاول ، فان ذلك يرجع الى العاملين المذكورين .

ثم تناول بالنقد والتحليل بعض الفاظ الافتتاحية تلك ، فاشار الى ان لفظة
اتراها مما يتحاشى استعماله في الدماء للدول لانها تحمل معنى المشابهة في الخير
والشر ، فكان ينبغي له ان يقول " وجعل ايام دولته في النصر اتراها " واما تشبيه المناقب
بالهضاب ، فليس بمستحسن ، لان الهضاب هي صغار الجبال او كبارها او الجبال
المنبسطة على الارض فاي مبالغة في ان تكون المناقب في ارتفاعها كالهضاب ؟ ^(٤)

واكتفي بالنقد دون التحليل لعبارة " ومثل جدودها في عيون الاعداء شيئا عجابا " .
نوصفها بانها " كلام فارغ كالجسد الذي لا روح فيه " ^(٥) ثم ذهب الى ان المعنى في

١ — المثل السائر ٢ : ٣٧٥-٣٨٥ ، والكتاب مثبت في رسائل ابن الاثير : ١٤١-١٥٦ ايضا .

٢ — نصره الثائر : ٣٠٤

٣ — انظر في هذا القول وما تقدمه نصره الثائر : ٣٠٤

٤ — نصره الثائر : ٣٠٥

السبعين الاخيرتين من القطعة المذكورة مأخوذ من البيتين :

وعلى عدوك يا بن عم محمد ركنان ضوء الصباح والإظلام
فاذا تنبه رفته واذا غفلا سلّ عليه سيفك الأحلام (١)

وبذلك راجح الصلدى في رده هذا بين الدافع من القاضي الفاضل وتهيرير موقفه

من ناحية ، ومواخذة ابن الأثير ونقد اقواله من ناحية اخرى .

وقريب من ذلك ما أورده في رده على معارضة ابن الأثير لابن زيادة البغدادى .

فقد وجد ابن الأثير كتابا كتبه ابن زيادة الى صلاح الدين الايوبي ضمنه امورا انكرت عليه في ديوان الخلافة منها تلقبه بالملك الناصره واستشهد في انكار اللقب بعبارة " ما يستلحه المولى فهو على عبده حرام " فتلقف ابن الأثير هذه العبارة واوسعها تجريحا ، فهي " كلام فيه غشاة " (٢) ولا يصلح للاحتجاج به . ثم انشأ كتابا في معارضة الكتاب المذكور وقال في بعضه : " قد علم ان للأنبياء والخلفاء خصائص يختصون بها على حكم الانفراد ، وليس لاحد من الناس ان يشاركهم فيها مشاركة الانداد ، وقد أجرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك في اشياء نص عليها بحكمه ، ومن جملتها انه نهى غيره ان يجمع بين كنيته وبين اسمائه ، وهذا مسوغ لامير المؤمنين ان يختص بامر يكون به مشهورا وعلى غيره محظورا " (٣)

وبعد ان فرغ من اثبات الكتاب عقب بالتنبيه على استشاده بالحديث النبوى

واهدى تعجبه " كيف شذ عن ابن زياد ان يأتي به " . (٤)

١ — نصرة الناصر : ٣٥٥

٢ — المثل السائر : ٦٧

٣ — المصدر نفسه : ١٨١

٤ — المصدر نفسه : ١٩١

وقد اختار الصفي هذا الحديث النبوي ليكون منطلق رده على ابن الاثير
 ففرق أولا بين الاسم والكنية واللقب من الناحية اللغوية ، ثم بين المراد بالحديث * لا
 تجمعوا بين اسمي وكنيتي * من الناحية الفقهية وهو الا يتكفى من اسمه محمد باي القاسم .
 وانتقل الى خواص الانبياء ، فاورد خواص النبي المعلومة شرعا ، وانتهى الى توضيح انه
 ليس لاحد سوى النبي خاصة يمتاز بها من حيث الشرع . واذ فرغ من شرحه وتوضيحه تحول
 الى ابن الاثير فقال * فانظر الى ابن الاثير رحمه الله ، لم يطابق بين الأفكار والاستشهاد ،
 ولو اجاب الملك الناصر عن ذلك وقال : ان الخادم ما جمع بين كنية امير المؤمنين وبين
 اسمه ولا انفردت بوحدة منها ، فما وجه الأفكار على لسانه ان يقول ذلك * (١) ولعله
 هدف من قوله هذا الى التعريض بابن الاثير من حيث معرفته بدقائق اللغة او
 الاجتهادات الفقهية .

ثم وقف عند عبارة (وما يستملحه المولى فهو على عبده حرام) فرأى انها تتناسب
 جيدا مع سياق الكلام في فصل الأفكار المذكور ، ولم يفقه ان يوضح ان تلك العبارة هي احد
 ابيات شعر كتبه احد كتاب المأمون له مع فرس اهداه اليه ، وقرن قوله بالبرهان فاثبت تلك
 الابيات . (٢)

وانتهى الى التأكيد انه بسبب الكتاب المذكور امتنع الاعيان من غيرها يا صلاح الدين

١ — نصره الثائر ، ٢٥

٢ — المصدر نفسه ، ٢٦

من تلقينه بالملك الناصر^(١) وفي ذلك دليل على بلاغة الكتاب لا على غشائه بعض عباراته كما جاء في وصف ابن الاثير له .

وهكذا نرى ان الصدى في رديه السابطين لم يلتزم بالموقف الدفاعي فحسب وانما تطرق منه الى نوع من الهجوم ^{على} حيسن حاول الغض من آراء ابن الاثير ومن ثقافته العلمية ، ولعله سار في ذلك على هدى من موقف ابن ابي الحديد في رده على معارضة ابن الاثير للقاضي الفاضل ايضا ، في كتابه للاخير كتبه من صلاح الدين الايوبي الى دار الخلافة ببغداد يصف فيه فتح مصر واسقاط الدولة الفاطمية فيها .

وقد وجد ابن الاثير — كما يقول — خلا في الكتاب وهو عدم تشبيه زميله الكاتب فتح مصر بفتح مكة حيث ان كلا منهما لم تفتح الا بعد محاولات ثلاث ، فتصحيحا لهذا "الخلل" انشأ كتابا قال في بعضه :

"ومن جعلتها ما فعله الخادم في الدولة المصرية ، وقد قام بها منبر وسرير وقالت : منا امير ومنكم امير ، فرد الدولة العباسية الى معادها ، واذكر المناهر ما نسيته بها من زهو اعوادها ولم يعمدها الى وطنها حتى تغربت لها الارواح من اجفانها ، وسهرت لها اجفان السيوف سهر العيون من اجفانها" (٢) .

وتعقب بعد الفراغ من ايراد كتابه بالتنويه بتضمينه لعبارة (منا امير ومنكم امير)

١ — انظر لصره الناصر : ٧٧

٢ — المثل السائر : ١ ، ٦٥

التي قالها بعض الانصار للمهاجرين يوم مبايعة ابي بكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة ، ثم ابدى تعجبه من القاضي الفاضل " مع تقدمه في فن الكتابة كيف فاته ان يأتي به في كتابه " . (١)

ووقف ابن ابي الحديد عند العبارة التي نوه بها زميله ، فاعلن ان القاضي الفاضل كان موفقا حيث لم يوردها في كتابه لانها لا تنطبق على مقتضى الحال في فتح مصر ، فقد اراد الانصار بها تعاقب الخلافة بينهم وبين المهاجرين ، واما فاطميومصر فكانوا يدعون ان الخلافة ليست إلا لهم خاصة دون سواهم . (٢)

ثم نقد كتاب ابن الاثير نقدا عاما ، فوصفه بأنه ليس من جيد قوله " وفيه ما لا يجوز وان جاز فهو على ضعف شديد وتكلف عظيم " . (٣) ثم اخذ في تطبيق ما ذهب اليه على عبارتين من الكتاب المذكور . فاشار الى ان حرف الباء في عبارة " واذكر المنابر ما نسيت به من زهو اعوادها " متعلق بالمصدر زهو ، وعلى ذلك فهو من صلته ، فلا يجوز تقديمه على مصدره الا على تأويل بعيد وهو متعذر في هذا الموضع خاصة او مستهجن . (٤)

ورأى ان الجزء الثاني من عبارة " وسهرت لها اجفان السيوف سهر العيون عن اجفانها " كلام بارد ، وعلل رأيه هذا تعليلا منطقيا عبر عنه بقوله : " لان العيون لا تسهر عن الاجفان " . (٥) ثم ذهب الى ان ابن الاثير لم يأت له ايراد تركيب صحيح للعبارة مثل " وسهرت لها اجفان السيوف سهر اجفان العيون " فجاء بعبارته التي تحتاج في تصحيحها

١ - المثل السائر ١ : ٦٦

٢ - انظر الفلك الدائر ٥٤

٣ - المصدر نفسه : ٥٥

٤ - المصدر نفسه

٥ - المصدر نفسه

الى تعب شديد ، وليس تحت تلك العبارة " من المعنى الغريب ما يساوى ذلك التعب " . (١)

لعلنا لمنا ما تقدم مدى تشابه ابن ابي الحديد وزميله الصفي في موقفهما العام من معارضا ابن الاثير للكتاب الآخرين ، وهو موقف يقم في جانب منه على ابراز ما رأوه من اخطاء في اقوال الاخير ، مما يؤدى الى زعزعة موقفه النقدي في هذا المجال . غير اننا لا نلاحظ مثل هذا التشابه في ردودهما على انتقاض ابن الاثير لغيره ، وربما استطعنا تبين طريقة كل منهما في الرد من خلال عرض بعض نماذج لهما في هذا الغرض .

٢ - ابن الاثير والغزالي

فقد افترض ابن الاثير على تقسيم الغزالي للجهاز الى اربعة عشر قسما ، ورأى انها ترجع الى ثلاثة اقسام هي : التوسع ، والتشبيه ، والاستعارة ، وذهب الى انه اذا لم يختص كل قسم بصفة لا يختص بها غيره كان التقسيم غير صحيح وبالأحرى " لغوا لا فائدة فيه " (٢) . ثم اخذ في مناقشة الاقسام المذكورة الواحد تلو الآخر ، واثنا مناقشته كان يورد من التعليل ما يراه مؤيدا لوجهة نظره ، ولكن ثلاثيا للاسهاب ستقتصر من الاقسام المذكورة على ثلاثة نرى انها تلي بالغرض المطلوب ، وهي الاقسام التالية : تسمية الشيء بما يؤول اليه ، وتسمية الشيء بفعله ، والزيادة في الكلام لغير فائدة .

١ - الفلك الدائر : ٥٥

٢ - المثل السائر ٢ : ٨٨

وقد وقف ابن الاثير عند اولها ومثله (اني اراني اعصر خمرا) فرده الى القسم الاول من تقسيمات الغزالي وهو ما جعل للشيء بسبب المشاركة في خاصته ، واستدرك فأكد انه اولى بهذا القسم ان يكون في باب الاستعارة لان الخمر من العلب فبينهما صفة مشابهة . (١)

ورأى ان قسم تسمية الشيء بمفعله كسمية الخمر مسكرا — داخل ايضا في القسم الاول للمشاركة بين الخمر والإسكار ، لأن الإسكار صفة لازمة للخمر ولا يمكن ان يكون خمر ولا إسكار . (٢) . وانكر ان يكون من المجاز قسم (الزيادة في الكلام لغير فائدة) كما في قوله تعالى (فهما رحمة من الله لنت لهم) وهل انكاره بقوله ان "المجاز هو دلالة اللفظ على غير ما وضع له في اصل اللغة وهذا غير موجود في الآية ، وانما هي دالة على الوضع اللغوي المنطوق به في اصل اللغة" . (٣) وزاد : انه حتى ولو سلم يكون هذا القسم من المجاز فان "ما في الآية المذكورة ليست بزيادة ولكنها وردت تخفيها لامر النعمة التي لان بها الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولو عرفت الآية منها لما كان للمعنى تلك الفخامة او الجزالة ، ولم يفته التنويه بأن هذا الامر لا يعرفه " الا اهله من علماء الفصاحة والبلاغة . (٤) وانتهى الى التهمك اولا على الغزالي " واما الغزالي رحمه الله تعالى ، فانه معذوره عندى في ألا يعرف ذلك لان ليس منه . (٥) ثم الى اللغز من علمه واعتقاده فقال " ومن ذهب الى أن في القرآن لفظا زائدا

١ — المثل السائر ٢ : ٨٩٢

٢ — المصدر نفسه ٢ : ٩٢

٣ — المثل السائر ٢ : ٩٣

٤ — المصدر نفسه ٢ : ٩٤

لا معنى له فاما ان يكون جاهلا بهذا القول واما ان يكون متسححا في دينه واعتقاده^(١) وقريب من هذا النسق كان نقاشه لبقية الانسام^(٢).

وقد رد عليه ابن ابي الحديد فوقف طويلا عند اعتراضاته على التفسيرات هاتكة فوافقه في بعضها^(٣) وناقشه في البعض الآخر مظهرا خطأ فيما ذهب اليه ولعل في نقاشه لاعتراضات ابن الاثير المتقدمة ما يكفي لتوضيح اسلوبه في الرد على بقية الانسام فهو لا يجد ان الآية (اي اراني اعصر خمرا) في (تسمية الشي* بما يؤول اليه) داخلية في القسم الاول لان الخمرا يشارك العنب في خاصيته كما انها ليست من باب الاستعارة فان "كون الشي* بعنصره من غيره او يستحيل اليه" لا يقتضي ان يكون بين الامرين مشابهة في امر خاص لاحدهما قد اشتهر به^(٤).

وينوه بان الاصوليين سمو هذا القسم (اطلاق اسم السبب على المسبب) ولكنه يرى ان هذه التسمية لا تثبت في العلم الحكيمية لأن الحلل اربعة : الفاعل ، والصورة ، والمادة ، والغاية^(٥) والقسم المذكور يقتصر على العلة الغائية فقط .

١ — المثل السائر ١٢ : ٩٤

٢ — انظر المثل السائر ١٢ : ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٣ ، ٩٥ .

٣ — مثل (تسمية الشي* باسم ما يشاركه في الخاصية) و (تسمية الشي* بما يدهو اليه) و (تسمية الشي* بحكمة) انظر الفلك الدائر : ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ .

٤ — الفلك الدائر : ٢٠٠

٥ — المصدر نفسه : ٢٠١

وهذه هي إلى أن ابن الأثير لم يعلم المراد من التثنية (بتسمية الخمر مسكرا) على (تسمية الشيء بفعله) فيوضح ذلك بإشارته إلى أن السكر هو الفاعل ، وإلى ما قاله "القوم" من أن الخمر تسمى مسكرا قبل أن لا تشرب وتسكر صاحبها "فقد سموا الشيء بها شأنه أن يفعله ، ويأثره قبل أن يفعله ويؤثره وهذا هو المجاز" (١) ويدخل في تحليل منطقي يميز فيه بين الاسكار بالقوة ، والاسكار بالفعل ، وينتهي إلى التأكيد بأن الثاني هو مراد الأصوليين وباعتباره جعلوا قول (الخمر مسكرة مجازا) ويختم نقاشه بقوله "لو كان الاسكار صفة لازمة للخمر ، ولا توجد خمر إلا وهي مسكرة على الوجه الذي قاله وادعاءه لكان إطلاق لفظة المسكر على الخمر حقيقة لا مجازا" (٢)

وأما فيما يتعلق بقسم (الزيادة في الكلام لغير فائدة) فإنه يؤيد الغزالي في إيراد ضمن تقسيماته ، ويؤكد أن الأخير ذهب في ذلك مذهب بعض شيوخ المتكلمين في أن "الحقيقة ما انتظم لفظها معناها من غير زيادة ونقصان ، ولا نقل ، والمجاز ما لا ينتظم لفظه معناه إلا لزيادة ونقصان أو نقل" (٣) وعلى ذلك فإن في الآية (فيها رحمة من الله لنت لهم) مجاز ، إذ ينتظم اللفظ المعنى فيها مع زيادة ما .

ويرى أن تمثيلا مع ما ذهب إليه ابن الأثير من إعطاء "ما" للآية المذكورة من الفخامة والجزالة والفصاحة ما لا يتوفر لها في حالة فقدانها ، تكون الآية (واخفض لها جناح الذل) حقيقة ، وينسحب ذلك على جميع الجازات . ويستطرد إلى القول أنه إذا انكر المذكور

١ — الفلك الدائر : ٢٠٧

٢ — المصدر نفسه : ٢٠٨

٣ — المصدر نفسه : ٢١١

اخراج " ما " من باب المجاز ، فان في ذلك تسليم بقول الغزالي ، وبالتالي لا يصح
لانتقاضه له اى معنى . (١)

ويختم رده بمدح تقسيمات الغزالي ، والتعريض بقدرة ابن الاثير على فهمها
فيقول " وكل قسم من هذه الاقسام له خصوصية ينفرد بها ويمتاز عن غيره بها ولو ان هذا
الرجل يقف على التقسيمات العقلية الدقيقة في العلم الحكيم والكلامية التي يمتاز كل
قسم منها عن الآخر بما هو اداق من الشعر ، ولا يفهمه الا الراسخون في العلم لكانت هذه
التقسيمات في امتياز بعضها عن بعض اجلى من فلق الصبح ، لأنه ليس فيها من الغموض
ما يوقع في مثل هذا الخلط . " (٢)

ما تقدم يمكن القول ان ابن ابي الحديد حاول في رده الايحاء بان تقسيمات
الغزالي تقوم على اساس من العلم والمعرفة ، وعلى الدراية بمذاهب المتكلمين واقوال ارباب
المنطق ، ومن ثم فلا تكون كما وصلها ابن الاثير " لغوا لا فائدة فيه " كما حاول اظهار ابن
الاثير بمظهر الجاهل " بالعلوم الحكيمة والعقلية " مما يشكك في سلامة آرائه واقواله عامة ،
وهي محاولة لا تبعد كثيرا في اطارها العام عن محاولاته في ردوده الاخرى ، في الدفاع
عن ابن جنى ، واهي على الفارس ، والزمخشري (٣) على انه في هذا كله يخالف اسلوب زميله
الصفدي في ردوده الدافعية عن ثعلب والمعري ، والحريزي ، ولعلنا نتبين وجه الاختلاف

١ - الفلك الدائر : ٢١٢

٢ - المصدر نفسه : ٢١٤

٣ - انظر الفلك الدائر : (١٩٢-١٩٨) (٢١٩-٢٢٤) (٢٢٤-٢٢٨) .

من خلال عرض تلك الردود .

٣ - ابن الأنير وتعليق

يسخر ابن الأنير من تعلب لذكره لفظة "الإمة" في كتابه الفصح ويتساءل "ويا ليت شعري ما الذي رآه من فصاحتها حتى اختارها" ويتبع السخرية بالتهكم فيقول "ولا لوم عليه ، لان صدور مثل ذلك الكتاب عنه كثير" (١) ثم يتحول من التخصيص الى التعميم فيؤكد ان اسرار البلاغة لا تؤخذ من علماء العربية ، وانما من المختصين بها ويلتفت ثانية الى تعلب فيختصه بتعليق ينتقص فيه من قدرته العلمية حين يستكثر من تأليف كتاب معظم الفاظه فصيحة فيقول "هراذا شذ عن صاحب كتاب الفصح الفاظ معدودة ليست بفصيحة في جملة كثيرة ذكرها من الفصح فان هذا منه كثير" (٢)

ويتصدى الصفدى للرد عليه ، ولكنه يبدوا انه يوافق فيما ذهب اليه من عدم جواز ادخال لفظة "الإمة" في الفصح ، اذ نجده يورد ردا على جانب الضعف وعدم الاقتناع حين يبرر ان تعلبا ما اورد تلك اللفظة في كتابه الا التزاما منه بالباب الذي عقده لذلك وهو باب المكسور اوله والمضموم باختلاف المعنى (٣)

ثم يتطرق الى توضيح مفهوم الفصح عند ائمة اللغة ، فهو عندهم ما كثر استعماله

١ - المثل السائر ١ : ٣٨٩ ، اورد تعلب كلمة "الإمة" بمعنى النعمة في الفصح ١ : ٦٥ في باب المكسور اوله والمضموم باختلاف المعنى .

٢ - المثل السائر ١ : ٣٨٩

٣ - انظر نصرة الشاعر ١٦٣

وليس العذب الحسن من الالفاظ ، ويمثل على ذلك بلفظة " الزئبق " التي هي في الفصح
 بالهمزدون التسهيل مع ان هذا اعذب ، وكذلك يمثل بلفظة " السمع " التي تحريكها
 الفصح من تسكينها مع ان " الحس " يشهد بان التسكين اخف واحسن .^(١) فهذا هو رد
 الصفدى بمجمله ، ويقرب منه رده في الدفاع عن المعرى ، وان كان فيه بعض الاختلاف كما سنرى .

٤ — ابن الاثير والمعرى

يتناول ابن الاثير المعرى بالذم حين ينعي عليه اعجابه الشديد بالمتنبي ويشعره
 للظا ومعنى فيقول " ويلغني عن ابي العلا " بن سليمان المعرى انه كان يتعصب لابي الطيب ،
 حتى انه كان يسميه " الشاعر " ويسمى غيره من الشعراء باسمه ، وكان يقول ليس في شعره لفظة
 يمكن ان يقوم عنها ما هو في معناها ، فيجي " حسنا مثلها " . فياليت شعرى اما وقف على هذا
 البهت المشار اليه ، لكن الهوى كما يقال اعى ، وكان ابو العلا اعى العين خلقة ، واعماها
 عصبية ، فاجتمع له العمى من جهتين .^(٢)

فكيف برد الصفدى على هذا الذم الجارح ؟ انه يورد ردا دائما لا ينطوى على
 اى دفاع مفتح عن المعرى الشاعر الفيلسوف او الانسان المفكر على الاقل . فهو يكتفي بتبرير
 اعجاب المعرى بالمتنبي تبريرا يهدو معه وكأنه انسان عادى يستمد آراءه واحكامه من الجمهور
 لا من علمه وثقافته ، وذلك ما يوحي به قوله " ان المعرى معذور في تفضيل المتنبي على غيره ،

١ — انظر نصره الناصر ١٦٣

٢ — المثل السائر ١ ، ٤١١ والبيت المشار اليه هو : فلا يهيم الامر الذى هو حائل —
 ولا يحلل الامر الذى هو يهيم .

وليس هو ببدعة في ترجيحه على غيره من الشعراء فأكثر الناس على هذا المذهب* (١)

ثم يتحول من الدفاع عن المعري الى تقرّظ المتنبي ، و اظهار مزايا شعره التي لا

نظير لها — فيما كراه — سوى مزايا القاضي الفاضل في النثر ، على احتواء* فنيهما للقليل

من الردي* . ثم يستشهد على جيد المتنبي ورثته بنماذج من شعره* (٢) وينتهي الى

التأكيد على تفرد القاضي الفاضل بالترسل ، وتفرد المتنبي بالشعر* مع ما لهما من الانحطاط

ولكن انحطاط المتنبي اوضح واشنع* (٣) ومع ذلك فان* العبرة بالاغلب والاكثر القليل

معفو عنه* (٣)

ذاك هو مجمل رد الصدي على ذم ابن الاثير للمعري ، فرغم ان الثاني تجاوز

الموضوعة في ذمه ، الا ان الاول لم يأت في رده بما يوحى باهتمامه بهذه الحقيقة بل توجه

بعنايته الى المتنبي يمدحه ويقرّظ شعره ، فبدأ وكأنه مؤازر لا مناهض لابن الاثير الذي يرى

ان المتنبي و ابا تمام والبحترى اعظم شعراء العربية على الاطلاق ويصفهم بانهم* لات الشعر

وهزاء ومناه* (٤)

١ — نصرة الثائر : ١٧٠

٢ — انظر المصدر نفسه : ١٧١

٣ — المصدر نفسه : ١٧٦

٤ — المثل السائر ١٣ : ٢٢٦ . وقال في الاستدراك : ٢٥* ان ابا تمام والبحترى اشعر من الثلاثة المذكورين / جرير والفردق والاختل* . وليس هندي اشعر منهم في جاهلية ولا اسلام* .

٥ — ابن الاثير والحريري

غير ان الصفي في دفاعه عن الحريري يتهج نهجا مغايرا الى حد ما . فقد ابرز ابن الاثير حادثة عدم تمكن الحريري من كتابة رسالة في ديوان الخلافة ببغداد ، كما اورد شعر بعضهم فيه :

شيخ لنا من ربيعة الفرس	ينتف عثونه من الهوس
انطقه الله بالمشاق وقد	الجمه في بغداد بالخرس ^(١)

وتطرق من ذلك الى نقد الحريري في مواضع من مقاماته فقال " على ان الحريري قد كتب في اثنا مقاماته رقاعا في مواضع عدة ، فجاء بها منحة عن كلامه في حكاية المقامات ، لا بل جاء بالغث البارد الذي لا نسبة له الى باقي كلامه ليبدأ^(٢) . ونقد ايضا في كتاباته الاخرى ورأى فيها تفاوتاً بعيداً عن مقاماته^(٣) .

ويقف الصفي عند حادثة الديوان ، فيبرر عدم تمكن الحريري من كتابة الرسالة تلك ، بان الله لم يفتح عليه في ذلك الوقت اذ ان الكتابة " من باب الفتح على الانسان " ^(٤) ثم يتطرق الى توضيح اثر المكان والتقيد بموضوع مفروض دون سابق استعداد له على قدرة المرء الكتابية ، فيذكر ان الحريري في وقت عمل مقاماته " كان في بيته مخلى ونفسه ، يصوغ

١ — المثل المائر ١ : ٤١

٢ — المصدر نفسه ١ : ٤٢

٣ — انظر المصدر نفسه

٤ — نصرة الثائر : ٥٦

ويكسر ويهدم ويبني ، فاذا لباه مقام تحول الى غيره ، واذا تقاعس عليه معنى تركه وجذب ما هو امل من قيادته منه ، وذلك امر غير جلوسه في الديوان واول قدومه ، وهو بين جماعة من ارباب الفن ، ويقترح عليه معنى لا محيد عنه ، ولا فسحة له في ضيقه ولا نجاة له من زله ، ولم يكن قد استعد له ، لا جرم ان افحم وتوقف وتنف حشونه^(١) ويلج من طرف خفي الى ان ابن الاثير لا يفضل الحريري في مثل هذه الظروف فهو ايضا اثنا معارضاته للقاضي الفاضل ولغيره من الكتاب ، كان يلزم بيته يكتب ويحوي وينقح^(٢) وكان الصلدي يتلميحه هذا يرمي الى انكار حق ابن الاثير في نقد زميله الحريري .

ثم يستطرد الى الاشادة اولا بمقامات الحريري ويعدّها " كتاب علم في بابها " ^(٣) وينتهي بالاشارة لبلاغة الحريري التي مكنته من مدح الشيء " ثم ذمه ، او ذمه ثم مدحه في نفس الموضوع من مقاماته ، وينتهي ايضا بلصاحته التي " تعلم من اخذه الامثال السائرة وضما الى سبعة احسن منها " ^(٤) وينتهي دفاعه بالاستشهاد بنماذج من سبعة المتضمن لتلك الامثال . ^(٥)

١ - نصره النائر : ٥٧

٢ - انظر المصدر نفسه .

٣ - نصره النائر : ٦١

٤ - يبدو ان الصلدي في اصحابه الشديد بمقامات الحريري ، كان يذهب مذهب عصره .
فقد كانوا كما يقول ابن الطقطقي " فيها معتقدين وفي تحفظها راغبين " انظر الفخرى : ١٠
ولعل اعتقادهم فيها كان نتيجة اعتبارهم لها شاهدا فريدا على لغتهم وثقافتهم
ونرائهم . انظر :
Nicholson. A Literary History of the Arabs: 336

ويتراعى لنا من هذا الرد ان الصغدي لم يبذل من عنايته في الدفاع عن كسل
من المعري وتعلب ما بذله للحريزي ، رغم انه لم يتعرض فيه ايضاً لابن الاثير بنقصد
او مواخذة . ولعله رأى في الدفاع فقط ما يكفي لاثبات رجلى ابن الاثير على العلماء .
غير انه في عرض وجهة نظره في ردوده تلك ظل بعيداً عن الجدل المنطقي او
الفلسفي ، كما انه لم يخرج في الاستشهاد على وجهة نظره عن نطاق الادب بقسميه :
النثر والشعر . وهو وان خالف ابن ابي الحديد في ذلك ، الا انه كان متمشياً معه في
معالجة مشكلة ابن الاثير كناقده . وقد عمل كل منهما على ابراز ما ارتآه من مبالغة في
مدح المذكور لنفسه ولقنه الكتابي ، كما حاولا وضع اقواله وآرائه في الاخرين موضع الشك
والتساؤل من حيث سلامتهما وصحتها ، وبذلك توصلا الى غايتهما في البرهنة على ان هذا
الناقد قد يتجاوز الدقة والموضوعية فيما يعرض له من مسائل ونضائماً سواء أكانت على علاقة
بالذات ام بالغير .

خاتمه

خاتمة

عرضت في مقدمة هذه الدراسة لطائفة من نقاد القرنين السابع والثامن للهجرة .
فوقفت عند معظمهم وقفة قصيرة في محاولة للتعرف بهم وآرائهم ومواقفهم النقدية .

وخصت بالدراسة النقاد الثلاثة : ابن الاثير ، وابن ابي الحديد ، والصفدي .
فتحدثت عن نشأة كل منهم وعن ثقافته وتحصيله العلمي ، وما اسهم به في مجالات الحياة
المختلفة ، سواء كانت سياسية او ادارية او فكرية ، مع الاشارة الى ما تركه من تراث في
الادب والنقد .

ثم وقفت عند بعض القضايا النقدية في : المثل السائر ، فوجدت انها تقع في قسمين
رئيسيين : قسم يشمل قضايا عامة تتناول : ١ - علم البيان وعلاقته بالنحو والبلاغي
٢ - والاديب بين الطبع والثقافة ، و ٣ - والعلاقة بين الشعر والنثر .

وقسم آخر يبحث في قضايا خاصة تتناول : ١ - اللفظ ، ٢ - والمعنى ، ٣ - والعلاقة
بين اللفظ والمعنى ، و ٤ - وتداول المعاني (السرقات الشعرية) .

وقد تحدث ابن الاثير - في القسم الاول - عن علم البيان وموضوعه ، معرنا بالفصاحة
والبلاغة لغة واصطلاحا ، مع توضيح الفرق بينهما . واكد استنباط خروجهما بالعقل ، خلافا
لاقسام النحو التي يرى انها عقلية . وندد بجهود علماء البلاغة في بحوثهم في الفصاحة والبلاغة ،
كما ندد بمفسري اشعار اللغويين ، وكذلك بادلة النحاة في تحليل اقسام النحو . ولم يتقبل
كل من ابن ابي الحديد والصفدي من مجمل تلك الآراء سوى قول ابن الاثير ان الفصاحة تختص

باللفظ والبلاغة بالصيغة او التركيب . وابدى الاثنان اعتراضاتهما على اقواله الاخرى مع ايراد الحجج والبراهين التي من شأنها اظهار فساد ما ذهب اليه .

وحين عرض رأيه فيما يجب توفره في الاديب من طبع وثقافة ، أكد على الطبع اولا ، ثم على الاهتمام لفصله بثقافة مستمدة من انواع ثمانية من المعرفة ، مع استبعاد الثقافة اليونانية لعدم ضرورتها للكاتب والشاعر ، ودلل على رأيه هذا بتفوقه وتلوق عدد من الكتاب والشعراء الاوائل كل في ميدانه ، على جهلهم بها . ولم يعترض ابن ابي الحديد او الصفدى على نظرية الطبع ، وانما جاء اعتراض ثانيهما على تأكيد ابن الاثير عدم اطلاع بعض الادباء على الثقافة اليونانية ، في الوقت الذي رفض فيه ابن ابي الحديد نظرية ثقافة الاديب بمعظمها ، وخاصة استبعاد الثقافة اليونانية .

وفي بحثه للعلاقة بين الشعر والنثر ، توة ابن الاثير بافضلية النثر واراد في ذلك اسبابا ثلاثة تتلخص في ١ - اتصال اعجاز القرآن بالنثر ، ٢ - وصعوبة الكتابة نثرا - ٣ - وهو شأن الكاتب في الدولة دون الشاعر . ثم ذكر ما ارده ابو اسحاق الصابي من فروق بين الشعر والنثر ، نردّها وتقدم بفروقه الخاصة مع فرق محتمل بين الشعر العربي والفارسي ، وهو خلق الشعر العربي من قصائد ملحمية على غرار الشاهنامة الفارسية .

وقد ثار الصفدى حين تراءى له ان في الفرق الاخير طعنا على اللغة العربية ، فاتهم ابن الاثير بالشعوبية ، ودافع عن الشعر والعرق العربيين مستشهدا بما نظم في العربية من قصائد طويلة ، وتفضيل علماء العربية - ممن كانت اصولهم فارسية - للغة العربية على لغتهم الام . واكتفى ابن ابي الحديد بالدفاع عن الصابي واقواله ، وازافة فروقا اخرى الى

فروق ابن الاثير .

واما من حيث القضايا النقدية الخاصة ، فقد تحدث ابن الاثير عن اللفظ أولا واكد ان حسن الالفاظ مستمد من خصائص ذاتية لا تتعلق بالاصاف او الشروط التي وضعها ابن سنان مثل تباعد مخارج الحروف ، وعدد الحروف ، والجريان على العرف العربي وعدم ابتذال اللفظ او توحشه وفراسته ، وهي شروط لم يأخذ ابن الاثير بمعظمها وانما بالشرط الاخير منها ، نأيد عدم استعمال الوحش من الالفاظ في الكلام عامة وفي النثر خاصة . ووضع قاعدة عامة يسوغ بموجبها استعمال الغريب الحسن من اللفظ في النظم دون النثر . ثم اكد على وجوب مراعاة التلاوّم والتناسق وعدم التناقض بين الالفاظ في السبك ، ومددنا ببيت شعر للحريري في التناقض اللفظي ، وهو ما دعا المقدى الى اتخاذ موقف دفاعي من الحريري ، كما اتخذ ابن ابي الحديد مثل هذا الموقف تجاه ابن سنان واقواله ، ودارت مناقشات الناقدين حول امثلة ابن الاثير فقط .

وحدث ابن الاثير قضية المعنى بحثا مستفيضا ، لشغف اقواله من اهتمام بالغ بالمعنى ولا سيما المبتدع منه ، وعن ايتار للمفاتيح الذهنية المجردة دون اى احتفال بالصورة الشعرية . ثم طرح آراء ونظرات تتناول النحو من حيث عدم ضرورة اقسامه جميعا في توضيح المعنى ، وتؤكد وجوب توفر الوضوح في المعاني والتدرج والتناسب والترابط والتنوع ، وهذا الامر الاخير لم يجده ابن الاثير في اسجاع الصابي وكتاب آخرين . ولم تلق معظم هذه الآراء معارضة تذكر سواء من ابن ابي الحديد او المقدى ، ولكن اولهما تصدى للدفاع عن الصابي ، وانفرد ثانيهما بالرفض الكلي لنظرية ابن الاثير في علاقة النحو بالمعنى ، وهنا ايضا جاءت مناقشات الناقدين لـ

الأمثلة دون النظرية .

ولدى تناول ابن الاثير للعلاقة بين اللفظ والمعنى ، جعل منها نظيرا لعلاقة الخادم بالمخدوم أولا ثم تطرق الى بعض جوانب مؤثرة في هذه العلاقة مثل التآلف والتناسب والمساواة ، وتوكيد اللفظ للمعنى وتقويته ، وتغيير المعنى بتغيير ترتيب الالفاظ ، واثار التكلف اللفظي في المعنى ، ومثل على هذا التكلف برسالتى الحريرى في بعض مقاماته . وقد ناقش الصفدى — اثنا دفاعه عن الحريرى نظرية التكلف هذه ، وجعل التكلف نوعين : ثقيل مجروح ، وخفيف لا يكاد اثر الكلفة يلح فيه ، وفيما هذا ذلك كان موقفه مقاربا الى حد ما لموقف ابن ابي الحديد وخاصة في مناقشتهما لبعض شواهد ابن الاثير وتحويلها من مسائل بلاغية الى مسائل نحوية .

وفي قضية تداول المعاني اخذ ابن الاثير باقوال من تقدمه من النقاد العرب ، فنوه بان الاخذ من المعاني المشتركة او المتداولة لا يعد هيبا او سرقة ، شريطة اخلاء الاخذ بحذق ومهارة ، مع اضافة شي من الطرافة او الابهكار الى المعنى المأخوذ . واكد ان السرقة لا تقع الا في معنى مخصوص انفرادا بهتداه الشاعر . وبالمقابل رفض قول القائل ان الاوائل سبقوا الى المعاني ، كما رفض اقتصار المناظرة على المعاني المثقلة او المتماثلة ، مشيرا الى امكانية وقوعها بين المعاني المختلفة . ودعا الى اجراء المناظرة في القصيدة بكاملها لا في البيت الواحد . ولم يورد ابن ابي الحديد او الصفدى شيئا على هذه الآراء ، واكتفى الصفدى بمناقشة تعليقيين لابن الاثير على مثالين في نوعين من السرقة الشعرية .

واما في القسم الثالث والاخير من هذه الدراسة ، فقد اثبت شيئا (مما استخلصته من

« المثل السائر ») من مناقشات فردية وهي تدور حول حديث ابن الاثير عن نفسه ومدحه لفنه الكتابي ومهارته في معارضة اشهر الكتاب مثل ابي اسحاق الصابي ، والقاضي الفاضل ، وابن زيادة البغدادي ، وتتناول بالتنديد طائفة من علماء العربية ، من بينهم الغزالي وشعيب والمعري والحريزي . وتشابه موقف كل من ابن ابي الحديد والصفدي من هذه المناقشات ، حين راحا يحاولان ابراز اخطاء وتناقضات تراعت لهما في بعض اقوال ابن الاثير ، ووضع هذه الاقوال موضع الشك والتساؤل للبرهنة على تجاوز زميلهما الناقد للموضوعية احيانا ، وكذلك حين التزما بالدفاع عن ندد بهم ابن الاثير .

ومن هذا كله تتضح حقيقتان : ١ - مبادرة كل من ابن ابي الحديد والصفدي الى اتخاذ موقف دفاعي أني وجدا من ابن الاثير تنديدا بالآخرين وغضا من شأنهم . ٢ - وان معظم ردود هذين الناقدين هي ردود جزئية تتناول الامثلة والشواهد ولا تمس القضايا في صميمها ، الا في النادر .

كما يتضح تبين اساليب النقاد الثلاثة في الوقوف عند القضايا النقدية ومعالجتها وفي مناقشة الآراء المطروحة حولها . فلا ابن الاثير اسلوب الناقد الذواق الذي يبحث موضوعه بحثا ادبيا خالصا بعيدا عن النحو والفلسفة والذي يعتمد الذوق في معظم تعليقاته واحكامه .

ولا ابن ابي الحديد النحوي المعتزلي اسلوبه المتكلم الذي يعول على المنطق والجدل العقلي في النقاش وفي التدليل على وجهة نظره .

واما الصفدي فهو ذاك الاديب الفنان الذي يراوح بين الاسلوب المنطقي — في قلة من مناقشاته ، والاتجاه البديهي — في المعظم ، والذي لا يخفي ميله للجناس والتأنق اللفظي وزخرف الصنعة الكلامية .

ثبت المصادر

مصادر البحث
١- مؤلفات النقّاد الثلاثة

- أ- ضياء الدين بن الاثير،
١- الاستدراك، بتحقيق حلفى شرف، القاهرة، مطبعة الرسالة، ١٩٥٨.
٢- الجامع الكبير، تحقيق د. مصطفى جواد ود. جميل سعيد، بغداد، مطبعة
المجمع العلمي العراقي، ١٩٥٦.
٣- رسائل ابن الاثير، تحقيق انيس المقدسي، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٥٩.
٤- المثل السائر، تحقيق أحمد الحوفي ود. بدوى طبانه، القاهرة، مطبعة الرسالة
١٩٥٨.
٥- الوشي المرتسم، القاهرة، مطبعة ثمرات الفنون، ١٢٩٨.
ب- عز الدين بن ابي الحديد
٦- شرح نهج البلاغة، مصر، مطبعة الباهي الحلبي، ١٩٢٩.
٧- الفلك الدائر على المثل السائر، تحقيق د. احمد الحوفي ود. بدوى طبانه، القاهرة
مطبعة الرسالة، ١٩٥٨.
ج- صلاح الدين الصفدى
٨- تمام الثون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة
دار الفكر العربي، ١٩٦٩.

- ٩ — جنان الجناس ، قسطنطينية • مطبعة الجوائب ١٢٩٩
- ١٠ — الغيث المسجم في شرح لامية العجم ، الاسكندرية ، المطبعة الوطنية ١٢٩٠
- ١١ — نصره الثائر على المثل السائر ، تحقيق محمد علي سلطاني ، دمشق مجمع اللغة العربية ١٩٧٢
- ١٢ — نكت الهميان في نكت العميان ، القاهرة ، المكتبة التجارية ١٩١١ •
- ١٣ — الوافي بالوفيات (١-٧) تحقيق جماعة من الاساتذة • جمعية المستشرقين الالمانية ١٩٣١ - ١٩٧٢ •

٢ — مصادر اخرى

- ١٤ — انباكة الموصل لعزالدين بن الانير ، تحقيق عبد القادر طلعيات ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٣ •
- ١٥ — اختصار القدح المعلى لابن سعيد ، تحقيق ابراهيم الابيارى ، القاهرة ، الهيئة العامة ، ١٩٥٩ •
- ١٦ — اسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ، تحقيق ه • ريتز ، استانبول ، مطبعة وزارة المعارف ، ١٩٥٤ •
- ١٧ — الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ، القاهرة ، المطبعة الشرقية ، ١٩٠٧ •

- ١٨ - الاغانى لابي الفرج الاصبهاني ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٥٧ .
- ١٩ - انباء الغمر بانباء العمر لابن حجر العسقلاني ، تحقيق د . حسن حبش ، القاهرة
لجنة احياء التراث الاسلامي ، ١٩٧١ .
- ٢٠ - انباء الرواة علي انباء النحاة لجمال الدين القفطي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،
القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٥٠ .
- ٢١ - بدائع الهدائه لابن ظافر الازدي ، بهامش معاهد التنصيص ، القاهرة ، المطبعة
البيهية ، ١٣١٦ .
- ٢٢ - البداية والنهاية لابن كثير ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٥٨ .
- ٢٣ - البدر السافر في انس المسافر للادفوى ، مخطوط رقم (٤٢٠١) استانبول .
- ٢٤ - البدر الطالع بحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٤٨ .
- ٢٥ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ،
القاهرة ، البابي الحلبي ، ١٩٦٥ .
- ٢٦ - بلوغ الارب في معرفة احوال العرب للالوسي . دار الكتاب العربي بمصر ط ٢٧ .
- ٢٧ - البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة وبيروت ١٩٧٨ .
- ٢٨ - تاريخ ابن خلدون ، بيروت . دار الكتاب اللبناني ١٩٦٦ .
- ٢٩ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٣١ .
- ٣٠ - تاريخ الطبري ، ليدن ، مطبعة بريل ١٩٦٤ ط ٢ / ٢

- ٣١ - تحرير التحرير لابن أبي الاصبغ ، تحقيق د . حفني شرف . القاهرة ، لجنة
احياء التراث الاسلامي ١٣٨٣ .
- ٣٢ - تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني ، تحقيق د . مصطفى جواد ، بغداد ، مطبعة
المجمع العلمي العراقي ١٩٥٧ .
- ٣٣ - الجامع المختصر لابن السامي ، بعناية مصطفى جواد ، بغداد ، المطبعة السريانية
الكاثوليكية ١٩٣٤ .
- ٣٤ - الحوادث الجامعة لابن النوطي ، بعناية مصطفى جواد ، بغداد ، المكتبة العربية
١٣٥١ .
- ٣٥ - خزانة الادب ولب لباب لسان العرب للبغدادى ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة
دار الكاتب العربي ١٩٦٩ .
- ٣٦ - دار الطراز لابن سناء الملك ، تحقيق جودة الركابي ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية
١٩٤٩ .
- ٣٧ - الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، القاهرة ، مطبعة
المدني ١٩٦٦ .
- ٣٨ - دلائل الاعجاز لمحمد الفاهر الجرحاني ، القاهرة ، مطبعة المنار ١٣٣١ ط / ٢
- ٣٩ - الذيل علي الروضتين لابي شامة بعناية عزت العطار . القاهرة ١٩٤٧ .
- ٤٠ - روضات الجنات للخوئاسرى الاصبهاني ، تحقيق اسد الله اسطهيليان ، تهران ١٣٩٦ .
- ٤١ - الروضتين في اخبار الدولتين لابي شامة ، القاهرة ، مطبعة وادى النيل ١٢٨٨ .
- ٤٢ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، تحقيق علي هودة ، القاهرة ، مطبعة الرحمانية ١٩٣٦ .

- ٤٣ - السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ، بعناية محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ،
مطبعة دار الكتب ١٩٣٤ .
- ٤٤ - شذرات الذهب لابن عماد الحنبلي ، القاهرة ، مطبعة القدسي ١٣٥١ .
- ٤٥ - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، بعناية احمد امين ، وعبد السلام هارون ، القاهرة
لجنة التأليف ١٩٥١ .
- ٤٦ - الصناعتين لابي هلال العسكري ، تحقيق البجاوي وابو الفضل ابراهيم ، القاهرة
مطبعة صبيح ١٩٦٦ ط ٢ / ٠
- ٤٧ - الضوء اللامع للسخاوي ، القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٣٥٣ .
- ٤٨ - طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي ، القاهرة ، المطبعة الحسينية ١٣٢٤ .
- ٤٩ - المعبر في خبر من ذهب للذهبي ، تحقيق د . صلاح الدين المنجد ، الكويت ١٩٦٦ .
- ٥٠ - عقود الجمان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار ، مخطوط رقم (٢٣٢٥) صورة .
- ٥١ - العمدة في صناعة الشعر لابن رثيق القيرواني ، تحقيق محمد مجي الدين عبد الحميد .
مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٥ ط ٢ / ١ .
- ٥٢ - عنوان المرتصات والمطربات لابن سعيد ، القاهرة ، جمعية المعارف ، ١٢٨٦ .
- ٥٣ - عيار الشعر لابن طه اطباء ، تحقيق د . الحاجري ود . محمد زفلول سلام ، القاهرة
المكتبة التجارية ١٩٥٦ .
- ٥٤ - غرائب التنبيهات على عجائب التنبيهات لابن ظافر الازدي ، تحقيق د . محمد زفلول سلام
والصاوي الجويني . دار المعارف بمصر (لا ت)

- ٥٥ - الفخرى في الآداب السلطانية لابن الطقطقي ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ١٣٤٠ هـ .
- ٥٦ - اللصيح لشعلب ، تعليق محمد عبد المنعم خفاجي ، القاهرة ، المطبعة النموذجية ١٩٤٩ هـ .
- ٥٧ - الفهرست لابن النديم ، بيروت ، مكتبة خياط ١٩٦٤ هـ .
- ٥٨ - فوات الوفيات لابن شاکر الکتبی ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة مطبعة السعادة ١٩٥١ هـ .
- ٥٩ - القاموس المحيط للفيروز آبادي ، القاهرة ، المطبعة الكستلية ١٢٨١ هـ .
- ٦٠ - الكامل في التاريخ لعز الدين بن الاثير ، بيروت ، دار صادر - دار بيروت ١٩٦٦ هـ .
- ٦١ - اللباب في تهذيب الانساب لعز الدين بن الاثير ، القاهرة ، مطبعة القدسي ١٣٥٦ هـ .
- ٦٢ - لسان العرب لابن منظور ، بيروت ، دار صادر - دار بيروت ١٩٥٥ هـ .
- ٦٣ - مجمع الآداب في معجم الالقاب لابن الخوطي ، تحقيق د . مصطفى جواد ، دمشق المطبعة الهاشمية ١٩٦٢ هـ .
- ٦٤ - مرآة الجنان وهرة اليقظان لليانعي ، حيدرآباد الدكن ، مطبعة دار المعارف ١٣٣٩ هـ .
- ٦٥ - مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ، حيدرآباد الدكن ، دائرة المعارف العثمانية (لا . ت) .
- ٦٦ - المطرب من اشعار أهل المغرب لابن دحية ، تحقيق الابيارى ود . حامد عبد المجيد ود . احمد بدوي ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ١٩٥٤ هـ .
- ٦٧ - مصادر نهج البلاغة واسانيد لعبد الزهراء الحسيني ، النجف ، مطبعة القضاء ١٩٦٦ هـ .

- ٦٨ - معجم الادباء لياقوت ، القاهرة ، مطبوعات دار المأمون ، الطبعة الاخيرة (لا . ت)
- ٦٩ - معجم البلدان لياقوت ، بيروت ، دار صادر ١٩٥٥ .
- ٧٠ - المغرب في حلي المغرب لابن سعيد ، تحقيق د . شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٥٣ .
- ٧١ - مفتاح السعادة لطاسق كبرى زاده ، حيدرآباد الدكن ، مطبعة دار المعارف ١٣٥٦ .
- ٧٢ - مفرج الكروب في اخبار بني ايوب لابن واصل ، تحقيق د . حسنين ربيع ، القاهرة مطبعة دار الكتب ١٩٧٢ .
- ٧٣ - مقامات الحريري ، بعناية الزمخشري ، بيروت ، المطبعة الادبية ١٩٠٣ ط / ٣ .
- ٧٤ - منهاج البلغاء وسراج الادباء لحازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجه ، تونس ، دار الكتب الشرقية ، ١٩٦٦ .
- ٧٥ - الموازنة بين الطائيين للامدي ، تحقيق احمد صفر . دار المعارف بمصر ١٩٦١ .
- ٧٦ - النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ١٩٥٠ .
- ٧٧ - نزهة الالباء لابن الانباري ، تحقيق د . ابراهيم السامرائي ، بغداد ، مكتبة الاندلس ١٩٧٠ ط / ٢ .
- ٧٨ - نفع الطبيب للمقرئ تحقيق د . احسان عباس . بيروت ، دار صادر ١٩٦٨ .
- ٧٩ - نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، تحقيق س . ا . بونيباكر . لندن ، مطبعة بريل ١٩٥٦ .
- ٨٠ - الوساطة بين المتنبي وخصومه ، للقاضي عبد العزيز الجرحاني ، تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم والبجاوي ، القاهرة ، البابي الحلبي ١٩٦٦ .

٨١ — وفيات الاميان لابن خلكان ، تحقيق د . احسان عباس ، بيروت ، دار الثقافة
٠ ١٩٦٩

٨٢ — بنية الدهر لابي منصور الثعالبي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة
مطبعة السعادة ، ١٣٢٥ .